نفحاتُ عرفانية

من إفاضات العارف الرّباني

السيّد عبد الأعلى السبزواري

الشيخ ابراهيم سرور

بسم الله الرحمن الرحیم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نفحات عرفانیه

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تالیف:

ابراهیم سرور

کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۲۳۴۸۶
تاریخ ثبت :

سرور، ابراهیم
نفحات عرفانیه / تالیف ابراهیم سرور. ــ قم: آیه حیات، ۱۳۸۵.
۳۱۲ ص.
ISBN 964-95475-8-4
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی
۱. عرفان. ۲. آداب طریقت. ۳. اخلاق عرفانی. الف.عنوان.
BP ۲۸۶/۴ن۷
۲۱۷/۸۳
کتابخانه ملی ایران
۱۰۶۷۸ـ۸۵م

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الکتاب: نفحات عرفانیة
المؤلف: ابراهیم سروری
الناشر: آیه حیات
المطبعة: نهضت
الطبعة: الاولی ۱۳۸۵
العدد: ۲۰۰۰
الشابک: ٤ ـ ٨ ـ ٩٥٤٧٥ ـ ٩٦٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

لما كان العلماء ورثة الأنبياء أمرنا الله عزَّ وجل أن نقتدي بهم في كل زمان ومكان ونتخلق بأخلاقهم ونحذو حذوهم، وذلك لأنهم جسّدوا ما عليه الأنبياء والأئمة الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن هذا الباب وإكراماً من الله تعالى لأحب خلقه إليه وهم العلماء الأتقياء والعارفين به والأولياء منح الله عزَّ وجل كل إنسان يهتدي بهديهم ويستنير بنورهم ويسلك مسلكهم، منحه الدرجات الرفيعة والمقامات العليّة في الدارين، وذلك لما اكتسبه من صفات لا مثيل لها باستضائته بضياء العلم والمعرفة بعد أن غدى مزاحماً لهم بركبتيه فهم قدوة البشرية وذلك لأنهم «أقرب الناس من درجة النبوة وورثة الأنبياء» كما في الحديث عن رسول الله ﷺ[1].

(١) ميزان الحكمة، مادة «علم».

والمراد بالعالم هو ذاك الإنسان العالم بالمعارف الإلهية التي تمنح الإنسان الكمال والسعادة الأبدية وترتقي به من حضيض الحيوانية إلى ذروة الإنسانية والروحانية.

فعن رسول الله ﷺ: «إنما العلم ثلاثة، آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل»(١).

وعن الإمام علي عليه السلام: «إنّ معرفة النفس أفضل العلوم»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وجدت علم الناس في أربع: أولها أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة: أن تعرف ما أراد منك، والرابعة: أن تعرف ما يخرجك من دينك»(٣).

وهذا العلم هو الذي يورث العبودية والخشية من الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء، الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩].

ومن أبرز أولئك العلماء الأعلام والعرفاء العظام العارف الرباني، والفقيه النحرير والمفسر الكبير السيد عبد الأعلى السبزواري «قدس سره»، فقد كان مصداقاً جلياً للعالم، العامل العارف العابد الناسك الزاهد التقي الورع.

يقول عنه آية الله السيد علي البهشتي حفظه الله بأنه «البدر العظيم القدر لطالبي الهداية، صاحب الطبائع الملائكية، الآية الكبرى والحجة العظمى الحاج السيد عبد الأعلى السبزواري «خلّد ذكره السوي» وهو مصدر تعليم

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) تفسير الميزان، ج٦، ص١٨٢.
(٣) ميزان الحكمة، مادة «علم».

الفقاهة والجوهرة الساطعة للنباهة، صاحب مبادىء التحقيق، وصاحب دورة الفقه الكاملة على نحو دقيق».

ويقول عنه العلامة الشيخ باقر شريف القرشي انه: «كان عطاءً متواصلاً للفكر الاسلامي ومنبعاً أصيلاً للحياة العلمية في دنيا الإسلام، كما كان قاعدة مشرّفة لهدى الإسلام وروحانيته، فقد شهدت في سلوكه جميع القيم الأصيلة والمثل العليا التي يسمو بها هذا الكائن الحي من بني الإنسان».

ويقول السيد عبد الستار الحسني انه: «صفوة الفقهاء والمجتهدين، وإمام أهل العرفان الواصلين، وقرم جهابذة وعلم للأصوليين فهو في العلم والفقاهة والأصول والتفسير والعرفان وعلوم الحديث، ومعرفة الرجال والفلسفة والأخلاق والورع، وسائرالخصوصيات التي انفرد بها عن أعلام زمانه آية الآيات وحجة الحجج والقدر المتيقن من مصاديق قول جده ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

ونحن نقول وتعليقاً على كل ما سبق من الكلام في تعريفه «قدس سره» فهو أجلّ من أن يُعرّف وأوضح من أن يزكّى، وقد دلّت آثاره السلوكية والعرفانية عليه، وقد عرفه القريب والبعيد وتأثر به ويمسلكه كل طالب مريد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٠].

شهرته بالاخلاق والعرفان:

اشتهر السيد عبد الأعلى السبزواري (رحمه الله) بين الناس بأنه من أهل التقوى والورع، وأصحاب السير والسلوك إلى الله تعالى، ومن العرفاء المنقطعين إلى الله تعالى والذين لهم كشوفات عن العالم الغيبي. وقد كان «قدس سره» يقول: «كانت تنكشف لي بعض الحقائق في مرحلة من عمري» إلاّ أنه لم يبيّن ما هي تلك الحقائق.

يقول عنه العلامة الثبت السيد محمد حسين الطالقاني حفظه الله:

عُرف الإمام السبزواري بين صفوف أهل العلم وغيرهم من أصناف الناس بالتقوى وشدة الورع والمحافظة والاحتياط، فقد كان عابداً متهجداً مواظباً على قراءة القرآن، والأدعية المأثورة، والأذكار المتداولة التي يحيي بها الأسحار... وقد كان من العرفاء الشامخين والأولياء المخلصين، نجح في طريق السير والسلوك إلى الله تعالى منذ يومه الأول، فقد فتح عينيه على أستاذه المربي العارف الشيخ حسن علي الأصفهاني في خراسان ولازمه ملازمة الظل عشر سنين يتبع خطاه ويقتفي أثره ويضع قدمه في موضع قدمه، حتى طُبِع بطابعه... ولما سافر إلى النجف الأشرف اتصل بالحكيم الإلهي محمد حسين الكمباني الأصفهاني، والعارف الرباني السيد حسين البادكوبي فتأثر بهما كثيراً واتّبع خطاهما وتعاليمهما ويُعرب عن ذلك قوله: «إن فعل بعض مشايخنا حجة علينا ومنه نأخذ الفعل المندوب وما كان يتركه فهو محرّم أو مكروه»(١).

من كرامات السيد عبد الأعلى السبزواري

لا مانع لدى كل الطوائف والملل والنحل من ترقب الكرامات ممن هو أهل لها وكان عالماً عارفاً وولياً، ولذا فإن سيدنا «قدس سره» قد اشتهر عنه الكثير من الكرامات والتي تدل على سمو مقامه الروحي في حياته وبعد مماته.

ومن جملة هذه الكرامات أنه: نقل عن السيد علي السبزواري حفظه الله أن طبيب العيون قرّر إجراء عملية لعيني السيد «قدس سره» ولما حان وقت العملية وأراد الطبيب تزريق السيد بإبرة البنج رفض السيد رحمه الله ذلك لأنه يرى أنها تسبب الإغماء الذي يترتب عليه أحكام شرعية والتي منها إبطال الوكالات التي أعطاها السيد لوكلائه، فأصرّ الطبيب على وضع البنج لأن

---

(١) جمال السالكين، السيد حسين نجيب محمد، ص٣٨.

عملية العين حسّاسة جداً كما هو واضح فقال السيد علي حفظه الله للطبيب: إجر العملية كما يقول السيد، وهكذا حصل وعندها بدأ السيد بالتسبيح وأخذ الطبيب بإجراء العملية من دون تخدير وانتهت العملية بالنجاح.

ولا شك أن من يتحمل إجراء عملية جراحية من دون ألم لانشغاله بالتسبيح لله تعالى لهو من أصحاب المقامات العالية الذين يعيشون الانقطاع إلى الله تعالى، وهو بذلك يشبه جده أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يستغرق في عبادة الله تعالى إلى درجة الخشوع التام، فلقد اشتهر عنه بأنه كان إذا أصابه شيء من السهام في الحرب كانوا ينزعونها عنه في حال الصلاة بدون أن يشعر بأي ألم على الاطلاق.

ولقد كان السيد السبزواري «قدس سره» في إحدى سني عمره ذاهباً لحج بيت الله الحرام مع حملة الحاج السيد إسماعيل حبل المتن، وفي أثناء مسيرهم مروا بمنطقة «عرعر» السعودية فتاهت قافلتهم في الصحراء حتى نفد الماء الذي كان معهم وحشرت السيارات في الرمال، إلى أن بلغ اليأس بهم أن حفر كل واحد منهم حفرة صغيرة في الرمال، كقبر له، وضجوا بالدعاء والتوسل.

وأما السيد السبزواري «قدس سره» فقد ابتعد عن الأنظار تدفعه روح إيمانية صاعدة إلى مناجاة السماء.

وهنا انقطع إلى الله بصلاته المحبوبة «صلاة جعفر عليه السلام» متوسلاً إليه بصاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، وإذا برجلين أو ثلاثة قد أقبلوا إلى الحجاج، وملؤوا قربهم ماءاً، ثم أرشدوهم الى جادة الطريق بعد أن ساعدوهم في إخراج السيارات من قعر الصحراء، وبعدها لم يجد الحجاج لأولئك الثلاثة أثراً[1].

---

(١) جمال السالكين، ص٤٠ ـ ٤١.

وإني إذ أعتذر من القارىء الكريم من عدم إمكاني لاستفاضة جميع الكرامات المتعلقة بالسيد «قدس سره» مع ما له من الكرامات العجيبة المشهودة وغير المشهورة، وذلك لكثرة انشغالي ببعض الكتب الأخرى ومن أراد التوسعة عن حياة المؤلِّف وشخصيته يمكنه مراجعة بعض الكتب وإننا ننصح بمطالعة كتاب جمال السالكين لسماحة السيد حسين محمد لما انطوى عليه الكتاب من مضامين عالية حول حياة السيد «قدس سره» وبعض وصاياه ونصائحه في السير والسلوك العرفاني والعملي.

وإني حاولت من خلال جمعي لهذا الكتاب أن أؤدي حقاً للسيد «قدس سره» عجزت عن تحقيقه في الماضي فتناولت فيه المطالب والبحوث العرفانية، فإن منها الكثير من العبر والدروس التي تفيد الإنسان وخصوصاً فيما يتعلق في سيره وسلوكه نحو الله تعالى.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الشيخ إبراهيم سرور

٧ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ

علم العرفان واشتقاقه

العرفان علم جليل ليس له مثيل في سائر العلوم مطلقاً في الشمولية والسعة والآثار والسالك والمسلوك فيه والمقصد والغاية وكلها جلائل عظام والبحث في كل واحدة منها يقصر عنه الإفهام إلا لمن كان ذا حظ من العلم والمعرفة وهم الأنبياء العظام والأوصياء الكرام فهم الأصل في هذا العلم الجليل والقدوة في هذا الطريق وغيرهم إن رجع ما قالوه فيه إليهم فلا بأس به وإلا فهو مجرد كلام لا حقيقة له وإن ادعى الكشف والشهود في ما ادعوه ونحن لا نريد الدخول في التفاصيل فهو موكول إلى محله إلا أننا نذكر في المقام بعض ما يتعلق بالسالك والمسلوك فنقول:

إن العرفان مأخوذ من المعرفة الحاصلة من العلم النفساني الحاصل من النظر في النفس وطرق صلاحها وأحوالها وأطوارها ودائها ودوائها وسائر خصوصياتها والنظر في الآيات الآفاقية ومعرفة الله سبحانه وتعالى مما يوجب هداية الإنسان إلى التمسك بالدين الحق والشريعة الإلهية التي تمثل المعرفة الكاملة ومالها من التعلق بعلم التوحيد والمعاد والنبوة فإن هذه المعرفة الحقة الحقيقية بما لها من المراتب الكثيرة إذا تحققت في فرد وجد نفسه متعلقاً بمعدن العظمة والكبرياء متصلة في وجودها

وحياتها وسائر خصوصياتها بمن لم يكن متناهياً في الحياة والعلم والقدرة وغيرها من كل كمال وأشرقت عليها من بهائه وسنائه وجماله وجلاله وكماله ما لم يقدر أي لسان أن يكشفه فهو شهودي خاص.

ولعل هذه الكلمة (العرفان) مأخوذة من تلك الأحاديث المتواترة التي اشتملت على قولهم (صلوات الله عليهم) (من عرف نفسه فقد عرف ربه) الذي يستفاد منه أمور:

الأول: إن السبيل في معرفة الرب إنما يكون بمعرفة النفس فإنها مظهر عظمته وكبريائه وقدرته وسائر صفاته.

الثاني: أن معرفة النفس كمعرفة الباري شهودياً أكثر من كونه نظرياً، فإن التصديق الفكري يحتاج إلى مقدمات ونظم الأقيسة واستعمال البراهين والتوجه إلى الخصوصيات وإلاّ يزول العلم بزوال التوجه والإشراق فتكثر فيه الشبهات ويتوارد فيه الاختلاف. بخلاف العلم بالنفس فإنه علم حضوري وأنه من العيان ويظهر ذلك لمن اشتغل بالنظر في النفس وعرف داءها ودواءها وطرق إصلاحها وشاهد فقرها إلى ربها وحاجتها في جميع أطوارها إلى خالقها فإنه حينئذٍ يجد نفسه متعلقاً ببارئها متفانياً في حبه والتعلق به كما ستعرف.

الثالث: أن المعرفة بالنفس لها مراتب متفاوتة كما أن المعرفة بالرب كذلك.

الرابع: أن النفس لما كانت مضطرة في سيرها وسلوكها لا هم لها إلا السير في مسيرها الاضطراري والوصول إلى المرجع، فإذا انتبهت إلى هذه الجهة تكون منقطعة عن كل شيء يحتمل الاختلاط معه إلا ربها

المحيط بباطنها وظاهرها والعالم بجميع خصوصياتها فتكون في فرط التوجه إلى ربها وانشغالها به وفي ذكر منه وإن كانت في ملأ من الناس واختلاط معهم وهذا هو السر العظيم في هذا العلم الجليل الذي يجمع بين أمرين متنافين ظاهراً، فإن النفس في عين اختلاطها مع الناس لا يمكنها ترك طريقها الاضطراري فإذا انصرفت إلى بارئها وتوجهت إلى ربها نسيت كل شيء فتكون على ذكر منه تعالى فلا يحجبها حجاب ولا يسترها ساتر وهذا هو حق المعرفة وهي معرفة الله بالله.

وأما المعرفة بالبراهين الحاصلة فهي مقيدة ولا يمكن أن تتعلق به تعالى لأنه لا يحيط به علماً.

الخامس: استحالة المعرفة الكاملة بالنفس لاستحالة الإحاطة العلمية الكاملة بالله دون ما ذكره بعضهم من استحالة المعرفة بالنفس فإنه مردود بقوله ﷺ: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه» فيكون معنى الحديث من لم يعرف نفسه لا يعرف ربه، ونحن نذكر بعض الأحاديث الواردة في هذا المجال ثم نذكر ما يتعلق ببعض الخصوصيات.

في الغرر والدرر للآمدي عن علي عليه السلام: (المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين).

أقول: المراد من المعرفتين المعرفة الآفاقية والمعرفة بالنفس كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (حم/ السجدة: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١)، وعرفت أن معرفة النفس أنفع من معرفة آيات الآفاق لأن معرفة النفس لا ينفك عن التخلية والتحلية للنفس وبالآخرة

توصل معرفتها بمعرفة الله تعالى وأما معرفة الآفاق فإنها توصل إلى معرفة الله من حيث أسماؤه وصفاته وأفعاله عز وجل وإن كانت معارفه حقة حقيقية تهدي العارف بها إلى سواء السبيل وتوصله إلى السعادة والحياة المطمئنة ولكن تلك معرفة عظيمة وموقف علمي تهدي إلى دين الحق كما تهدي معرفة النفس إليه ويتحد الطريقان في الغاية لكن المعرفة الأخيرة تهدي إلى معرفة النفس والعثور على دائها ودوائها ومراتبها وما يوجب اعتدالها وصلاحها وما يسبب طغيانها وخمودها ومن المعلوم إذا صلحت النفس كانت أقرب إلى المعرفة بالآيات الآفاقية والانتفاع بها، مضافاً إلى ما عرفت في أول البحث من أن معرفة الآيات نظرية ومعرفة النفس شهودية ولكن يمكن أن يصل العارف بالله إلى الشهود في آيات الآفاق كما قال عز وجل حكاية عن إبراهيم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأنعام: ٧٥)، ولكن لا يصل إلى هذه المرتبة إلا عن طريق معرفة النفس والخلوص في تهذيبها وإصلاحها وتكميلها بالكمالات حتى تصل إلى مرتبة التجلي بالحق وفي الحق كما هو مفصل في محله.

وفي الدرر والغرر أيضاً عنه عليه السلام قال: (العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يبعدها).

أقول: عرفت الوجه في ذلك آنفاً فإن أول مراتب المعرفة هي عتق النفس عن إسارة الهوى ورقيه الشهوات واسترقاق الملكات الرديئة وسيئات الأعمال أو بعبارة أخرى تخليتها من كل ما يشينها ولا يتحقق إلا بمعرفة النفس داءها ثم علاجه بدوائه.

وفيه أيضاً: (أعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه).

أقول: حكم المقابلة بين الجهل والعلم يقتضي أنه كل ما كان

الأخير أعظم نفعاً كان الجهل بالنفس أعظم أنواع الجهل فإن بهذا الجهل يفوت كل الخير وتنسد جميع أبواب السعادة والفلاح وتنفتح أبواب الشقاء والعناء.

وفيه عنه عليه السلام: (الكيس من عرف نفسه وأخلص أعماله).

أقول: لأن الإنسان إذا عرف نفسه وأمكن تهذيبها وإصلاحها وعرف داءها ودواءها استطاع تذليلها وجعل زمامها بيد العقل الذي لا يريد إلا الخير في إرشاداته وتوجيهاته فكان العارف كذلك كيساً استعمل عقله ونفسه في طريق الهداية والصلاح وأخلص في أعماله من شوائب الرياء والنواقص. ومما ذكرناه يظهر السر في ما ورد عنه في ما يأتي من أقواله عليه السلام.

ففيه أيضاً عنه عليه السلام: (أعظم الحكمة معرفة الإنسان نفسه).

وفيه عنه عليه السلام: (أفضل العقل معرفة المرء نفسه فمن عرف نفسه عقل ومن جهلها ضل).

وفيه عنه عليه السلام: (عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه؟!).

وفيه عنه عليه السلام: (غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه).

وفيه عنه عليه السلام: (كفى بالمرء معرفة أن يعرف نفسه وكفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه).

وفيه عنه عليه السلام: (عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها).

وفيه عنه عليه السلام قال: (من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم).

وفيه عنه عليه السلام قال: (معرفة النفس أنفع المعارف).

وفيه عنه عليه السلام قال: (من عرف نفسه كان لغيره أعرف ومن جهل نفسه كان بغيره أجهل).

وفيه عنه عليه السلام قال: (لا تجهل بنفسك فإن الجاهل معرفة نفسه جاهل بكل شيء).

أقول: هذا ما يفسر ما قبله، فلما كانت معرفة النفس أمراً عظيماً وتستلزم تجردها عن العلائق المادية فتشبه المجردات، ولا يعوق المجردات من العلم والمعرفة بكل شيء عائق.

وفيه عنه عليه السلام: (من عرف نفسه تجرد).

أقول: تقدم آنفاً المراد منه أي تجرد عن علائق الدنيا وهذا من آثار معرفة النفس العظيمة.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وفيه عنه عليه السلام: (من عرف نفسه جاهدها ومن جهل نفسه أهملها).

أقول: هذا أيضاً أثر من آثار معرفة النفس وفوائدها الكثيرة فإن بمعرفة النفس تعرف خصوصياتها كما عرفت سابقاً فيقوم بإصلاحها وتهذيبها، وهذا هو الجهاد معها ولا يمكن الجهاد مع مجهول لا يعرف خصوصياته.

وفيه عنه عليه السلام: (من عرف نفسه جل أمره).

أقول: فائدة أخرى من فوائد معرفة النفس وأثر من آثارها فإن معرفتها يوجب انشغاله بها ويوصل إلى معرفة الله عز وجل وهذا من جلائل الأمور أو يجل أمره ويعظم ثوابه.

وفيه عنه عليه السلام قال: (نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس).

أقول: أثر من الآثار العظيمة المترتبة على معرفة النفس وهو الفوز الأكبر سواء كان معرفة الله عز وجل أو ثوابه أو السعادة العظمى أو تلك الآثار المتقدمة وغيرها التي هي بنفسها فوائد عظيمة.

إلى غير ذلك من الروايات التي وردت بهذه المضامين وكفى بما أوردنا دليلاً على أن معرفة النفس هي من أعظم المعارف وأتمها وأشملها وأثبتها وأوصلها إلى المقصود، إن إثبات النفس وتجردها لا يمكن إنكاره إلا ممن كان مكابراً للحق، ولذلك ترى أن الجهاد مع النفس والعرفان بها لم يكن مختصاً بملة الإسلام بل كان في الملل الأخرى حتى الأديان الوضعية بل أن منهج بعضها وشريعتها لا تكون إلا بعرفان النفس ومعرفة سائر خصوصياتها وتشريع رياضات خاصة في هذا السبيل وحرمانها من اللذائذ الجسمانية وانعطاف الفرد إلى النفس بإصلاحها، ولذا كانت محورها وأساسها الارتياضات النفسانية والزهد والتقشف عن متاع الدنيا، فإن الانكباب عليها ومطاوعة هوى النفس يصرف الإنسان عن الاشتغال بنفسه وقد عرفت أن هذا النوع من العرفان تترتب عليه آثار عجيبة تشبه الموضوع الذي يجاهد فيه وهي أعظم من ما يترتب على الأمور المادية من الآثار بمراتب كثيرة، فإن النفس من عالم الأمر ومن المجردات التي لها تعلق بالبدن فكانت ذاتها منها ولكن أفعالها مادية لتعلقها بالبدن فكانت الآثار والفوائد المترتبة على عرفان النفس تشبه هذا الموضوع المجرد، وعلى أي حال فإن هذا النوع من العلم قديم جداً منذ بدء الخليقة ومن السنن الدائرة بين الناس ما دام هذا المخلوق العجيب مركباً من هذين الأمرين وهما النفس والجسد فإن أحدهما لا بد أن يؤثر في

مستوى الإدراك والعلم والمعرفة التي عنده كما عرفت آنفاً. بيد أن الاشتغال بالنفس وتوجيه المعرفة إليها على طرقها المختلفة بين الأقوام وأفراد الناس للحصول على الآثار العجيبة قديم جداً بل كان بعض الأفراد يعتبرها مهمة عظيمة يجب أن يبذل دونها الأنفس والأوقات وأغلى الأثمان والأهل والديار.

راجع تاريخ الشعوب والأديان ترى صحة ما ذكرناه. وقد حكى القرآن الكريم رهبانية النصارى فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٢٧)، كما حكى تعبد بعض اليهود وتنسكهم، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (آل عمران: ١١٤).

ومن هذه الآيات يتبين أن هذا النوع من العلم وهذا القسم من العرفان له شروط وآداب وأحكام فإذا روعيت وصل الفرد إلى المقصود وهو رضوان الله تعالى، وأما إذا فقدت ترتب على هذه المجاهدة آثار خاصة إلا أنهم قد يحرمون من المقصود الأهم كما عرفت.

ومن ذلك يظهر الجواب عن جملة من الإشكالات التي أوردوها ونحن نذكر الأهم منها:

الأول: أن ما كانت تفعله الأقوام أو الأديان والمذاهب التي تدعو إلى العبودية إنما هو الزهد والانقطاع من الدنيا وترك الهوى والابتعاد عن الذنوب والآثام واكتساب الفضائل لأجل أنه الدستور الديني المترتب عليه وبعبارة أخرى أن فعلهم إنما كان امتثالاً لأحكام الشريعة من دون أن

يخطر بباله أن هناك نفساً مجردة ولها نوعاً خاصاً من المعرفة وفيها آثار معينة مما توجب سعادتها بلا فرق في ذلك بين أن يكون صاحب شريعة ودين أو لم يكن كما إذا كان صاحب رياضة خاصة أم أملته عليه العادات والتقاليد أو لحيازة مقام معين مترتب على هذا النوع من المجاهدة والرياضة كنفوذ الإرادة والاتصال ببعض الأرواح أو جريان بعض الأمور الخارقة للعادة على يديه وغير ذلك من المقاصد التي تترتب على رياضة النفس والزهد في الدنيا وهو يفعل ذلك لا عرفان للنفس وما يترتب عليها من الأمور التي ذكرناها سابقاً.

والجواب عن ذلك يظهر من سالف ما ذكرناه من أن هذه الحالات والمواقف إنما يجمعها شيء واحد وهو صرف النفس عن الشهوات والملذات والأمور الخارجية وأنواع التمتعات المادية، ولا ريب أن هذا النوع من المجاهدة توجب صرف النفس إلى نفسها ويترتب على ذلك آثار خاصة لا يمكن الوصول إليها بالأسباب الطبيعية والأمور المادية فإنها لا يمكن الوصول إليها إلا بالانقطاع عن هذه الأسباب العادية والانقلاع عما يوجب بعد النفس عن عالمها الروحاني المجرد والاستقلال بنفسه للحصول على تلك النتائج والآثار وهذا الأمر لا يختلف فيه المتدين بشريعة ودين أو المتزهد والمتعبد الراهب أو المنكر لجميع ذلك ولكنهم يرون أن السعادة في ما انتحلوه من هذه الطريقة في المجاهدة لا يمكن أن تنال بالاسترسال في التمتعات الحيوانية واتباع الهوى والخضوع إلى الهواجس المادية لكن المنتحلين للحياة الأخروية يزيدون على سعادتهم هذه في الحياة الدنيا الحياة الطيبة في الآخرة والدخول في رضوان الله، فالجميع يرجع إلى نوع من الاشتغال بأمر النفس وهو ارتباط خاص

معنوي يكون بين المرتاض وإرادته والنتيجة المتوخاة الموعودة بأن يحصل للنفس اطمئنان بأن المطلوب مقدور يمكن الحصول عليه بهذه الرياضة الخاصة ولو وصل العلم هذا إلى اليقين بالله لكان الأثر عظيماً وهذا لا يحصل إلا لمن كان على شريعة حقة ومشى على الصراط المستقيم الذي بينه الله تعالى في شريعة خاتم الأنبياء ولعله إلى هذا يشير ما رواه المجلسي (رحمه الله) عن إرشاد الديلمي عن أمير المؤمنين عليه السلام (فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته وأفتح عيني قلبه إلى جلالي ولا أخفي عليه خاصة خلقي وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي وألبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم ويمشي على الأرض مغفوراً له وأجعل قلبه واعياً بصيراً ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار وأعرفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول والشدة وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهال والعلماء وأنومه في قبره وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه ولا يرى غم الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطلع ثم أنصب له الميزان وأنشر ديوانه ثم أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين.

(يا أحمد اجعل همك هماً واحداً واجعل لسانك لساناً واحداً واجعل بدنك حياً لا يغفل أبداً من يغفل عني لا أبالي بأي واد هلك).

وهذا مقام خطير لا يمكن الوصول إليه إلا بإفناء النفس في الله

تعالى والبقاء ببقائه لا مجرد ترويضها وصرفها عن الشهوات والملذات فإن ذلك قنطرة واحدة من القناطر العديدة في هذا السير والسلوك.

الثاني: أن بعض الباحثين توهم وجعل الدين والشريعة ليس إلاّ التصوف والعرفان حتى جعل بعضهم كل متدين من الصوفية والدين عرفانياً فقط فقال إن المسلك الحيوي الدائر بين الناس هو على قسمين مادي وعرفاني الذي هو الدين.

وفيه ما ذكرناه آنفاً أن المجاهدة ورياضة النفس والتصوف في الدنيا ليس من العرفان المعروف الذي يسوق الإنسان إلى معرفة الله ويهدي إلى الصراط المستقيم وما يترتب عليه من الجزاء العظيم والأجر الجزيل، أما هذه المعرفة فهي تختص بالنفس من حيث الوصول إلى غاية محدودة يقصدها المجاهد والمرتاض في هذا المجال وتسميته هذا بالعرفان أيضاً مسامحة فهو شيء والدين شيء آخر وإن استلزم العرفان بالملازمة لما فيه من الإعراض عن الدنيا والإقبال على النفس ومراقبتها وتهذيبها من الرذائل وتكميلها بالفضائل وهذا هو الذي يدعو إليه الدين.

وإذا أمعنا النظر في الشرائع الإلهية والأديان السماوية وسائر النحل نرى أن العرفان بأية صورة كان إنما مصدره الدين ولكن الخلاف كان في جهة تطبيقه، كما حكى عز وجل في كتابه الكريم عن عباد الأصنام والأوثان ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر:٣). فإن عبادة الله الواحد الأحد مركوزة في الفطرة، وأن التوحيد دين الفطرة والناس وإن تشعبوا في أهوائهم وعقائدهم ولكنها تميل إلى التوحيد وإن الخطأ حصل من تطبيقه والعرفان منبعه ومصدره هو هذا الأمر المركوز فهما يشتركان في الدعوة إلى السعادة الإنسانية فإن الدين يدعو إلى عرفان النفس على

أنه طريق إلى الاشتغال بوظائف العبودية لا على نحو الاستقلال فالدين يدعو إلى العرفان الفطري ويدعو إلى التوحيد كما عرفت فأحدهما يدعو إلى الآخر ويشتركان في الغاية والمقصود وهما العبودية المحصنة.

وأما غير ذلك من العرفان الذي يمارسه أصحاب الرياضات والأرواح والسحر فهو ليس بالعرفان فإن الفطرة لا تدعو إلى مثل هذا بل إنما يمارسه لأجل الوصول إلى بعض الأعمال العجيبة بعد ما يرى أنها لا يمكن أن تنال إلا عن هذا الطريق، ولكن هذه الأعمال والآثار وإن ترتبت على هذا النوع من المجاهدة مع النفس التي هي من عالم الأرواح، فإذا قطعت من عالم المادة اتجهت إلى الأرواح بقدر انقطاعها عنه ولا ريب أن الآثار حينئذٍ تكون ملائمة مع ذلك العالم وتناسب تلك المقامات ولذا نرى صدور بعض الخوارق على يد هؤلاء إلا أنها غير تلك التي تترتب من عرفان النفس الذي تدعو إليه الفطرة. والفرق بينهما كالفرق بين الآثار المترتبة على السحر وما يترتب على المعجزة وخوارق العادات التي تصدر على أيدي الأولياء والأصفياء فهم في الواقع قد فاتهم معرفة حقيقة النفس التي هي عالم خاص وسيع وفسيح جداً. وما يصدر منهم من هذه الأمور. ليست إلا أموراً مادية في الحقيقة والواقع لكن اشتبه الأمر عليهم فاعتبروها من الأمور المعنوية فهي لا تخرج عن حيطة نفوسهم وإرادتهم وشعورهم الخاص الذي له دخل في هذه الحوادث المرتبطة به ولم يتعد إلى ذلك العالم الفسيح الذي هو جزء من الغيب.

وهناك إشكالات أخرى أعرضنا عنها وهي إنما نشأت من الخلط بين هذين المسلكين المختلفين والاتجاهين المتنافيين فإن أحدهما يكون

بالاشتغال بعرفان النفس للحصول على بعض الآثار الغريبة الخارجة عن الطريق المألوف المبني على قانون الأسباب والمسببات المادية كأصحاب السحر والطلسمات وأرباب تسخير الأرواح سواء كانت أرواح الكواكب أو الموكلين على الجن وأرواح الآدميين وأصحاب الهمم والدعوات والعزائم وأرباب الذكر وأصحاب الشعوذة وغير ذلك، وقد قلنا أنها لا تخرج عن حيطة المادة وأن حقيقة النفس مغايرة لما عليه هؤلاء فهم نالوا شيئاً من آثار النفس ولكنهم غفلوا عن واقع النفس وفاتتهم معرفة حقيقتها.

أما الاتجاه الآخر وهم المشتغلون بمعرفة النفس والغوص في حقيقتها ومعرفة خصوصياتها مما يشينها ويزينها وأمراضها وأدوائها وغير ذلك مما لا بد من معرفته ولا بد في هذا الطريق من الانصراف عن الأمور الخارجة عنها.

فهذه الطائفة أيضاً لا تخلو من تشتت وافتراق.

ففريق منهم يسلك الطريقة لنفسها فلا يكون له هم إلا معرفتها، ولكن لا تتم المعرفة لهم لأنها إنما تتم بمعرفة صانعها، وبدئها ومنتهاها فكيف تتم لهم المعرفة وقد أغفلوا عن سبب وجودها والقائم بأمرها ويسلك في هذا كثير ممن يشتغل في هذا الطريق كالصوفية والكهان وغيرهم وهم قد يحصلون على شيء من آثار النفس وعلومها.

والقسم الآخر هم الذين تمت لهم المعرفة وكانت معرفة النفس طريقاً لهم إلى معرفة بارئها والوصول إلى حريم كبريائه والدخول في رضوانه وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وطريقتهم هي التي توافق الشرع المبين ويرتضيها الدين فتكون النفس عندهم آية من آيات الله وقد

انجذبوا إليها بما أنها توصل السالك إلى الله فهو المقصد والغاية التي لا بد من أن ينتهي إليها، فكان قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٢)، محط أنظارهم، فلم يسلكوا طريقاً إلا بعد معرفة الغرض والفائدة والغاية والمنتهى فهم قد عرفوا الله قبل كل شيء وبعد كل شيء ولم يكن شغلهم هو الحصول على بعض الآثار المادية المرتبطة بالنفس ولا على علومها أو الآثار التي ترتبط بها التي تخرج عن حيطة المادة وإرادة السالك وشعوره بل كان غرضهم وشغلهم الشاغل هو الحصول على رضاء الله تعالى والانتهاء إليه فإنه أعظم المقاصد وأهمها عندهم وتضمحل عنده جميع الغايات والمقاصد، فهم إن حصلوا على شيء مما يحصله غيرهم كتموه بمقتضى قولهم (عليهم السلام) (المؤمن ملجم) ولم يتحدثوا بكل شيء وقع في سمعهم أو عند بصرهم أو جرت على أيديهم، فإن الأمر صعب مستصعب لا يتحمله إلا نبي مرسل أو ولي أو مؤمن امتحنه الله امتحاناً، فهم كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المباركة التي وردت في وصف المتقين وهم عرفوا أنفسهم بالله ولم يعرفوها بنفسهم من نفسهم، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: (تعرف نفسك به (أي بالله) ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك وما تعلم أن ما فيه له وبه)، فإن حقيقة النفس هي الفقر والحاجة إلى الله تعالى المملوكة له ملكاً لا تشتغل بشيء دونه فكيف يمكنهم التخطيء عما يريده المالك ويتعدى عليه فلا إرادة لها دون إرادته عز وجل ولا حاجة لها دون رضاء سيدها ومالك زمامها وهو العرفان الحقيقي فهو علم وعمل وأما غيره فإن وصف به فإنما هو على نحو المجاز فاحفظ ذلك فإنه نافع لك في تمييز العرفان الحقيقي من الذي يدعيه كل واحد ممن سلك سبيلاً وقد ذكرنا في مباحثنا السابقة الشروط والآداب والأحكام فراجع، نفعنا الله عز وجل

به ورزقنا من فيوضاته ليدخلنا في زمرة السالكين نحو جنابه والعارفين بأنفسنا والقاصدين لرضوانه إنه سميع مجيب[١].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص٥٤٣.

السلوك إلى الله تعالى

إن السلوك إلى الله تعالى والطريق إليه عزّ وجلّ له مظاهر مختلفة وسبل متعدّدة تختلف حسب استعداد كلّ فرد، ولكن لا بدّ أن يكون موافقاً للشرع وحكم الله تعالى، وإلاّ فلا يكون الطريق موصلاً إليه عزّ وجلّ. وقد نزل في القرآن الكريم من الأحكام والتكاليف والكمالات ما استوعب جميع الجوانب الظاهرية والمعنوية للإنسان، ممّا جعلته مهيمناً على سائر الكتب الإلهيّة فأصبح فريد نوعه، فصار غاية للسالكين وأنيساً للمستوحشين ومجمعاً للخيرات، ففيه السبق وبه المسابقة، وعن طريقه تستكمل النفوس وتتخلّى عن الرذائل، ولأجل هذا أمر سبحانه نبيّه الكريم بالحكم بين الناس بما أنزله فيه بعد أن حكم عليه بأنّه المهيمن على جميع الكتب، فإذا ثبتت له الرقابة الإلهيّة، فلا بدّ أن تمرّ منه الطرق وتستنير به النفوس، فإنّه وإن كان لكلّ واحد منكم شرعة لتهذيب النفوس ومنهاج للوصول إلى الكمالات واجتياز المراحل حتى الوصول إلى الكمال المطلق، إلاّ أنها لا بدّ أن تتوجه إلى ما أمر الله تعالى به، وهذا هو مطلوب العارف بالله الذي به يختلف عن غيره، فاستبقوا الأمور الموصلة لكم إلى الكمال حتى يستفيض كلّ بحسب استعداده ويستنير بما له من القابلية، ولا خير إلاّ فيما أنزله عزّ وجلّ، فإنه الموصل إليه، وبه

ترجعون إليه فينبئكم بما أوجب اختلافكم وتفرّقكم عما فيه الخير لكم، فيظهر لكم آثار ما اقتضاه الاختلاف، وهنالك الوعد الحق، فلا تكون مظاهرهم سبباً للفتنة ولا تكون موجبة للانحراف عن جادة الصواب والإعراض عن ابتغاء الخير والوصول إلى الكمال، فإنّ الحكم هو حكم الله تعالى، ويكفي في الإعراض والنكوص أنّ الله يحرمه من لذّة الوصال ويحجبه عن اللقاء. ولذا كان أكثر الناس فاسقين، لأنّهم التفتوا إلى ذواتهم، فاشتبه عليهم حبّ الذات عن حبّ اللقاء، فيحكمون على أنفسهم بالمحبّة والوصال ـ وشتان ما بينهما ـ وهذا هو حكم صادر عن النفس الأمّارة، لا عن علم إلهيّ، فصار حكماً جاهلياً.

فلا تلتفت في السير غيراً وكلّ ما سوى الله غير فاتخذ كرهه حصنا
وكلّ مقام لا تقم فيه أنه حجاب فجد بالسير واستنجد العونا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى[1]

(١) م.ن، ج١١، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

من الآيات القويمة في السير والسلوك

يعدّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، من الآيات القويمة في السير والسلوك إلى الله تعالى، لأنّه يقوي الروابط بين العبد وخالقه ويشدّد على إظهار العبوديّة ويجعل جميع حالات العبد تحت المراقبة والمراعاة، فقد أمر سبحانه بابتغاء الوسيلة إليه عزّ وجلّ الذي هو من شؤون العبوديّة الحقيقيّة، وأكّد على ذلك بالاهتمام به واتّخاذه مطلباً حقيقيّاً وبغية له، والإعراض عن غيره عزّ وجلّ، ولأهميّة ذلك في شؤون العبد فقد حفّه تبارك وتعالى بأمرين مهمّين، لهما الأثر العظيم في تحقّقه على الوجه المطلوب وترتّب الأثر عليه، وهما التقوى، والجهاد في سبيله تعالى، ولا ريب أنّ الاستمال وطلب الزلفى لديه عزّ وجلّ إنما يصحّ بعد تزكية النفس أولاً من رذائل الصفات وذمائم الأخلاق، فإنّها من أقوى الحجب الظلمانيّة المانعة من الكمال والاستمال، ثمّ تحلية النفس بالصفات الحميدة والأخلاق المرضية، ليتحقّق القرب والاستعداد، وأخيراً أمر عزّ وجلّ بالجهاد في سبيله، فإنّ الوصول إلىء تلك المرتبة لا يكون بسهولة ويسر، وإنما يحتاج إلى جهاد وصبر ومثابرة، ولعلّ الآية الشريفة ترشد إلى أنّ المؤمن لا بدّ له من مراحل ثلاث: شريعة،

وحقيقة، وفيض، فإذا تحمّل بالشريعة وتوجّه إلى الله تعالى بابتغاء الوسيلة، اشتاقت نفسه إلى حضرة الملك وتغلّب عليها الشوق بالتوجّه إليه عزّ وجلّ، فيشتغل بمجاهدة النفس ومحاسبتها، وأوّل المنازل هو ترك الدنيا والعزوف عن زخرفها وزبرجها، ثمّ إسقاط جميع الروابط بمخالفة الهوى والاشتغال بالتوجّه إليه عزّ وجلّ، فمَن خرق عوائد نفسه تحقّق سيره ووصوله، ويعرف ذلك بحبّ الله تعالى وابتغاء الوسيلة إليه وجعله شغله الشاغل، فإذا جاهد الإنسان نفسه حتّى هذّبها وأظهرها من الحجب والموانع، رجعت نفسه إلى أصلها، وهو الحضرة التي كانت فيها، فإنّه لم يكن بينها وبين محلّها إلاّ الحجب الظلمانيّة، فإذا تخلّصت عادت إلى محلّها الأرفع، ولعلّ هذا هو الفلاح الذي وعد عزّ وجلّ للسالكين في طريق الحقيقة والسائرين بنور معرفته، فإنّ الروح مهما تطهّرت وصفت من كدرات الحسّ عرجت إلى عالم الجبروت، فلم يحجبها عن خالقها شيء، فالآية الشريفة تبيّن الأثر العظيم لابتغاء الوسيلة، ومنها يظهر أنّ المجاهدة إنّما تكون بعد التوسّل بالوسيلة، وأما قبله فلا سبيل له حتى يجاهد، ولعلّه لذلك عقّب عزّ وجلّ على ذلك بأنّ الخروج عن تلك التعليمات كفر، ومَن يتبع غير ذلك السبيل لا يمكنه الوصول إلى تلك المقامات مهما حاول وبذل كلّ ما في وسعه، فإنّه لا يزيده إلاّ بعداً وحجاباً (ما تقبّل منهم)، فإنّ القبول إنّما ينحصر طريقه في ما ذكره عزّ وجلّ[١].

(١) م.ن، ج١١، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

بعض آداب السير والسلوك

الآية الشريفة[١] تبين بعض الآداب والأحكام في طريق السير والسلوك والتشرف بحضرة المعبود، فإن عظمة المقصود وشدة الطريق ووعورته وطوله كل ذلك يحتاج إلى ما يؤمن به السلوك فإنه كل ما طال السفر وعظم مقصده اشتدت الحاجة إلى الزاد والتعرف على الخصوصيات لئلا يضع قدمه في طريق لم يعرف أحكامه وخصوصياته وآدابه فيوجب المذلة والخروج عن الطريق بل النكوص على الأعقاب فبين عز وجل أولاً احتياج السالك إلى الإيمان فبدونه لن يصل إلى المعبود ولن يتوفق إلى المقصود، نعم قد يدرك بجهده وتعبه بعض الآثار التي تترتب على العمل كما نراه عند بعض المجاهدين للنفس في غير الملة الحقة، إلا أنها آثار العمل الذي عملوه، وأما أهل الإيمان فإنهم يتعدون عن تلك الآثار ويطلبون معرفة الباري والحضور لدى جنابه عز وجل لمعرفة النفس والسلطنة عليها وكبح جماحها وتهذيبها وإرسالها في هذا الطريق ثم بين عز وجل أن من أهم الآداب ترك الأسئلة التي لا يليق

---

(١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

بالسالك إما لأجل عدم الأذن له فيها باعتبار أن المؤمن لا بد أن يكون سكوتاً لا يقول إلا عند الحاجة، وقد ورد في بعض الآثار أن المؤمن ملجم، أو لأجل أن الرتبة التي هو فيها لا يليق فيها الأسئلة التي لا يليق بالسالك أما لأجل عدم الإذن له فيها باعتبار أن المؤمن لا بد أن يكون سكوتاً لا يقول إلا عند الحاجة، وقد ورد في بعض الآثار أن المؤمن ملجم، أو لأجل أن الرتبة التي هو فيها لا يليق فيها الأسئلة عن غيرها فإنها تكون من التعدي، فإن أرباب الإيمان البرهاني مثلاً لا يحق لهم السؤال عن الحقائق التي لا يعلم إلا بالكشف والشهود إلا بعد طي مراحل، فإن السؤال عنها وظهورها يوجب الهلاك لقصورهم عن معرفتها فيكون ذلك سبباً لإنكارهم، وقد ورد في بعض الأخبار (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لكفره) والله تعالى يغضب لأوليائه فلا يظهرها لهم لئلا يحصل منهم الإنكار فيخرجوا عن ربقة الإيمان، فالآية الشريفة تحذير لمن لم يكن له الاستعداد والقابلية عن كثرة السؤال عن أسرار الغيب فلا بد من التسليم والتحمل في التهذيب حتى ينكشف لهم ما يريدونه وبعد حصول الاستعداد لنزول الفيض فليكن السؤال حينه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ تظهر لكم بواسطته، كما أن الآية الشريفة ترشد المؤمنين إلى صحبة الكمّل من أهل الإيمان ومن يرشدهم إلى ما يليق بهم ويبين لهم ما يوجب الانحطاط والمذلة ليتركوه، وقد اهتم العلماء بهذا الأمر وجعلوه أصلاً أصيلاً في الولوج في هذا الطريق وهو حق لا ريب فيه واعتبروا شروطاً في من يتصدى له، وقد ورد في بعض الأحاديث في بيان صفات العلماء (إنه الذي يذكركم الآخرة برؤيته).

هذه هي بعض الإشارات التي تضمنتها الآية الكريمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[١].

(١) م.ن، ج١٢، ص٤٩٥.

ما يجب أن يستند عليه الإنسان في سيره وسلوكه

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم من حيث الجمال الظاهري وتمام الصنعة والخلق والاستعداد لتلقي الفيوضات والقابلية للاستكمال، فأودع فيه الفطرة التي جمع فيها الحقائق والمواثيق وجعل فيه العقل الذي به امتاز عن سائر المخلوقات وليدرك به صنع ربه فيه وما أودعه في مخلوقاته، ويميز بين الصالح من غيره وبعث لأجله التكليف والتشريع الذي هو نعمة إلهية خصّ بها أعز مخلوقاته وهو (الإنسان) ولكنه إذا غفل عن نفسه واتبع هواه فصار مرتعاً للشيطان وأعرض عن ذكر الرحمن، أصبح عرضة للفساد والآثام، فلم يكن له مستند فطري ليردعه عن غيه ولإسناد عقلي ليمنعه عن ضلاله ولا أعتمد على مبدأ غيبي ليوصله إلى الكمال فحينئذ يأتي الخطاب بأنه ليس على شيء وما أشد هذا الخطاب الربوبي إذ هو يجرد الإنسان عن جميع ما يكون سبباً لصلاحه إلا أن تدركه بارقة إلهية ليرجع إلى الطاعة فينقدح فيه نور الإيمان وليضيء له الدرب للاستكمال فيتوب إلى الله ويرجع إليه بالإنابة ويقيم الشريعة ولا ريب أن تلك المراحل والمراتب لا تكون إلا بتوفيق من رب العالمين وإنما على الإنسان الاستعداد للرجوع إلى الطاعة والإنابة لدى جنابه ليكون معتمداً عليه بعدما سلب عنه الاعتماد، وأنه

ليس بشيء فلو بقي على هذه الحالة ولم يرجع إلى رشده لاختلت عنده المشاعر، فيحسب الوهم والخيال واقعاً ويعطي لنفسه العظمة والكبرياء، ولم يكد يجعل لغيره أي منزلة فهو الأعمى والأصم عن سماع الحق ورؤيته لانقلاب الموازين عنده، وهذا الأمر عظيم لسوء الآثار المترتبة عليه حتى يصل إلى حد لا يرى في نفسه النقص والحرمان حق يستعد لإزالتها هذا هو الإنسان الذي نسيج وحده في هذا المجال، ولا أظن أن أحداً من مخلوقات الله عز وجل يكون بهذه المثابة فيصل إلى مرحلة اختلال الحواس عنده وحينئذ لم يقدر على الإصلاح بل يزداد طغياناً وكفراً فهو الأصم الأعمى بالنسبة إلى الحق، فكيف يؤثر فيه، فكان قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أمراً طبيعياً بالنسبة إليهم، فهم الذين أوقعوا أنفسهم في هذه المهلكة، وأوصلوها إلى باب مسدود، فإن هذه الجرائم والآثام لا تدع للإنسان اتصالاً بربه حتى يمكنه إقامة كتب الله معتمداً عليه إلا أن تلحقه رحمة إلهية فيتوب الله عليه لحكم ومصالح متعالية فيستفيد بعضهم منها فيرجع إلى طاعته ويعتمد على كتبه وينجي نفسه بالإنابة إليه لكن كثيراً منهم فاسقون يعرضون عن الحق فعموا وصموا عنه ولكن الله تعالى بصير بأعمالهم وعليم بنواياهم، فيعلم المفسد من المصلح ومن له القابلية للاستفادة من فيوضات الخالق فإنهم وإن عموا عن رؤية الحق والعمل به إلا أن الله بصير بما يعملون[١].

---

(١) م.ن، ج١٢، ص٢٣٤.

السير والسلوك

الآيات الشريفة(١) المتقدّمة تشتمل على مضامين عالية في السير والسلوك، ويعتبرها أهل الذوق والعرفان دستوراً ومنهاجاً لهم في عروجهم العرفاني، ونحن نشير إلى بعض ما تقتضيه الحال:

الأوّل: تتضمّن الآيات الشريفة على مخاطبة المربوب مع الربّ، ومثل هذه المخاطبة تستلزم الحضور، أي: حضور المخاطب لدى المتكلّم، وهو من طرف مخاطبة الله تعالى مع عباده وخلقه صحيح لا ريب فيه، لأنّه حضور إحاطي فعلي من كلّ جهة، وأما من طرف المربوب مع الربّ فهو حضور وجداني، وهو من أعظم مراتب تجلّيات الربّ العظيم على القلوب والضمائر، ويبيّن مثل هذا الحضور الوجداني قول أبي عبد الله الحسين عليه السلام في بعض حالاته الانقطاعيّة مع ربّه: «سيّدي ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك»، ويشير إلى ذلك قول عليّ عليه السلام في الدعاء المعروف: «إلهي صبرت على عذابك،

(١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

فكيف أصبر على فراقك»، وهذه هي الرابطة الاختياريّة للعباد مع معبودهم الحقيقي.

ولعلّ من أعظم أسمائه الحسنى تأثيراً على القلوب وأشدّها حضوراً عند المخاطب اسم (الربّ). ولذا نرى أن الأنبياء العظام يتوسّلون بهذا الاسم المبارك في دعواتهم الشريفة وحالاتهم الانقطاعيّة، وهو يدلّ على كمال الخضوع والخشوع لربّهم ويستميلون عطفه وعنايته عزّ وجلّ، الذي خلقهم وربّاهم منَّ عليهم بجميع النِعم الظاهريّة والمعنويّة.

الثاني: يستفاد من الآيات المباركة أن أولي الألباب هم الذين وهبوا وجودهم وجميع حيثياتهم إلى خالقهم، فقد نصبوا أنفسهم على الجهاد والمثابرة والصبر على البلايا والأذى في سبيل الله تعالى، فصاروا بذلك مظاهر حقيقيّة لقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية:١٥٦)، والالتفات إلى هذه الحالة وترتيب الأثر عليها من أهمّ الطرق التي سلكها الأنبياء عليهم السلام والأولياء في السفر إلى الله تعالى والسير إليه، وهذه الحالة هي غاية آمال المجاهدين والمرتاضين في الحقّ بالحقّ، وقد أسموه بالسفر في النفس بالنفس، ولا منتهى لهذا السير إلاّ ما أشار إليه سيّد الأنبياء بقوله صلى الله عليه وآله: «مَن رآني فقد رأى الحقّ»، وهذا هو المعراج الروحاني، الذي هو العلّة التامّة لاستكمال النفوس المستعدّة.

وإن شئت قلت: هو إيجاد تمام العوالم في عالم واحد، وهو عالم الإنسانيّة الكبرى بالاختيار، فتصير النيران تحت إرادته والجنان تحت أقدامه، فتخاطبه النار بقولها: «جز يا مؤمن، فإنّ نورك يطفيء لهبي». وهذه كلّها لمحة يسيرة من سير الإنسان إلى الكمال غير المتناهي من كلّ جهة.

كما أنّها من تجلّيات أُولي الألباب بعدما لاقوا أشدّ المصاعب في هذه الدار الفانيّة، فقد هجروا الأهل والديار وتركوا المعاصي لأجل ربّ الأرباب، وقاتلوا النفس الأمّارة فقتلوها بالسيطرة عليها وتوجيهها إلى ما يرضي خالقها، ولأجل ذلك كانت عنايات الله جلّ شأنه بهم عظيمة لا حدّ لها، لأنّهم مظاهر أخلاقه، وهم الصور المرئيّة من العقل الكلّي في هذا العالم وفي عالم البرزخ وفي عالم الآخرة، وقد أعدّ لهم جنّات عظيمة لا نهاية لعظمتها، وهذه الجنّات هي جنّة الأعمال، وجنّة الرضوان، وجنّة اللقاء، وهي منتهى الغايات وأعلى الكمالات.

الثالث: غلبة ذكر الله تعالى على العبد توجب تجلّي عظمة الله جلّ جلاله عليه، فيصير طوع إرادته، فلا يعمل إلاّ بما يرتضيه، ولا يرى ولا يسمع إلاّ ما يشاء الله تعالى، ويصبح بذلك مرآة لوحي السماء، ولا معنى لأُولي الألباب إلاّ ذلك، فترى أنّهم يسرعون إلى الإيمان عندما يسمعون المنادي ينادي إليه، لأنّ النداء جلب مشاعرهم بعدما كانت مشغولة بذكر الله تعالى، وهذا هو السمع الحقيقي الذي يغيّر العبد عمّا عليه من الغفلة.

وبعبارة أخرى: هي الجذبة الملكوتيّة التي تحصل للنفس، وكم لأُولي الألباب من هذه الجذبات إلى ربّ الأرباب، ولا بد من الارتباط مع هؤلاء بالمعنى الذي ذكره عزّ وجلّ، لأنّ العالم خلق لتكميل الإنسانيّة، ولا يحصل إلاّ بذلك. وهذا هو غاية دعوة الأنبياء العظام، خصوصاً سيّدهم ﷺ[1].

---

(١) م.ن، ج٧، ص١٧٤.

بعض المقامات لأصحاب السير والسلوك

يمكن أن تتضمّن الآيات الشريفة[١] إشارات لأصحاب السير وأرباب السلوك، لأنّهم حرّموا على أنفسهم الدنيا وزخارفها، بل الموقنين منهم العاشقين إلى اللقاء والمشتاقين للحق حرّموا على أنفسهم نعيم الآخرة أيضاً، كما عن علي أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلاة والسلام) في كثير من دعواته الشريفة وكلماته الحكيمة، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله تبارك وتعالى»، فسألوا بلسان الحال أو الاستعداد من الطيب الطيّبات، وفي الحديث: «إن الله طيّب لا يقبل إلاّ الطيّب». فأوحى إلى حبيبه ونبيّه: قل للسالكين والمشتاقين والمؤمنين من عبادي الطالبين للحقّ ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ من طرق الوصول إلى ساحة كبريائه، مطيّباً بجذبات الحق ونفحات الشهود، لا من كلّ مأكول ـ ومشروب أو ملبوس أو مقول أو معقول ـ فإنّها لا تليق بمقامهم وإن

(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾.

كانت لوجه الله تعالى، إذ لو لم تكن كذلك فقد لوّثت وخبثت، ومع ذلك أنّ المشتاقين للحقيقة والموقنين باللقاء والعارفين بالحقّ لا يهتمّون بالمظاهر، بل هي محرّمة عليهم، لأنّها من شؤون الدنيا التي لا تحلّ لهم إلاّ بمقدار الاضطرار، كما تقدّم عن الصادق عليه السلام، فلا حظّ لهم فيها وإنّما حظوظهم في الكمالات التي أهمّها أخلاق الله تعالى المنزّهة عن النقائص والشبهات، فإنّ أهل العرفان والسير والسلوك لا يتفكّرون إلاّ في عظمة الذات، ولا يسيرون إلاّ في ميادين الأنوار، فالدلائل عندهم مدلولات، والغيب شهادات، فأعيانهم في هذه الدنيا مشهودة وأرواحهم عنها مخلوعة، وهي تسير في أفلاك العظمة (بل تصاحب بعضها الأرواح القدسيّة والملائكة البررة)، وهي تيقّنت بعد المشاهدة بتوحيد الذات والفعل، وتهلّلت عن إخلاص بعدما ظهرت الحقيقة، وسبّحت بعدما رأت العجائب في الخلق وفي النفس، وحمدت بعدما أفاض الله تعالى عليها من النِّعَم، فهم للحقّ واجدون وللخلق مشاهدون، فبارك الله تعالى في عُمرهم، وتجلّى على قلوبهم، لأنّهم ساروا على نهج محمد صلى الله عليه وآله واقتدوا بخلفائه المعصومين عليهم السلام، ونبذوا الدنيا لأهلها، وتوكّلوا على خالقهم في الأشياء كلّها، وفي الآنات جميعها، وتواضعوا للعلم والحقيقة، فاكتسبوا أيضاً من الخلائق التي خضعت لخالقها وأشرقت بكلمة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أسمى صفاتها، وأعرضوا عن ذمامها وعلّموا غيرهم بمختلف درجاتهم وطبقاتهم، وتحمّلوا عناء التعلّم من الذين لم ينالوا شرف العزّ والعرفان إلاّ لأجل سعادتهم، تقرّباً لوجهه الكريم وبثّاً لما أنعم من الفضائل عليهم بإذن منه جلّ شأنه. ولذا عطف عزّ وجلّ على الطيّبات ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾، أي: كاسبة لها لياقة الكسب والخروج عن ظلمات الجهل، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مسلطين على مخالفة

الهوى، مشدّدين على هداية الناس ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ ترشدون الفئة الضالّة إلى طرق التوحيد، وتأدبونهن بآداب الشريعة التي فيها السعادة وارتياح النفس ممّا ألهمكم الله تعالى، لأنّ العلم إمّا إلهام رباني أو مكتسب عقلائي، فهما منحة منه جلّ شأنه ﴿فكلوا مما مسكن عليكم﴾ بالتوجه واستيعاب الضمير بأخذ العبرة والدلالة في عجائب خليقته، وبما منح الله من الألطاف المنتشرة على ما سواه، ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ فتوجهوا إليه لأنّه أخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ورزقكم من أنواع الطيّبات، وباسمه أشرقت الكائنات وتجلّت، فلا اسم أشرف وأعزّ وأكرم من اسمه، فهو السموّ الواقعي المنحصر به، وهو اللائق بالذكر على جميع الأشياء دون غيره، وبه تنكشف المهمات، وتقضي الحاجات، وبه يدخل المؤمن الجنّة، وبنسيانه يدخل المنافق النار، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الشؤون وتمام الحالات، لأنّها السبيل الوحيد لنيل السعادة وكسب الفضائل، وبها يبتعد الشيطان ويرغم أنفه، وهي البذرة للوصول إلى المعالي ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في أقرب ما يمكن من الزمان والمكان، لإحاطته التامّة على كلّ ما جلّ ودق، فيحاسبكم على نواياكم، فكيف أعمالكم وأفعالكم ﴿الْيَوْمَ﴾ تقييد إحلال الطيّبات ـ بعد ذكرها مطلقاً، وبمعناها الوسيع كما مرّ ـ باليوم لأجل بيان أمر واقعي وحقيقة منوطة به، وهي أنّ حليّة الطيّبات موقوفة على الولاية، ولولاها لما طابت وإن كانت طيّبة من كسب اليد، والوجه الحلال إلاّ أنّها بحسب الظاهر لأجل حفظ النظام لا للكمّل من الإيمان، فالمراد من اليوم الزمان الخاصّ الذي تجلّى فيه سبحانه وتعالى بإكمال دينه وتنفيذ ولايته على لسان حبيبه ﷺ، و﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ من الأخلاق الجميلة والصفات الحميدة، والأفعال الحسنة، والعلوم النبيلة والسبل

المستقيمة، فإنّ جميعها حلّ للمؤمن الملتزم بما أنزله الله تعالى، لأنّه مثال للطيّبات لما اقتبسه من الأنبياء والأولياء ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ بتنوير قلوبكم بنور العلم والمعرفة بالعروج من حضيض البهيمة إلى أوج العظمة من الكمال، بالاقتداء بالأنبياء والأولياء، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ لأن المعارف الإلهيّة النازلة على قلب أشرف من في الورى لا اختصاص لها بأحد، فللجميع الفوز من هذا المنبع، والنيل من هذا المشرب بعد عناء كسب الأهليّة. نعم للنبي الكريم ﷺ الاختصاص بالمقام المحمود وبالمشرب المحبوب: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني لا يشاركه فيه ملك مقرّب ولا نبي مرسل»، فعلّهم يهتدون إلى الحقّ ويميزون الخبيث من الطيب بطعامكم وعلومكم، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: اللاتي أحصنّ أنفسهن عمّا لا ينبغي، وإنّها الخواص من هذه الأمة، وهي طائفة أدركت حقائق الدين، وكشفت أسرار القرآن المبين، ووصلت إلى قمّة الإيمان وأعلى مراتب اليقين، حلّ لكم أن تقتبسوا منهن وتركنوا إليهن، سواء كانوا من المؤمنين أم المؤمنات لما حصنت نفوسهم بإطاعة الله تعالى ومخالفة الشيطان، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهي الحقائق في الكتب المنزّلة على السالفة التي أحصنت من كلّ سوء، فإنّها كلّها لكم، بها تبلغون الكمال المنشود، ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ببذل الوجود بعد مخالفة الهوى، فإنّها مهور هذه الأبكار والحقائق ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ بتصرّف الهوى والتعدّي بالانحراف عن الشرع، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ بأن لا يلتفت إلى غير الله تعالى ولا يتّخذ الدنيا مأرباً ومن فيها صاحباً، بل يكون هو جلّ شأنه الصاحب، والناصر، والمعين، والحافظ ولا غيره ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ لأنه انحرف عن الصراط المستقيم، وبعد عن الحقّ

القويم، ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنه غبن نفسه بالميل عن الطيبات إلى الخبائث والنزول إلى الهاوية بمتابعة الهوى والشيطان الذي هو على جانب النقيض من المؤمنين المخلصين، والعرفاء الموقنين، والسالكين إلى الله تعالى الذين ليس في قلوبهم سواه عزّ وجلّ ولم تتجه نفوسهم لغيره جلّ شأنه، وتفانوا في الله جلّت عظمته، فأفاض سبحانه وتعالى عليهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما في القدسيات.

وإن لم أر لهذه البحوث العرفانيّة إقبالاً عملياً إلاّ من أخصّ الخواص، لأنّ غيرهم توجّهوا للمظاهر وتركوا الحقائق، وأخذوا بالقشور ورفضوا اللباب، فإليه جلّت عظمته المشتكى من مكائد الشيطان، وقال شاعرهم:

تَركتُ هَوىٰ سُعدىٰ وليلىٰ بمعزلِ ... وصِرتُ إلى عَلياء أول منزلِ
فناَدَتْنيَ الأكوان من كلّ جانبٍ ... ألا أيها الساعي رُوَيدك فامهلِ
غَزلتُ لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد ... لغزلي نسّاجاً فكسّرت مِغزلي[1]

(١) م.ن، ج١٠، ص٣٩٢ ـ ٣٩٥.

بعض مقامات أهل السير والسلوك

ظاهر الآية المباركة[(١)] وإن كان خطاباً للمؤمنين بإبلاغهم تكاليف توجب رقيّ نفوسهم وتنوير قلوبهم، ولكن يحتمل أن يكون باطنها عتاباً لأهل السير والسلوك الذين يطلبون الحقّ ويسعون للوصول إلى الحقيقة بهجر الدنيا لنيل رضاه تعالى، فناداهم ربّهم جلّ شأنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أي: الدنيا بأسرها، ففي كثير من الروايات التعبير عن الدنيا بالميتة، فعن جعفر بن محمد الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام: «والله لقد نزلت الدنيا منزلة الميتة متى اضطررت إليها أكلت»، فحرّمت الدنيا على الطالبين للحقّ والسالكين إلى ساحة قربه، ﴿وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ كذلك حرّمت عليهم الصفات التي توجب البُعد عن الأخلاق السامية كالحرص والقسوة، بل حرّمت عليهم جميع ألوان الدنيا ومتغيّراتها حتّى الحلال منها فكيف بالحرام. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وأيضاً حرّمت عليهم كل فعل رفع صوت النفس بالأمر به، لأنّ صوتها

(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥﴾.

لغير الله تعالى، ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ وكذلك حرّم عليهم اختناق فطرته الداعية إلى الله العظيم بمخالب الأطماع، أو خنق نفوسهم بإخراج أنوارها الكائنة فيها بالرياء والإسماع، أو بضرب جرح الصدر المنشرح بالإسلام والمهيّأ للحضور عند صاحب القلب وخالقه العلاّم، ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ فحرّم عليهم أن يردوا أنفسهم من أعلى العليين إلى أسفل السافلين باتّباع الشهوات والتعلّق بالماديات، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي: حرّم عليهم التناطح مع الأقران بالتفاخر والمماراة بالعلم والزهد ـ حتّى في السير والسلوك ـ بين الأخوان، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ فحرّم عليهم القرب عن كلّ ظالم الذين يتهاوشون على جيفة الدنيا تهاوش الكلاب، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كما حرّم عليهم تقرب نفوسهم لبيوت الأوثان، وهي المظاهر الموجبة للصدّ عن معرفة الله تعالى بالتوغّل فيما يوجب البعد عن ساحة قربه بمعاشرة غير الأولياء الأخيار والأبرار، ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾ فلا تكونوا متردّدين متفئلين غير متوكّلين على الله تعالى بفتح قلوبكم لسهام الشيطان.

فإذا خلصتم من هذه الدواهي، وتركتم هذه القبائح، وخرجتم من هذه الظلمات لكون ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ أي: أنّ جميعها مهالك وظلمات توجب إماتة القلب، وإخماد الفطرة، والعذاب الأليم، لأنّه يوجب الخروج عن طاعة الله تعالى فـ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لتحلية نفوسكم بالفيوضات الإلهيّة بعد التخلية عن المكائد الشيطانيّة، ويأسهم عن إضلالكم لعدم تأثير الدنيا في نفوسكم مهما تزيّنت وتلوّنت، لحصول المقصود بعدما خلصتم أنفسكم من تلك الظلمات، فعادت ليلكم نهاراً ونهاركم أنواراً ﴿مِن دِينِكُمۡ﴾ لأنّه المنهج الوحيد للرقي إلى المراتب

العالية، والوصول إلى المقامات السامية والفوز بالسعادة الأبديّة، ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ لأنكم بلغتم المرحلة التي لا تؤثّر فيكم مكائد الشيطان ومصائده، ونلتم المقام الذي قاله رسول الله ﷺ لبلال: «ما فعلت يا بلال سمعت دقّة نعليك قبل دخولي الجنّة»، ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ لأن الكمال والتكامل منه تعالى وأنّ كيده متين وبطشه شديد، ولولا إمداده لانعدمت الكائنات وزالت السماوات وفنيت الموجودات، ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ وهو يوم ظهور الحقّ وكشف الحقيقة، ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ فإنّ كمال الدين كان في الأزل موجوداً ولكن أنعمت عليكم بالتوفيق لاستعدادكم بالتديّن به، وبه تنكشف الحجب وترتفع الأستار بعد صفاء نفوسكم وحياة قلوبكم، ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ التي أنعمت بها عليكم من التوفيقات والتأييدات وإظهار دينكم على الأديان كلها في الظاهر والحقيقة بالولاية، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ حتّى تستكملوا به نفوسكم وتسلكوا به إلى الله تعالى بالخروج عن الوجود المجازي بالوصول إلى الوجود الحقيقي، فإنّ ابتغاء رضاءه من أسمى الكمالات، وإنّ الإسلام هو دينه إلى الأبد. ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ بالالتفات إلى الدنيا مضطراً إليها في غاية الاضطرار، ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ غير مائل إليها قلباً وغير متجاوز عن قدر الضرورة مع حفظ الحقّ والحقيقة الّتي نزلت في قلبكم، والمعرفة الّتي أفاضها الله تعالى عليكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما ابتلى من الالتفات إلى غيره تعالى المضطر إليه، ﴿رَّحِيمٞ﴾ يهديهم إلى الحقّ بإقامة الدين والسير في الصراط المستقيم بعد الاستغفار وطلب الاستعانة من العزيز القهّار، ومن الله الاعتصام[١].

---

(١) م.ن، ج١٠، ص٣٤٩ ـ ٣٥١.

بعض الرموز والإشارات للسالكين

الآيات الشريفة[١] تتضمن إشارات ورموزاً للسالكين يعرفونها بقوة حدسهم وصائب فكرهم والنور الذي أودعه الله تعالى في قلوبهم ومنها يستفيدون كيفية المخاطبة مع خالقهم العزيز ويتعلمون أدب المحاورة معه عز وجل فإن له أثراً كبيراً وعظيماً بل هو الشرط في دخولهم في هذا الحريم وهو المحاورة مع الله تعالى والأنس به عز وجل بل في الأدب معه تتجلى حقيقة العبد، والأدب المبحوث عنه في كتب الأخلاق وما ورد فيه في كتب الدعاء إنما هو هيئة حسنة، والصفة الخاصة التي يتلبس بها الداعي أو الشخص لملاقات شخص عظيم بلا فرق بين أن تكون في المنظر أو اللباس أو الأفعال والأقوال فتختص بما إذا كان الفعل محبوباً في حد نفسه فلا تشمل الممنوعات شرعاً وتشمل جميع الأفعال

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

الاختيارية الحسنة وهذا مما اتفق عليه العقلاء وإن اختلفت المجتمعات في مصاديقها فالأدب محبوب بذاته تدعو إليه الفطرة ويتعاملها العقلاء ويستحسنونه مطلقاً واختلافهم في المصاديق والإفراد لا يضر بأصل حسنه بحيث يكون أدب كل مجتمع حاكياً عما عليه من العادات والتقاليد والأخلاق. إلا أن في الإسلام آداباً خاصة تنبىء عن حقائق متأصلة وهي عامة تشمل جميع مظاهر الحياة وتدل على كمال الإسلام ورقيه عن جميع ما يكون مبتذلاً، ولما كانت دعوة الإسلام إلى التوحيد وتطبيقه في الاعتقاد والعمل به في جميع وجوه الحياة الدنيوية فكان الأدب في الإسلام موظفاً في هذا السبيل بحيث يرجع العبد في تطبيقه للأدب إلى جعل نفسه عبداً خاضعاً لله تعالى تظهر سمات العبودية على جميع جهات وجوده وأطواره ظاهراً وباطناً فكل من اشتد تأدبه مع الله تعالى كانت سمات العبودية عليه أظهر ولا ريب أن الأنبياء والأولياء والصالحين من عباده لهم الحظ الأوفر وهم الأساس المتين في العبودية فيكون أدبهم مع الله تعالى أشد وأظهر وأعمق ولذا صاروا مربين ومعلمين لأممهم بهم يقتدي في عنوان العبودية ومظاهرها ويتعلم منهم سمات الأدب لأنهم علموا وعملوا بما علموه فصاروا مظاهر قدوة لغيرهم وتأثرت نفوسهم القدسية فصاروا مظاهر العبودية لخالقهم وتهذبت بالتعاليم الربانية واشتغلوا بالطاعة لبارئهم فتأثرت النفوس المستعدة بهم فكانوا مربين حقيقيين وانقادت النفوس إليهم ومن المستحيل أن ينقاد شخص لآخر في العظة والنصيحة، والواعظ لم يعمل بما يعظ به غيره وهذا أمر فطري مركوز في النفوس لقد أرشد إلى هذه الفطرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥).

وقد أكد الإسلام على العمل ولم يكتف بالقوانين العامة والكليات العقلية ما لم تنطبق على المجالات العملية ولذا كان المربي في الإسلام قدوة حسنة في العلم والعمل وفيه شروط معينة لا يمكن أن يكون مربياً ما لم يكن متصفاً بما يصفه للمتعلم ومتلبساً بما يريد أن يخلعه على غيره.

ويمكن تقسيم الأدب إلى أقسام متعددة كالأدب العملي المنطبق على العمل والأدب القولي الذي يتحقق في القول الذي يحكي طبيعة نفس المتكلم ويدور فيها من كفر أو نفاق أو إيمان فإن في الكلام الصادر من كل متكلم جهتين متميزتين الدلالة الوضعية التي تلازم جهة الصلاح غالباً، والدلالات الالتزامية التي تدل على ما يكمن في النفس من الصفات ولا يمكن أن يعرفها إلا من كان على بصيرة من الأمر، وقد قال تعالى في وصف المنافقين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (محمد: ٣٠)، وإذ تتبعنا كلامه عز وجل في ما يحكى عن حالات الأنبياء والرسل عليهم السلام يتضح ما يتجلى فيها من غاية الأدب الإلهي في جميع حالاتهم مع الله تعالى أو مع الخلق وهي شواهد صدق على حسن تأدبهم وإن بنفسها تعليماً عملياً لغيرهم ممن يريد الأسوة الحسنة وقد قال تعالى في حق أنبيائه الكرام ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ولا ريب أن الهداية المأمور بالاقتداء إنما هي الهداية إلى التوحيد ونبذ الشرك وقد ذكرنا أنه لا بد من أن تظهر في الأعمال والأقوال والاعتقاد وتكون حاكية عن الاعتقاد الخالص الذي يتجسم في العمل فكان كل واحد منهما حاكياً ومرآة للتوحيد التام.

ومن هنا ترى أنهم في أدبهم العام في حياتهم العملية أنهم على

خضوع وخشوع لله عز وجل فتراهم سجداً وبكياً ولا شبهه إنهما من أقوى مظاهر التوحيد واستيلاء صفة العبودية على جميع مشاعرهم ونفوسهم القدسية فلا يفترق عندهم الحال بين الخلوة مع الله العزيز المتعال أو مع خلقه، فهم في جميع الأحوال على أدب إلهي مع الله ومع الناس جميعاً وجميع أطوارهم على نهج واحد، وهذا الأدب إن كان انفرادياً لكل رسول ونبي ولكنهم لم يخرجوا عن المجتمع فهم من أفراده ولهم أدب خاص وهم المسمى بالأدب الاجتماعي وقد جمعهما الله تعالى في آيات متعددة في القرآن الكريم. قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥١، ٥٢). فقد أمرهم عز وجل بالأكل من الطيبات والتصرف فيها والتنزه عن الخبائث التي تتنفر منها الطباع وإتيان العمل الصالح الذي يجعل الإنسان من الصالحين وما ينبغي أن يكون صالحاً لأن يقدمه إلى رب العزة والجلال، وهذا الأدب مما يتعلق بالأفراد منهم (صلوات الله عليهم أجمعين).

وأما الأدب الذي يتعلق بالناس بينهم بأن يكونوا أمة واحدة لا اختلاف فيها بلا فرق بين الرسول والمرسل إليهم وأن يجتمعوا على عبادة الرب ويتفقوا على كلمة التقوى وبذلك ينقطع دابر الفرقة والاختلاف بينهم فيتحقق مجتمع توحيدي لا اختلاف بين أفراده الذين اتفقوا على عبادة الله الواحد الأحد وقد سرى الأدب الإلهي بين الأفراد في جميع أحوالهم وأطوارهم فلا تتعدى السعادة عنهم حينئذ أبداً. والآيات في ذلك كثيرة.

وأما أدب الدعاء الذي امتاز الأنبياء والمرسلون به فقد بلغ أعلى

مراتبه وأقصى درجات العبودية والخلوص والإخلاص فيه، وقد حكى عز وجل جملة منها في كتابه الكريم ولا نريد أن ندخل في تفاصيل أدب كل رسول كما حكاه عز وجل في كتابه الكريم وما ورد في السنة الشريفة، إلا أننا نذكر ما يتعلق بعيسى ابن مريم عليه السلام وحالاته مع الرب العظيم وقد تجلى فيه الأدب الإلهي على مظاهر وجوده الشريف، وندع غيره في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالى.

فالآيات الكريمة التي وردت في هذه السورة المباركة قد بينت كثيراً من الوجوه من حياته الشريفة والانقطاعية مع الله عز وجل وما تضمنته أفعاله وأقواله من الأدب الجليل العميق الظاهر عليه سمات العبودية المحضة الدالة على غاية الخضوع والخشوع إلى الله المتعال وحسن تأدبه معه وقد تقدم في قصة المائدة إذ قال عز وجل حكاية عنه ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

فإنه عليه السلام استعمل في كلامه ما يدل على غاية خضوعه وخشوعه لخالقه العظيم بعد مواجهته لسؤال الحواريين عنه في نزول المائدة وما تضمن سؤالهم من الجفاء بظاهره وما لا يوافق الأدب العبودي وإن كان أصل قصدهم معروفاً عنده، مضافاً إلى أن طلبهم كان اقتراحاً منهم لآية جديدة مع آياته الكثيرة الباهرة الواضحة التي استوعبت أغلب مجالات حياتهم المادية وأحاطت بهم من كل جهة وقد عددها عز وجل قبل قصة المائدة تسجيلاً عليهم لإتمام الحجة عليهم ورفع كل ريب وشك فكان اختيارهم لآية جديدة يعود نفعها لأنفسهم يشبه اللعب بالآيات وهم منزهون عنه كما قال عليه السلام عند الاستخبار عن نواياهم ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأظهروا منوياتهم فاستجاب لطلبهم ودعا الله تعالى بدعاء ذي أدب رفيع وأدرج فيه اقتراحهم بما يناسب مقام العظمة والكبرياء ونحن نذكر السمات المشتركة في أدب الأنبياء أولاً ثم نذكر الأدب الخاص به (عليه الصلاة والسلام) من جميع الآيات الواردة في شأنه.

الأول: إظهار العبودية المحضة الشاملة لجميع مظاهر وجودهم المبارك قال تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِيَ الْكِتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾. ومن لوازم مثل هذه العبودية السمع والطاعة فقالوا (سمعنا وأطعنا) لا كغيرهم إذ قالوا (سمعنا وعصينا).

الثاني: إبطال شأنهم مقابل معدن الكبرياء والعظمة فقال ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فقد عرفت أنه لم يجعل لنفسه مرتبه حتى ينفي القول عن نفسه بل نفاه بنفي لازمه وهذا من الأدب العبودي المتصف به هو وسائر الأنبياء العظام، ومن لوازم هذا النوع أن الأنبياء كلهم لم يتمنوا على الله بإيمانهم وطاعتهم شيئاً بل كانت طاعتهم عبادتهم عبادة الأحرار كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بأنه «وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك» وفي الآيات الكريمة ما فيه الإشارة إلى ذلك فقال حكاية عنهم (غفرانك ربنا) بخلاف غيرهم فإن عبادتهم تختلف وقد حكى عز وجل عن اليهود حيث قالوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

الثالث: تنزيه ساحة الكبرياء والعظمة عن كل ما يتوهم النقص فيه كما قال عيسى عليه السلام ﴿سبحانك ربنا﴾.

الرابع: اشتمال كلامهم على منتهى الثناء والابتهال بأبلغ بيان وأحسن وجه كما عرفت في آخر آيات هذه السورة وغيرها، وقال تعالى

حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ (النمل: ١٥).

الخامس: تصدير دعواتهم المباركة بكلمة الرب كما قال عيسى عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ الدال على حضوره عز وجل ومراعاة خلقه وتربيتهم لهم كما في دعوات إبراهيم المباركة ﴿ربي إني أسكنت﴾ وكذا غيره من الأنبياء والمرسلين.

السادس: إن جميع أحوالهم وألفاظهم تشتمل على ما يوافق أدب الحضور فكأن كل واحد منهم حاضر لدى جنابه عز وجل كما ذكرنا في قوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

السابع: اشتمال دعواته المباركة على ما يرجع إلى الصالح العام، قال عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ وقد عرفت أنه كان هذا الدعاء منه بأسلوب إيكال الأمر إليه عز وجل حتى لا يدخل في ضمن الدعاء للكافرين المرغوب عنه واستعمل من الأسماء العظام بما يناسب المقام وهم قد ألهموا علم الأسماء فيعلمون كيف يستعملون أسمائه المقدسة التي لها آثار خاصة، وقد قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ربي ارزق أهله من الثمرات﴾ وقال أيضاً: ﴿ربي اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وفي دعوات نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله ما يبهر العقول.

الثامن: أنهم إذا أرادوا حاجة لأنفسهم أشركوا معهم غيرهم ليعم النفع وقد عرفت دعاء إبراهيم ﴿ربي اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين﴾ وفي دعاء عيسى عليه السلام ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

التاسع: أنهم إذا أرادوا من الله شيئاً بما يرجع على أممهم عند المخالفة والإمساك عن طاعتهم فلم يبق بعد الجهد الأكيد في التبليغ أن يرجعوا إلى الله تعالى بعد إتمام الحجة عليهم ونفاذ كل الوسائل في هدايتهم لم يستعملوا الألفاظ الصريحة بل هم يكنون في دعواتهم فقد حكى عز وجل عن موسى بن عمران عندما أمر قومه بالدخول إلى القرية ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ فقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ فقد كنى عن الإمساك عن أمرهم وتبليغهم ما أمره ربهم مرة أخرى بعد تلك المواجهة العنيفة منهم، ومن ذلك أيضاً دعاء شعيب على قومه إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ (الأعراف:٨٩)، فإنه استنجاز منه للوعد الإلهي بعد اليأس من نجاح دعوته فيهم نعم ورد في قصة نوح عليه السلام التصريح بطلب العذاب لكنه بين السبب في ذلك، فكان من أدب دعائهم بالشر أن تذكر الأمور التي يبعث إلى الدعاء بالنابة بخلاف الدعاء بالخير فإن التصريح بالأسباب أدعى في المطلوب كما في دعاء موسى عليه السلام حيث قال تعالى حكاية عنه ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ عند دعائه على فرعون ولم يأت بتفاصيل أخرى بخلاف الدعاء في طلب الخير فقد حكى عز وجل دعاء عيسى في نزول المائدة التي ذكر فيها التفاصيل فراجع.

العاشر: أنهم كانوا يراعون منتهى الأدب مع قومهم وهو يرجع إلى التبليغ العملي الذي يضاهي التبليغ القولي، وفي القرآن الكريم الشيء الكثير.

قال تعالى حكاية عن نوح في المحاورة التي جرت بينه وبين قومه ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (هود: ٣٢ ـ ٣٤)، فهي محاورة عجيبة تعج بالأدب الجميل والثناء والتبليغ مع الله تعالى والأدب اللطيف الذي يقبله مع طغاة قومه، ولذا كان نوح عليه السلام أول الأنبياء الذي فتح باب الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد ويعثر المتمعّن في محاوراتهم على لطائف دقيقة.

ومن فروع هذا الأدب الرفيع أنهم لم يستعملوا في كلماتهم وأقوالهم ما يسوء المخاطبين وإن كانوا من العتاة والجهلة والجبابرة ولم يخاطبوهم بكلمات نابية تدل على الإهانة والازدراء والشتم، وقد نال منهم المخالفون بشتى أنواع السب والشتم والاستهزاء والسخرية ولكنهم لم يجابهوهم إلا بالتي هي أحسن، قال تعالى حكاية عن عاد قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ (هود: ٥٤، ٥٥). وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨) وقال تعالى حكاية عن قوم خاتم الأنبياء ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ (الفرقان: ٨، ٩)، وغير ذلك من الآيات التي تحكي عن الأمم في محاوراتهم ومحاججتهم مع أنبيائهم المشتملة على أنواع الإهانة والشتم. وكان من أدبهم أنهم ينزلون أنفسهم منزلة آحاد الناس يكلمون

كل طبقة منهم على قدر معرفة ومنزلته من الفهم وقد قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» ومن أدبهم أنهم كانوا يتحملون أنواع الأذى في سبيل هداية الخلق وإرشادهم إلى الحق فليس لهم هم إلا التبليغ والإرشاد فهم تلبسوا بالحق وتنزهوا عن الباطل بكل أنحائه ولأجل ذلك إنهم كانوا متصفين بصراحة القول وصدق اللهجة وإن كان في بعض الموارد لا يقتضي ذلك كما هو الحال في المجتمعات غير الدينية التي تتبع سنة المداهنة والتساهل والأدب الكاذب ولهذا الأدب الاجتماعي وجوه مختلفة تجلت في معاشرتهم مع الناس بجميع طبقاتهم الفقير والغني والحاكم والمحكوم والعبد والمولى، والرجل والمرأة والصغير والكبير فقد كانوا مثالاً للحق بكل معنى الكلمة هذا بالنسبة إلى أدب الأنبياء الذين تأدبوا بالأدب الإلهي بجميع أنحائه وأطواره.

وأما عيسى عليه السلام فهو لم يخرج عن تلك الصفات المشتركة بينه وبين سائر الأنبياء والمرسلين فقد كان في غاية الأدب ومنتهى الحسن في الصفات والتأدب مع الله تعالى إلا أنه اختص بالأدب الخاص لنفي ما ادعاه قومه فيه من الألوهية فاشتملت كلماته المباركة على التنزه والعبودية وإسناد أموره إلى الله تعالى وإلقاء شأنه أبداً مع خالقه العظيم[1].

---

(١) م.ن، ج١٢، ص٦٨٤.

لطائف عرفانية

يمكن أن تكون الآيات الشريفة(١) إشارة إلى معاني عرفانية، تتشوّق النفوس إليها وتنشط الأرواح بها وتزيل التعب عنها وتتوجّه إلى خالقها وتستعين منه، ولعلّ الآية المباركة: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إشارة إلى عهود العشّاق المنقطعين عن ما سواه، والعاكفين على أبواب فيضه ورحمته، فعقدوا معه جلّ شأنه على بذل وجودهم لنيل مقصودهم ـ وهو رضاه ـ وتحمّلوا ألم الفراق وعذابه لأجل لقاء جماله، وصبروا على المكاره حتّى يتقرّبوا إليه بالشوق إلى دنوّه، فأنت الذي وهبت لهم من فيضك قدر ما يستحقّون، وأنعمت عليهم من آلائك قدر ما يتأهّلون باختيارهم، وجعلت في قلوبهم شوق لقائك، فهم منك، وإليك، ولك، ومعك تعاهدوا وتعاقدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾.

مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٧].

أو إشارة إلى أنّ ما تفضّل به على الإنسان ووهب له أعضاء يستخدمها في حياته، فكلّ عضو ـ نعمة وهبة ـ له عقد معه جلّ شأنه بأن لا يصرفه في معاصيه ونواهيه، فلا بدّ من الوفاء بهذه العقود التي عقدت معه تعالى، ويدلّ عليها روايات كثيرة ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم.

أو إشارة إلى ما بذلوا من الجهد في هداية خلقك، ومهّدوا السبيل لهم للفوز إلى القرب من حضرة جمالك، وتعاقدوا ببذل أغلى وأعلى ما عندهم بقبولك بالدخول مع عبادك.

أو إشارة إلى إماتة الإنسيّة للنيل إلى المقامات العالية والعقد على مخالفة الهوى وطرد الشيطان، لتلقّي أنوارك.

وكيف ما كان، فمن أوفى بعهوده ودام على عقوده وصبر على بلائه ونجح في امتحانه، فقد فاز بمقصوده وتلقته السعادة، وتمثلته الإنسانيّة، ودخل الجنّة بعدما أزلفت له.

ولعلّ المراد من قوله جلّ شأنه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أحلّ ذبح بهيمة النفس التي هي كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، وقتل الأهواء الشريرة حتى تنكشف الحقائق وتزيل الأوهام، فعن علي عليه السلام: «المؤمن ينظر بنور الله»، لأنه من الله تعالى وإلى الله تعالى، وهو في نور الله ويرى بنور الله، إن عرف الله وأزال الحجب بينه وبين الله تعالى، وهذه

الأنوار غير محدودة، كما تقدّم في أحد مباحثنا السابقة، ولكن الاستعداد واللياقة بل الأهليّة لها دخل فيها.

ولعلّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ يشير إلى الخلّص من عباده، وهم النفوس المطمئنة الثابتة التي فازت بالقرب إلى ساحة جماله، وتشرّفت بالخطاب الأبدي الربوبي، فسمعت بأذن نقية داعية قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾، لأنها أحرمت بالتنفّر عن الدنيا وما فيها وتوجّهت إلى كعبة الوصال بتلبية الشوق، وتمسّكت بعرى العشق لحضرة الجمال، وآنست مع الطائفين حول بيت الحقيقة والأمان، وأوت إلى الركن خوفاً من الأغيار، وتجرّدت عن ما سواه، وانفردت عن كلّ محبوب ومطلوب بالتوجّه إلى المقام، ولذلك كلّه يرى في كلّ شيء جماله جلّت عظمته كما عن سيد العرفاء وإمام الموحّدين عليه السلام.

ولا شكّ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ بترقي النفوس اللائقة وبذبح النفس إن اتّصفت بصفات البهيمة، ورعت في مراتع الحيوانات السفليّة، ورفثت كما ترفث الحيوانات البريّة، وتشبّهت بالحيوانات السبعيّة حتى تنال طعمة من المآكل الدنيّة.

﴿مَا يُرِيدُ﴾ كما يشاء ويريد، فإنّه رؤوف كريم يحبّ أن يرى آثار نعمه على عباده، وفي الحديث: «إن الله جميل ويحب الجمال»، الأعمّ من الظاهري والمعنوي، ولا يحبّ القيود والسلاسل «ويبغض العبد القاذورة». أي: الصفات الذميمة المتوطنة في النفس أو الأوساخ الظاهرة على الجسد.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لا تقطعوا السبل عمّن أراد وجهه تعالى، لأنّ الجهة عظيم لا السالك شريف ـ إلاّ إذا كان مؤمناً ـ فإن القلوب تتسارع إلى الفضائل إن انكشفت لها الحقائق وتؤمن بالله العظيم وملائكته ورسله، لأنّ العبرة بالخاتمة، فلا تتهاونوا بحُرمات الله تعالى بصدّ السير للسالك إلى المنازل والصعود من المواقف الدنيّة إلى التجرّد للقائه تعالى.

كما أنّ بعض النفوس المؤمنة تشرّفت بالقرب لساحته جلّ شأنه وفازت بنيل رضاه بالإفاضة عليها، كذلك بعض الأمكنة أشرق عليه نور ربّه جلّ شأنه فتشرّف وسمى على غيره، وكذا بعض الأزمنة فضّل على غيره لتجلّيه تعالى فيه، وهو تعالى فضل الأشهر والأيام والأوقات والأمكنة بعضها على بعض، كما فضّل الرسل والأمم بعضها على بعض، لتتسارع النفوس المستعدّة لشوق اللقاء بعد تطهيرها عن الرذائل والأغيار، ثمّ التحلية بصفات الأخيار، فقال تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: لا تستحلّوا المآثم فيه وقدّموا التخلية بإزالة الصفات الذميمة حتى تنالوا شرف التحلية فيه، فإن للزمان والمكان والصاحب والأستاذ الدخل الكبير في تأثير النفس للإيصال إلى المقصود بها، وفي تحلية النفوس فيها.

ولا تمنعوا قوماً أرادوا التشرّف إلى كعبة الآمال وساقوا الهدي للقربان لأجل التوصّل لما يوجب الغفران من الآثام، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، أي: لا تحلّوا الهدي الذي يريد صاحبه التقرب به، ولا القلائد التي أسعرت بالشدّ لفكّ الشدّة.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أنّ كل مخلوق من حيث إضافته إلى خالقه جلّ شأنه حسن، مع قطع النظر عن كونه سعيداً أو شقياً، لأنه تعالى خلقه بيديه ومن روحه وهو على صورته كما في بعض الأخبار، وإن لم يرضى المولى بكفره ـ فإحسانه لخلقه لا لكفره ـ وإذا قصد بيت الأمن والأمان وأراد التوجّه إليه بالمقام، فلا تصدّوه عنه علّه يتحلّى بمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال ويتشرّف بهدي الإسلام، لأنّهم كسائر العباد ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ من التجارة في العاجلة أو الرضوان في الآخرة حسب زعمهم، والله يهدي لرضوانه من يشاء حسب لياقته وشأنه، فلا يجوز تحقيرهم بمنعهم عن الوصول إلى حرم الأمان، إلا إذا خبثت ضمائرهم، فخرجت عن قابلية الصلاح والإصلاح، فحينئذ لا يؤم البيت الحرام.

ويحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ الوصول إلى مرحلة التطهير بتمييز الحقّ عن الباطل بالعيان، لأنّه إذا حلّيت النفوس بعد التخلية وقربت إلى ساحة جماله بأداء شعائره، ورقّت الأرواح حتّى وصلت إلى شهود أنواره، وخلت للأجسام النظر إلى صفاته والأخذ من رياض بهجته وبهائه، واستعدّت القلوب بعد ترويض النفوس وتزكيتها للمقام الرفيع، فحينئذٍ نالت مرحلة: «كلي واشربي وقرّي عيناً»، فأحاط التعظيم بها من كلّ جانب وشاهدت ما شاهدت وميّزت الخبيث من الطيب، وذاقت النفس طعم الحبّ وألم الفراق، وقال بعض العرفاء:

لا محبّة إلاّ بأصول ... ولا وصول إلاّ غالي

ولا شراب إلاّ مختوم ... ولا مقام إلاّ عالي

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أن لا يصدّكم عن السير نحو الكمال بالوصول إلى مقام التسليم والرضا بعد الخلع بالبعد عن مساوىء نفوسكم التي هي الأغيار في جنوبكم، أو لا تمنعكم الصفات الذميمة في غيركم - الذين هم في زيّ الصادقين وعملهم عمل المعرضين - عن إصلاح سرائركم وتنوير قلوبكم والنيل بالأحبّة والفوز بمقام الخلّة بالتحلّي بصفات الغرّة، وقال شاعرهم:

أمّا الخيام فإنّها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

لا والذي حجّت قريش بيتَهُ ... مستقبلين الركن من بطحائها

ما أبصرت عيني خيام قبيلة ... إلا بكيت أحبّتي بفنائها

قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٨]، فإذا سأل الصادقين عن صدقهم أيترك المدّعين من غير سؤال؟! فإنّ البعد عن الحقّ والحقيقة، والنيل من العزّ بذلّ العبوديّة بالأهواء ظلم واعتداء، لأن الادّعاء أعمّ من الواقع والحقيقة، فلا تحملنكم الصفات الذميمة على الاعتداء بالهبوط عن رفيع المقام وأسمى المنزلة أشرف الملكات الّتي هيّأها الله تعالى لكم.

وإنّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أن كلّ ما يشغل القلب عن ما سواه ويمنع عن الوصول إلى الحقّ والحقيقة، فدفعه إعانة على البرّ، ولا يمكن دفع ذلك إلاّ بواسطة الشرع المبين. وأنّ تمكين حبّ الدنيا في النفس، وتكدير الروح بعد صفائها، وتسويد القلوب بعد جلائها هي من الإعانة على الإثم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جميع الحالات، وفي كلّ الأمور وعند كلّ مقام،

ومنزلة فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فاتقوه حتى تنجوا من عقابه الشديد وعذابه المديد، فمن عقابه عدم الوصول إلى تلك المنازل، ومن عذابه عدم نيل رضاه، وعدم الظفر بالحقّ والحقيقة. والله العاصم من الزلل والخطأ[١].

(١) م.ن، ج١٠، ٢٨٧.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

طريق الكمال الإنساني

الإنسان المتخلق بأخلاق الله تعالى يكون مظهراً من صفات لطف الحقّ، ولذا يكون قبوله قبول الحقّ، وردّه ردّ الحقّ، ولعنه لعن الحقّ، ويكون دعاؤه دعاء الحقّ وكذا صلاته، فإذا صلّوا على أحد كان صلاتهم صلاة الحقّ، قال تعالى مخاطباً لنبيّه عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٣].

وهذا الكمال لا يتحقّق في الإنسان المؤمن إلاّ بالمعرفة الكاملة والإفاقة عن الغفلة، وفي الآيات المباركة المتقدّمة تلميح إلى ما يصل به المؤمن بالرقي في تلك المراتب، حتّى يصل إلى مقام القرب لديه جلّت عظمته، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً حقيقياً، فيكون الخطاب مع الذين قالوا: «بلى» عندما تجلى بقوله جلّ شأنه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ في يوم الميثاق، فعاينوا ثمّ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٢]، وهم الأولياء، أي: أهل الصف الأوّل ـ كما هو المصطلح عند العرفاء ـ.

وأهل الصف الثاني آمنوا إذ شاهدوا، فمرتبتهم وإن كانت راقية ولكنها دون مرتبة الصف الأوّل، كما هو واضح وهم الخواص.

وأهل الصف الثالث آمنوا بعدما سمعوا الخطاب سماع فهم ورواية، وهم المرتبة النازلة عن المرتبتين، وهم المسلمون وعوام المؤمنين.

وأهل الصف الرابع آمنوا تقليداً لا تحقيقاً، لأنّهم ما عاينوا، ولا شاهدوا، ولا سمعوا، فكانوا بعيدين عن الخطاب الحقّ فلم يسمعوه، وإنّما انتظروا ولم يؤمنوا حتّى سمعوا جواب أهل الصفوف، وكان سماعهم سماع قهر ونكاية، وهم المنافقون المذنبون.

وأهل الصف الخامس وهم اعترفوا ثمّ أنكروا، لقربهم إلى الشيطان وبعدهم عن الرحمن، وهم الكافرون.

وأهل الصفوف آمنوا في ذلك العالم ـ بالعيان أو المشاهدة، أو السماع، أو التقليد ـ كذلك آمنوا في هذا العالم حسب ذلك الإيمان، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ من نوم الغفلة، وخرجتم من ظلمات الجهالة، وانتبهتم من رقدة الفرقة ومن عتاب الأحبّة، ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ التي بها تصفي النفوس من لوث الأشباح، وهي المعراج للرجوع إلى مقام القرب، وإنّها أرق وأصفى من المناجاة مع الربّ:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرّ أرقّ من النسيم إذا سرى

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة يصلّون بصلاته»، فإذا تمّت التصفية، واستخفّت الروح ورفع الحجاب، فحينئذٍ ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، وقبل ذلك كلّه ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾، التي توجهتم بها إلى الأغيار ودنوتم بها إلى الشيطان، بماء التوبة والاستغفار، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، فاغسلوا أيديكم عن الدنيا كلّها حتّى عن الصديق الموافق والرفيق المرافق، وفي الأثر: «إنّ المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين خوفاً منه». وتوجّهوا إلى بارئكم، وخالقكم، ورازقكم، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ ببذل نفوسكم وفنائها حتى تشرق عليها شوارق الأنوار، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ اغسلوا أرجلكم عن تراب الأنانيّة وطين الشهوة إلى أن يحصل لكم شرف حضور القلب بكعب مقام الخلّة، ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ بالالتفات والتوجّه إلى الحجب الماديّة بالسير في الملذّات النفسانيّة، ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ النفوس عن المعاصي، والقلوب عن رؤية الأغيار، ببذل العبودية لله تعالى ومخالفة الهوى، ففي الأثر: «إن سلمان الفارسي سافر في زيارة بعض الأصحاب من العراق إلى الشام راجلاً وعليه كساء غليظ غير مضموم، فقيل له: أشهرت نفسك؟ فقال: الخير خير الآخرة، وإنّما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد، فإذا أعتقت لبست حلّة لا تبلى حواشيها»، فلا بدّ بطهارة الأرواح عن الاسترواح من غيره، وإن كنتم مرضى بمرض حب الدنيا وطلب الجاه، والنيل إلى المقام في متابعة الهوى والسير في زوايا الأوهام بالاستيناس مع الأغيار، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ في قضاء حاجة ماديّة وشهوة شيطانيّة، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بتحصيل لذّة من اللذّات بالبيع من الأشباح أو شراء ما يوجب الاستيناس بغيره جلّ وعلا، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ للطهارة عن الأدناس

بالبعد عن الحقائق، ولم يهدكم أحد إلى التوبة والاستغفار من ضعف نفوسكم، ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ بالتمعّك في تراب أقدام الأنبياء، فإنّه طهور للذنوب العظام وسبيل للدخول في نعم الرحمن، فإنّ الجنّة تجرّ أهلها، قال ﷺ: «عجب ربّك من قوم يساقون إلى الجنّة بالسلاسل»، فلا تيئسوا من رحمته وفيوضاته، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فإنّ إخلاصهم لله تبارك وتعالى يوجب خلاصكم ونجواهم معه جلّ شأنه سبب لنجاتكم، وفي الأثر: «من صلّى خلف مغفور، غفر الله له»، فطهّروا نفوسكم بالاقتداء بهم، ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ من غبار نعالهم وشمّروا لخدمتهم، ففي الحديث قال ﷺ لبلال: «ما صنعت يا بلال؟! سمعت دقّة نعليك قبل دخولي الجنّة، فقال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهّر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صلّيت بذلك الطهور»، فسيروا على نهجهم وتمسّكوا بهم، ﴿وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي: اعتصموا بقوّة لهم، لأنهم حبل الله الأعظم، بهم ينوّر الله تعالى قلوب العباد، وبهم يخرجون الناس من الظلمات وترفع الحجب المهلكات، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، لأنه تعالى يحبّ خلقه فلا يريد لهم الذلّة بالضيق في الحجاب، ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: ينقيكم من الشرك بالرقي إلى المقام الرفيع، بالنيل إلى الإخلاص والفوز بالجزاء، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾، والوصول إلى ساحة القرب بالوصال: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بكسر أنوار الهواية والاستقرار في الجنّة العالية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بعد هدايتكم للنعم الإلهية والأنوار الربانيّة والهبات السماويّة، فاذكروا تلك النعم واشكروه حتى يزيدكم من فضله، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فلا تنسوا آلائه تعالى عليكم، وما منّ عليكم بختم النبوّة في أشرف الكائنات وفخر

الموجودات، وبالولاية لسيّد الأوصياء الذي اصطفاه لحبّه واجتباه لحضرته، ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ في ظهر آدم وعالم الميثاق، أو الميثاق الذي أخذه نبيّنا الأعظم ﷺ حين بايعه المسلمون، فعن أبي ذر رضوان الله تعالى عليه قال: «بايعني رسول الله ﷺ خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد الله عليّ سبعاً أن لا أخاف في الله لومة لائم»، فهو (رضوان الله عليه) رفض الدنيا وهاجر إلى ربّه بعدما مدّ يد البيعة مع رسول الله ﷺ ودافع عن الحقّ والولاية بوحده، حتّى عاش وحده زاهداً ومات وحده شهيداً، وهاجر إلى ربّه مظلوماً، فسلام الله تعالى عليه حين أسلم وحين قام وقعد وحين رجع إلى ربه مطمئناً وفاز بما وعد الله تعالى له على لسان النبي الأمين ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، لأنه أخرجكم من ظلمة العدم إلى نور الوجود، فسمعتم قول ربّكم حيث قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وأطعتم حيث قلتم «بلى» حسب اختلاف تأهلكم، ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في نقض ميثاقه ونسيان نعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، لأنه يعلم الأسرار والخفايا وما يكن في الصدور، فأوفوا بعهوده ولا تنقضوها، واتّقوه في جذب الأخلاق المرضية، وابتغاء الوسيلة إليه بفناء الناسوتيّة في بقاء اللاهوتيّة وتخلّص العبد من ظلمة الأوصاف الناشئة من الزلات النفسانيّة، بالجهاد في سبيل الله تعالى لاضمحلال الأنانيّة.

اللهم اجعلنا ممّن سبقت له العناية، وأفضتَ عليه توفيق العبادة، وتفضّلتَ عليه بالرقيّ إلى المقامات العالية، إنك سميع مجيب[1].

---

(١) م.ن، ج١١، ص٥٣ ـ ٥٧.

قابلية الإنسان واستعداده

خلق الله تعالى الإنسان كالمرآة للحقائق الواقعية والمعارف المعنوية، بل هو كالمرآة لصفات جلاله وجماله.

الحق في كثرة الأعيان إذ ظهرا ووجهه الأحديّ الذات ما كثرا
لكن ما شاهد الأعيان شاه يرى وجه الحقيقة في مرآة إنسان

هذا إذا كان الإنسان منقطعاً إلى الله تعالى ومنقاداً له من كلّ جهة، وأما غيره فلا يليق به هذا المقام، بل قد يكون كالأنعام.

فإذا كان للإنسان الاستعداد لأن يحكي حقائق الممكنات مما مضى وما هو موجود وما هو آت، فيجب أن يعتني بنفسه ويرعاها نهاية الرعاية ولا يسقطها عن الاعتبار، وإلا تلحقها المهانة والصغار، لأنها السبب الموصل إلى كلّ مطلوب، والرابط بين أهل الأرض والغيب المحجوب، فأيّ مكرمة لله على خلقه أعظم من هذه المكرمة، وأي موهبة له تعالى في عوالمه أفضل من هذه الموهبة، ومن فعل ما يوجب درن هذه المرآة فقد جنى على نفسه وأضاع ما أُعدّ له من النعم الباقيات، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٠](١).

(١) م.ن، ج٤، ص٤٢٦ ـ ٤٢٧.

الحجب الظلمانية التي تمنع النفس من الاستكمال

الحجب التي تحيط بالإنسان كثيرة فإذا تراكمت بسبب الغفلة عن إزالتها تصير ظلمات بعضها فوق بعض، تشتمل على جملة من عيوب النفس وبعض الرذائل التي تمنع النفوس من الدرج في الكمال، بل إن بعضاً منها من المهلكات التي توقع النفس في الهاوية فتخرجه عن طور الإنسانية إلى أسوأ دركات البهيمية وتجعلها في مصاف الحيوانات الرديئة كالقردة والخنازير، وقد نُهيَ المؤمنون عن اتخاذهم أولياء لأن النفس تتأثر بأفعالهم وتتكدر بأقوالهم ويسلب منها التوفيق برؤيتهم:

فللنفس من جلاسها كل نسبة ومن خلة للقلب تلك الطبائع

ويكفي أن النظر إلى تارك الصلاة يسلب التوفيق فكيف باتخاذهم أولياء فذلك الهلاك للنفس، ومن أهم المهلكات الاستهزاء بدين الله عز وجل واتخاذه لعباً فإنه يوجب شقاء القلب وينبيء عن سفالة النفس ودخولها في سلك البهائم التي لا شأن لها إلا اللعب ولذا مسخوا بالقردة التي لها المناسبة مع تلك المعصية الدنيئة فقد جبلت نفوسهم على حجب العقل وحرمان النفس من التمتع بأنواره والاستفادة من إرشاداته فكان الخطاب الربوبي لهم بأنهم قوم لا يعقلون لأنهم استهزءوا ولعبوا ووصلوا إلى حد الهزء بأهم شعيرة فطرية وأعظم رابط بين المخلوق

وخالقه وهي الصلاة التي اجتمع فيها التقرب والخضوع والخشوع لدى الرب العظيم وأن بها يستنزل الرحمة والنور الذي إذا قذف في القلب انخرق كل حجاب بينه وبين خالقها، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ (إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح) انظر إلى هؤلاء الكفار كيف استهزءوا بأحكام الله فحجبوا عن النور الإلهي ووقعوا في ظلام النفس الأمارة وتاهوا فيها وكان السبب في ذلك سلبهم العقل وانزواء الفكر فيهم فصاروا قردة وخنازير يرتعون في زخارف هذه الدنيا فأحبوها وانخرطوا في حب النفس فلا يشعرون ما يحصل بأنفسهم فاتصفوا بأسوأ الصفات فكانوا أهل حرص وشهوة وقلت غيرتهم على الحق وانقادوا إلى كل باطل وخضعوا إلى كل ما سوى الله فأوجب طغيانهم فحجبوا بأنفسهم عن الحق فأنكروا أهله الذين غلب عليهم شهود الحق وكوشفوا بسر الوحدانية واستغرقوا في الحقائق العيانية وانقطعوا عن الشعور بأنفسهم وغابوا عن سواه بالكلية، ومن المهلكات أيضاً المسارعة في الآثام والأقدام على جميع الرذائل لاعتياد أنفسهم عليها وتدربهم فيها فصارت ملكات في نفوسهم واستوعبت مظاهر وجودهم فكانوا في رذائل وصفات في جميع قواهم النطقية والغضبية والشهوية فأكلوا السحت وتعاطوا العدوان ونطقوا بالزور والبهتان وكانوا أهل الفسوق والعصيان فأبعدهم الله من رحمته وانقطع الأمل في تهذيبهم فمتى كانوا أهل خلة ووصال:

فلا ترض بغير الله حباً ... وكن أبداً بعشق واشتياق

ترى الأمر المغيب ذا عيان ... وتحظى بالوصال وبالتلاق

وإنما ذكر عز وجل تلك الرذائل والصفات السيئة ليجتنب المؤمن

منها ويبتعد عن من اتصف بها فإنها حجب وحرمان ولا يمكن للنفس التحلية بالمكارم إلا بالتخلية من تلك الرذائل.

ثم كان الأدهى والأعظم مداراة المذنبين وترك التعرض لهم مع العلم بما يفعلونه من القبائح والآثام فإن في ذلك مفسدة للدين والدنيا وهدم الآخرة والأولى فإن ترك المذنب على ذنبه إماتة للنفس التي لها نحو تعلق بالباريء وإفشاء الذنب في المجتمع إماتة له فلا يرتقي في الكمال وأما العالم الذي ترك التعرض للمذنبين وأهمل إرشاد الخاسرين فقد تحمل هو قسطاً من الإثم وانتهج سبيل الغواية والضلال وكان ضالاً ومضلاً فصار صنيعه الإفساد فهو أعظم الخاسرين وأشد المتحسرين يوم الحسرة فقد كفر بما أنعم الله عليه من نعمة العلم ولم يؤد ما عليه من الوظيفة فتحمل إثم المرتكبين وانتشر الفساد والخسران بسببه فيا له من الخسارة العظمى ولذا ورد أنه يُغفَر للجاهل سبعون ذنب قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد[١].

(١) ن.م، ج١٢، ص١٢٢.

مقام الولاية وعظيم أثرها في التشريع والتكوين

مقام الولاية من أجل المقامات وأعظمها فهي قطب رحى التكوين والتشريع وهي الحبل الممدود بين الله تعالى وجميع مخلوقاته والعروة الوثقى التي من اعتصم بها نجا من مهالك النفس وتمكن من تكميلها وهي التي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم ولأجل أهميتها لم يذكرها عز وجل في هذه الآية الشريفة إلا بعد تقديم أمور وتمهيد مقدمات لها مدخلية في تحقق هذا المقام فإنه أولاً نهى عن اتخاذ الكافرين الذين يصدون عن دين الله أولياء وشدد الأمر فيه واعتبر أن من يتخذهم أولياء يكون من الكافرين الظالمين ثم بين أن من يخالف أحكام الله ومنها تشريع الولاية يكون من المرتدين الراجعين عن دينه ثم ذكر أن هؤلاء المرتدين لم يكونوا موضع أمانته ومؤهلين لحفظ دين الله وأحكام طاعته في الأرض فسوف يأتي الله بقوم متصفين بأوصاف حقيقية كمالية تنبىء عن صفاء باطنهم وشدة انقطاعهم إلى الله وأنهم في جهاد مرير مستمر في سبيل الله فهم الذين اختارهم لأن يكونوا أولياؤه ثم بعد ذلك بين أن أمر الولاية من صميم التشريع وعلته المبقية ويجب إبلاغها إلى الناس وإلا فلا يكون تبليغ للرسالة ثم بعد التبليغ يبين عز وجل أنه بها أكمل الدين وأتم النعمة التي أرادها للناس. فكان التبليغ في مراحل لتثبيت هذا الأمر العظيم

ولعله لأجل ذلك طلبوا من الرسول الكريم ﷺ تفسير الولاية وبيان خصوصياتها كما تقدم في الحديث.

وفي الولاية تظهر حقيقة الدين ويتبين واقع الطاعة ويتجلى العرفان والانقطاع إلى الواحد الأحد وعندها تنتهي مقام الاصطفاء والخلة وجميع المقامات فهي العلة الفاعلة والعلة الغائية وقلما تجتمع في أمر العلتان وبالجملة هي آخر قوس الصعود (لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودها إليك) وهي سر الله في العالمين فوق ما يتعلقه الممكن في حدوده الإمكانية ولذا لم يبين سبحانه وتعالى من حدود هذه الجوهرة الفريدة والسر المستتر إلا ما يتقبله أفهام المستعدين وهي الانقطاع إليه عز وجل وكمال الخضوع له تعالى لفناء ذواتهم المقدسة والتجرد عن العلائق وتزكية النفوس وترقيتها من حال إلى حال أفضل مع مالهم من الكمال فهم في حال الركوع والخضوع دائماً ولعل إعطاء الزكاة في حال الركوع للإشارة إلى استمرار اتصالهم بهذه الدار لأنهم سبل الهداية وأبواب الله في أرضه وإلا فلمحض فناؤهم خرجوا عن طور البشرية وهي والنبوة من منبع واحد، ولذا قال سيد الأنبياء ﷺ (خلقت أنا وعلي من نور واحد). وقد ظهر هذا النور في مر الدهور وكان له تجليات حتى تجلى في مظهر سيد الأنبياء فكانت النبوة وفي مظهر سيد الأوصياء فكانت الإمامة فهي امتداد للنبوة ولكنهما حقيقة من الحقائق الإلهية لا يمكن دركها إلا بفيض رباني إلا أن يكون المانع التحديدات الإمكانية فالعاجز عن الوصول يتشبث بالقشور ويترك النور ويوسم نفسه بالقصور إلا من أدركته بارقة إلهية ومنحة ربانية فانكشف له الظلام واستعد للدخول في الحمى فعرف حق الولاية

واعترف بالإمامة وجعل لنفسه إماماً يقتدي به لينجيه من المهالك ويرتقي في سلم الكمال هذه هي الإمامة فلا يمكن إنكارها إلا ممن ينكرها بإنكار الجحود ويوصد على نفسه أبواب الصعود ويفتح أبواب الهبوط أعاذنا الله منها(١).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٩١.

الهجــرة

الهجرة وهي الانتقال والرحيل سواء كان من الوطن إلى غيره أو من حال إلى غيرها. وإنّها من أكمل الصفات الحسنة وأجلّها إن كانت ناشئة من الحبّ الحقيقي الواقعي لله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه جلّ شأنه، وبها يحصل الودّ والحبّ له عزّ وجلّ، ومنه تعالى لعبده.

بل أنّ الهجرة من الفناء في ذاته جلّت عظمته، لأنّ بها يخرج الإنسان عن ذلّ ما توطّن فيه من الصفات الذميمة ويبعد عن المعاصي - التي تحصل عن الأهواء الشيطانيّة - كالكبر والحسد والبطر والجهل وغيرها.

وبالهجرة يفوز الإنسان وينال الكمالات بأنواعها وأقسامها الظاهريّة والمعنوية، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وبالهجرة يرتقي الإنسان عن حدود البشريّة في طلب حضرت الربوبيّة إلى منتهى السعادة بصفاء القلب وتزكيته والعروج إليه جلّت عظمته، لأنّ البقاء والسكون فيها الذين لا يرضاهما تعالى من آثار الحجب والبُعد عن ذاته المقدّسة والقرب من الشيطان.

وبها يستغني المهاجر عن ما سواه تعالى، ويذوق لذة العبوديّة لله جلّ شأنه، وينال شرفها بالخضوع الحقيقي له عزّ وجلّ. فالهجرة الواقعيّة من أسمى الصفات الكريمة وأجلّ الكمالات الواقعيّة وأرفع المنازل العظيمة، وأشرف الحقائق بل هي غاية السير والسلوك إليه عزّ وجلّ، لأنّها مبايعة الله تعالى مع عبده بالهجرة إليه عزّ وجلّ.

اقسام الهجرة:

للهجرة أقسام مختلفة تنشأ من علو الهمّة التي هي تختلف باختلاف الأشخاص ومراتب الإيمان ومنازل الأوطان:

الأوّل: الهجرة من الوطن إلى غيره لنيل الدنيا، فإنّ هجرته إلى ما هاجر إليه، كما تقدّم عن نبيّنا الأعظم ﷺ ولا شرف فيها، بل في التعبير بها تسامح، والآيات الشريفة والسنّة المباركة بمعزل عنها.

الثاني: الهجرة بترك الأوطان والبُعد عن الإخوان لنيل الكمال المنشود في رضائه تعالى بصحبة عالم عامل أو حكيم عارف أو معلّم مشفق. ولها مرتبة من الشرف، وقد يحصل بها الرقي إلى المنازل الرفيعة والدرجات الساميّة، وتسمّى بهجرة الأخيار.

الثالث: الهجرة من وطن الملك بالسعي في ترك جميع الحظوظ النفسانيّة للوصول إلى عالم الملكوت. أو من وطن المعصية إلى شرف الطاعة والسكون فيه بمعرفة الحقّ وتجليه له، وهي من أكملها وأعلاها وتسمّى بهجرة الخواص، وبها يبلغ المقصود ويخضع له ما في عالم المشهود لخضوعه الواقعي له عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن انقطع إلى الله كفاه كلّ مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب»، وقد تقدّم في التفسير مكرّراً أنّ الرزق أعمّ من الإفاضات الظاهريّة والمعنويّة.

الرابع: الهجرة من وطن الغفلة إلى شرف اليقظة، أي: من وطن الحسّ إلى وطن المعنى بمكاشفة الأفعال ومشاهدة الصفات في ترك إقبال الخلق والعزل عن طلب الكرامة فيهم، ولا ينال هذا القسم إلاّ من امتحن الله قلبه بالإيمان.

وبهذه الهجرة ينال العبد أسمى صفات العبوديّة وأجلّها، وهي كما عن الصادق عليه السلام: «العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة»، وبها يستغني عن ما سواه تعالى ولا يعظم غيره عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن كانت الآخرة نيّته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا، وهي صاغرة»، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾، وتسمّى هذه الهجرة بهجرة الأبرار.

الخامس: الهجرة من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أي من الأكوان إلى المكوّن، وهي تختصّ بأخصّ الخواص، وتسمى بهجرة المقرّبين ومن أجلّها الإسراء والمعراج: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النجم، الآية: ٤٢].

والجامع بين الأقسام الرحيل من علم اليقين إلى عين اليقين، ومنه إلى حقّ اليقين، أو من الشهود إلى المعرفة ومنها إلى المعاينة. فمن هاجر من هذه المواطن قاصداً بهجرته الوصول إلى حضرة المحبوب بنيل رضاه، فقد بلغ أقصى مراتب السعادة وأشرف منازل الكرامة.

اسباب الهجرة:

تنشأ الهجرة النفسانيّة وعروج القلب إلى المشاهدة بتجاوز حدود البشرية من أسباب عديدة، أهمّها المحبّة لله تعالى، والغنى به جلّت عظمته، والصدق في العبوديّة ـ بالاستسلام لما يورد عليه والاستعانة منه

جلّ شأنه ـ واليقين في أحكام الربوبيّة، بتزكية النفس ومخالفة هواها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآية:٩]، ولكلّ من هذه الأمور مراتب ودرجات وحدود، ولولا قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «المؤمن مُلجم»، لكان لغور البحث فيها مجال.

آثار الهجرة:

لكلّ من أقسام الهجرة آثار تختلف حسب الهجرة التي هاجرها المهاجر، بهجران الصفات الرذيلة وتبديل الأخلاق الفاسدة بالحسنة وترك الحظوظ النفسانيّة وقهر الهوى بالمقامات العالية، فقد ينقّي الأثر بالرقي إلى مكارم الأخلاق، والوصول إلى أقصى مراتب الكمال بسعادة الدارين، ونيل رضاه عزّ وجلّ، ويبلغ القصد بالشهود بشرف العبودية في السير والسلوك حتى لا يحتاج إلى دليل وبرهان في إثبات صفات الجمال والجلال، تبعاً للهجرة الموصلة إلى المطلوب، بل قد ينال من الحياة الأبدية في هذه النشأة، كما ورد في شأن بعض الخواص من أصحاب الصادق عليه السلام.

ولو مات المهاجر قبل أن يصل إلى مراده ومسعاه، فله نصيب مَن بلغ إلى ذلك المقام، ففي الأثر: «أنّ المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن، أمر حفظته أن يعلموه في قبره حتّى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله»، وقد ثبت في محلّه أن الرقي في عالم البرزخ موجود لأهله. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة الإسراء، الآية:٧٢]، إنما هو بالنسبة لمَن لا معرفة له أصلاً، لا من انكشف عنه الغطاء بالهجرة وارتفع العمى والحجاب بالسير والسلوك إلى حضرة الربوبيّة في رضاه تعالى برؤية آثاره وصفاته جلّت عظمته. وأما قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله»، هذا بالنسبة إلى أعماله الخارجيّة وأمّا بحسب فضله تعالى فلا يتصوّر فيه حد حتى ينقطع،

والمهاجر الحقيقي كان من نيته دوام الهجرة والتوطّن في المقامات العالية، ولأجل ذلك أضاف جزاءه إلى نفسه الأقدس بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾، ويدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى في القدسيات: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن».

موانع الهجرة:

وهي العوائق الموجودة في النفس، المستندة إلى الأهواء الشريرة المتوطّنة في النفس البشرية الحاصلة من الوساوس الشيطانيّة، كالتخويف بالموت أو الفوت أو المحبّة لما سواه تعالى من الأهل والمال والجاه، فهذه حجب شيطانيّة تمنع عن الهجرة بالسير والسلوك، وتحجب عن مشاهدة التجلّيات وهو جمال الحقّ، فحسن الأعمال نتائج حسن الأحوال من صلاح القلب والتوجّه إلى الله، وبذلك تصلح الهجرة والرحيل، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾، أي: بيت بشريته بترك الدنيا وقمع الهوى ﴿مُهَاجِرًا﴾ إلى التقرّب به جل شأنه بمبايعة رسوله، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل وصوله إلى مطلوبه ومسعاه، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾، أي: بذمّة كرمه وفضله ورحمته فيبلغه إلى أقصى مقاصده إن كان المانع أجله، «فإنّ نية المؤمن خير من عمله»، و«يحشر الناس على نيّاتهم»، هذا إذا لم يأت بما يوجب بطلان الهجرة والبعد عن تشرّف الوصلة بالتقرب إليه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للذنوب خصوصاً ذنب أنانيّة الوجود، ﴿رَّحِيمًا﴾ بتجلّي صفة جوده حتى يبلغ العبد إلى كمال مقصوده ومسعى غايته بمنّه وجوده وكرمه[١].

---

(١) م.ن، ج٩، ص١٩٦ ـ ٢٠٠.

الفيوضات الإلهية

العطايا الإلهية والفيوضات الصادرة من المبدأ جلّ شأنه لعالم الإمكان ليست قابلة للتحديد، لأنّها مفاضة من المبدأ الذي لا يمكن تحديده - لا ذاتاً ولا صفة - وإنّما التحديد في المتعلق، وهو الاستعداد أو القابلية، كما تقدّم ذلك في المباحث السابقة.

ومن تلك الفيوضات المعارف بجميع أنواعها، والهداية بتمام أقسامها - كالهداية من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الحسّ إلى نور المعنى، ومن ظلمة الكون إلى نور المكوّن.

والإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى له شرفيّة النيل لهذه الفيوضات والعطايا والهبات أكثر من غيره، ولو اتّصف بالإيمان فله أسماها وأجلّها وإن كان إيمانه منبثقاً عن الفطرة الكائنة فيه، قال تعالى. ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٢ - ٣]، وتقدّم مكرّراً أن التقوى لها

مراتب، منها الإيمان بالله العظيم، وأنّ الرزق أعمّ من المادي والمعنوي الشامل للمعارف والإشراقات والمكاشفات، التي هي أنوار التوجّه وأنوار المواجهة، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢٩]، والفرقان الذي هو تنوير القلب والإشراق عليه من الغيب للتمييز بين الحقّ والباطل، يتوقف على القابلية والاستعداد، وهو الإيمان بالله تعالى الملازم للتقوى، وله مبرز خارجي وهو العمل الصالح، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [سورة النور، الآية: ٢١]، أي: ولولا فضل الله عليكم لما نمت نفس بالخيرات والبركات، بل أنّها ترسبت وبقيت في حال السكون والنزول إلى الهاوية.

بل أنّ شراء الحقّ سبحانه وتعالى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنّة، كان بالعاجل لا بالآجل، فإنه عزّ اسمه جل أن يعامل العبد نقداً ويجازيه نسيئةً، وليس ذلك من شأن الكريم فكيف بأكرم الأكرمين، فإن المولى الغني جلت عظمته لو اشترى شيئاً من أحد نجزه نقداً وزاد في إحسانه ورفده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١١]، فعوّض المؤمنين في هذه الدنيا جنّة المعارف بأقسامها وزادهم جنّة الزخارف وادّخر لهم ما يليق بشأنهم ويمنحهم لهم في دار الآخرة.

والجنّات الممنوحة في هذه الدنيا لمن تمّ عنده رسم العبودية ولو بأدنى مرتبتها وحسب لياقتها، في غاية البهجة وكمال اللذّة ومنتهى السعادة وأسماها ما يلي:

منها: جنّة المعرفة، وهي من أعلى مراتب الجنان وأكملها، قال

بعض العرفاء المتألّهين: «في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنّة الآخرة ولا إلى شيء، ولم يستوحش أبداً. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله»، ولها مراتب ودرجات تشرق بمقتضى اللياقة والاستعداد، وبها تتمّ كلّ نقصان.

وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معاني الحسن فيه تسارع
يكمل نقصان القبيح جماله فما تم نقصان ولا ثم باشع

ومنها جنّة المقامات التي نالها الأنبياء والأولياء في هذه الدنيا، كمقام الحبيبيّة الذي اختص به نبيّنا الأعظم ﷺ، وهو فائق على جميع المقامات والجنّات، ويحصل هذا المقام باصطفاء النفس وجعلها تحت اختيار المحبوب، بحيث لو لم يكن المحبوب لم يتحقّق الاصطفاء ولم يتشرّف بمقام الحبيبيّة، ويصل إلى منزلة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الفتح، الآية: ١٠]، وقوله ﷺ: «أبيت عند ربّي فيطعمني ربي ويسقيني».

وذكر بعضهم أنّ مقام الخلّة التي نالها إبراهيم عليه السلام يساوي مقام الحبيبيّة من جميع الجوانب، ولكن التأمّل التام وسياق الآيات المباركة يدلّ على أن مقام الاصطفاء والحبيبية فائق على مقام الخلّة بمراتب كثيرة، لأنّ مقام الحبيبية بعد مقام الاصطفاء وجعل النفس تحت اختيار المحبوب بالمرّة ـ كما مرّ ـ ومقام الخلّة لم يصل إلى هذه الدرجة فمقام الاصطفاء يشمل مقام الخلّة وزيادة، بخلاف العكس فلخاتم الأنبياء ـ الذي له مقام الحبيبيّة ـ منزلة عظيمة لم يصل لها أحد من الأنبياء.

ومنها: مقام الخلّة التي اختصت بإبراهيم عليه السلام من بين سائر أنبياء

الله تعالى، وهي منزلة عظمى لا ينالها أحد إلاّ بعد طي مراحل كثيرة منها مرحلة العبودية، والتسليم، والخلوص، وفناء النفس فيه عزّ وجلّ ـ وفي بعض الروايات كان جنّة إبراهيم عليه السلام في هذه الدنيا هي النار بعد السلام ـ. وقد اجتاز إبراهيم عليه السلام هذه المراحل بأحسن وجه حتّى نال جنة الخلّة أيضاً في هذه الدنيا، وخصّه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء عليهم السلام، فعرف بأنه خليل الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٣].

وبعد الإحاطة بما ذكرناه لا نحتاج إلى صرف لفظ الخليل عن ظاهره، لما ذكروه من أنه تعالى منزّه عن المعنى الحقيقي، فإنّ الخلة الحقيقية شيء لا يدركها إلاّ العارف بالله تعالى ومن وصل إلى هذه المرتبة، وسيأتي في الموضع المناسب بيان أنّ الصفات التي تطلق على المخلوقين إذا لم يستلزم من إطلاقها على الله محال، تطلق عليه عزّ وجلّ لكن بالمرتبة الكاملة والمعنى الأتمّ، كالخلّة والحب ونحوهما.

وكيف كان، فقد ظهر فساد ما ذكره بعض النصارى في المقام ـ كما تقدم في البحث الروائي ـ بأنه إذا جاز إطلاق الخليل على إنسان تشريفاً، فلم لم يجز إطلاق الابن على آخر كذلك. فإن إطلاق الخلّة على إنسان لم يكن تشريفاً بل كان حقيقياً ولا يستلزم منه محال، بخلاف إطلاق الابن فإنّه يستلزم الجنسيّة والله تعالى منزّه عنها، لما يترتّب عليها من الفساد فافهم.

ولمقام الخلّة آثار عظيمة، منها: استجابة الدعاء، فإنه ليس معنى الخلّة الحقيقيّة إلا استجابة دعاء الخليل من خليله، وقد كانت دعوات خليل الرحمن التي ذكرها عزّ وجلّ في القرآن الكريم كلها مستجابة.

ومنها: أن الخليل لا يرى لنفسه شيئاً في مقابل مخلوقات الله تعالى وعباده، بل يجعل نفسه مظهراً يرى فيها سائر مخلوقات الله تعالى، ولذا ترى أنّ إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يدعو في دعواته الكريمة إلاّ لأهل الإيمان مطلقاً، كما حكاها عز وجل في كتابه العزيز، قال تعالى: محكياً عنه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤١].

ومنها: ما جعله الله أباً الأنبياء لما له عليه السلام عند الله تعالى شأن عظيم وجاه رفيع.

ومنها: أمر الناس باتّباع ملته عليه السلام، كما تقدم في سورة البقرة.

ومن الجنّات الممنوحة للمؤمنين في هذه الدنيا جنّة المؤانسة بأقسامها ـ مؤانسة ذكر، ومؤانسة قرب، ومؤانسة شهود ـ وتحصل هذه الجنة بالتوجه إليه بالإخلاص والذكر بتمام أقسامها، كما مر في أحد مباحثنا العرفانيّة، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٨]، ولها مراتب ومنازل.

ومنها: جنّة الخشوع، ولا تحصل هذه الجنة إلا من استكمل عنده نعمة الهيبة والمعرفة وفاز بجنّة اللقا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠٧ ـ ١٠٩]، ولها مراتب، فمنها الخضوع والخشية وغيرها.

ومنها: لذّة المناجاة والتملّق عند بابه، فهي من الجنات التي أظهرها الله تعالى في هذه الدنيا ولا يعرفها إلاّ أهلها من الأولياء والصالحين.

ومنها: جنّة الرغبة والرهبة - كما تقدّم البحث عنهما - إلى غير ذلك من الصفات الحسنة التي توجب رقي النفس وراحتها وتصل إلى مرتبة يستوحش صاحبها من الدنيا وأهلها ويأنس بالله تعالى وبأوليائه، كما حصل لهمام عند خطبة الإمام علي عليه السلام، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٢٤] الأعم من الجنة في الآخرة والجنة في الدنيا من الصفات الحسنة والحالات الصالحة التي تختص بالأبرار وتكون مشابهة لحالات المؤمن في جنة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥]، وللبحث مجال واسع، نسأل الله تعالى أن يوفقنا له بعد رفع هذه المصائب التي حلّت بهذه الأمّة بحق محمد وآله الطاهرين[١].

(١) ن.م، ج٩، ص٣٣١ - ٣٣٦.

في لزوم إزالة الحجب لتلقي الفيوضات الإلهية

السلوك إلى الله تعالى له عقبات وحجب لا بد من رفعها وإزالتها لتستعد النفس لتلقي الفيوضات الربوبية وأول درجات السالكين تخلية النفس من رذائل الصفات ومن أهمها الارتداد الذي هو الرجوع من الله إلى النفس البهيمية والركون إلى الشهوات وهو من أهم الحجب الظلمانية التي تطفأ نور العقل الذي به يتغلب على النفس ويرشدها إلى ما فيه سعادتها وكيف لا يكون كذلك فإن فيه جماع رذائل الصفات ففيه حب الذات وإيثارها على خالقها، وفيه ترجيح ما سواه عز وجل وفيه تولي أعداء الله الذين هم حجب ظلمانية وعوائق في طريق الاستكمال، وفيه المبارزة مع الرب بإذلال المؤمن وإعزاز الكافر، وفيه فقدان الطمأنينة في النفس والثقة بالله تعالى وبالآخرة هو حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، ولا ريب أن كل واحد من تلك الأمور هي حجب تستتبع ظلمات بعضها فوق بعض حتى تصل إلى درجة لم يكد يقدر أن يصلح نفسه فيكون بقاء مثل هذا الذنب العظيم مضراً لنفسه، وموجباً لقسوة القلوب والانهماك في الذنوب، والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ولكن لا يشعرون وحينئذ فسدوا وأفسدوا ولا يقوم المجتمع المشتمل منهم بالمهمة التي أرادها الله عز وجل له فإذا لم يرجع عن غفلته ويصلح شأنه

فإن الله يبدله بآخرين لهم نفوس قدسية وحالات انقطاعية إلى الله عز وجل يصلحون لأن يكونوا مرشدين لغيرهم فقد أفنوا ذواتهم الشريفة في حب الله ووصلوا إلى حد اليقين فهم في الله وبالله وإلى الله واستبدلوا بتلك الحجب والظلمات أنواراً أشرقت على نفوسهم فأفيضت منهم على غيرهم فلم يصدر منهم إلا الخير المحض فصاروا أعلاماً لهدايته وأبواباً لرحمته وسبلاً للسالكين إلى مرضاته وأمناء الله على خلقه ومناراً يقتدي بهم الصالحون من خلقه وليس لهم غرض في حياتهم الكريمة إلا إيصال الخلق إلى الله وكيف تأخذهم في الله لومة لائم فهم على خير ولم يصدر منهم إلا الخير عندهم الخلق مظاهر صفاته العليا، فلم يخطر في بالهم إلا الحضور في ساحة قربه ولم يكن لهم شغل شاغل إلا التقرب إليه والطاعة له عز وجل وبالجملة فإنه بقدر عظم الخسران الحاصل من الارتداد والرجوع عنه تعالى تكون السعادة في الفناء والحضور لدى جنابه فإن البديل إنما يقوم مقام ما أراده الله من خلقه واستغني عن المبدل عنه لخلوه عن ما يوجب القرب لديه ـ أعاذنا الله تعالى منه ـ وهذا سر إلهي من أسرار العصيان والطغيان والرجوع عن الله، اللهم ألهمنا التوفيق واملأ قلوبنا حباً لك وشوقاً إليك وارزقنا الجهاد في سبيلك وتصفية نفوسنا من العلائق السيئة كلها، وخلصنا من شوب التعلق بغيرك حتى لا نؤثر إلا رضاك، وهم لم يصلوا إلى هذه الدرجات ولم يحصلوا على تلك الفضائل من الصفات إلا بطي مراحل في سيرهم وسلوكهم إلى الله عز وجل، ففي البداية خليت نفوسهم من الرذائل وآثروا الرجوع إلى الله واستقاموا على ذلك حتى استعدت لتلقي الفيض فأحبهم الله وقربهم إليه وأحبوه فتعلقت به فكانوا مظاهر رحمته كما أحبوا المؤمنين لأنهم من مظاهر رحمته ولكنهم كانوا قهارين على الكفرة الذين طردوا من ساحته

فاتصفوا بصفاته وتفانوا في الصفات ثم لم يرجعوا عن الجهاد والحركة من الصفات إلى الذات فتفانوا في الذات ولم يشغلهم عنها شيء فلم تأخذهم في الله لومة لائم إذاً لا إرادة للمؤمن إلا بما أراده الله تعالى فلا يريد إلا الخير، والبحث نفيس وله تتمة تأتي إن شاء الله تعالى[1].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) ن.م، ج١٢، ص٣٤.

الحجب والموانع من نيل الأسرار الربانية

الحجب والموانع في طريق الوصول إلى معرفة الباري عز وجل كثيرة وهي مختلفة كمية وكيفية فبعضها تتعلق بالقول وبعضها تتعلق بالأعمال والأفعال والجوارح وبعضها تتعلق بالجوانح والقلوب والنيات، لكل واحدة منها آثار وضعية شخصية ونوعية والآيات الشريفة المتقدمة جمعت بين الأقسام الثلاثة فكانت الآثار عظيمة مهولة لم تتعلق بالأفراد فقط بل شملت النوع فقد ورد في ابتداء الآيات المباركة ذلك الحجاب الذي أسدله اليهود على أنفسهم بالتقول على الله تعالى فقد بهتوا بهتاناً عظيماً واقترفوا إثماً كثيراً حيث قالوا (يد الله مغلولة)، وإن كان ذلك لم يصدر عن جميعهم وحتى لو صدر من بعضهم ولم يعتقد بما يقوله فهو إثم عظيم إذ فيه نسبة التجسيم إلى الله عز وجل وإبطال قدرته وقيومته على خلقه ولا أظن أن من يعتقد بالألوهية ينكر ذلك عن إلهه فكيف بالواحد الأحد، ولعظمة هذا القول الأثيم غلت أيديهم واستحقوا الحرمان الأبدي من المعنويات والنعم الإلهية وحرموا إلى يوم القيامة من الفيوضات الربانية والأسرار الإلهية ولعنوا فأبعدوا عن مصدر الرحمة ومنبع كل خير، كل ذلك سبب مقالتهم تلك وقد أكد عز وجل أن هذا القول منهم هو السبب في ذلك، ولا غرو فإن اللسان في الإنسان من

أهم أسباب الحرمان، فقد ورد عن نبينا الأعظم ﷺ وقد سئل عن زلات اللسان فقال: (وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم) والسر في ذلك واضح فإن اللسان مفتاح القلوب والمقال دليل النوايا والسرائر فلا بد أن يكون في سبيل الخير وزمامه بيد العقل لئلا يخرج عن الاستقامة المطلوبة ويحرّم الإنسان عن كل خير فالآية الشريفة ترشد المؤمن إلى هذه الخصيصة المهمة فلا يغفل عن نفسه ولا يصدر منه ما يستوجب البعد والحرمان ولذا كان الأنبياء والحكماء ومن كمل إيمانه لا يتكلم إلا بقدر الضرورة، وبعد التفكر وملاحظة الخصوصيات لئلا يترتب على مقاله أثر سيء، وقد ورد في الدعوات المأثورة الاستعاذة بالله الكريم من زلات اللسان وهفواته، فيجب أن لا يغفل عن عظيم الأثر المترتب على الأقوال وكفى ما في هذه الآيات الشريفة من التنبيه والوعظ وبما ورد فيها من الزواجر والوعد والوعيد.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وأما ما يتعلق بالأعمال والأفعال فهو السعي إلى الفساد فإن من اختل فيه القول وساءت سريرته ونواياه وبعد عن كل خير لا محالة أنه يسعى إلى الفساد وبكمال جهده فقد انسلخ من الصلاح لما عليه من اقتراف الخطايا والآثام وخرج عن ربقة الإنسان الذي أكرمه الله عز وجل وأنعم عليه فجعله هادياً مهدياً إن استمر على فطرته واستقام على الطريقة، وأما إذا عتى عن أمر ربه وطغى في عصيان خالقه وأضل عن سواء السبيل فلم تكن الهداية مبتغاه ولا الطاعة مسعاه لا محالة يكون ضالاً مضلاً فينخرط في الفساد ويسعى فيه، وقد عدّ عز وجل بعض أنواع الفساد الذي هم عليه الذي فيه الظلم على النوع وإفساد النظام وهو إيقاد نار الحرب التي فيها هلاك الحرث والنسل لعظيم مقالهم وأفعالهم

فغلت أيديهم، واستيلاء الحسد على قلوبهم واكتوائهم بنارها فتعدت بنارها تلك النار فأوقدوها في الحرب لإطفاء نور الهداية وطمس الفطرة بإلقاء الشكوك والشبهات ورمي الناس في اللهو والباطل، والحسد الذي هم عليه لم يكن من ذلك الذي يمكن السيطرة عليه ويكبح جماحه فإن الإنسان إذا توغل في الطغيان والكفر ولم يكن يريد ما أنزل الله عز وجل إلا بعداً عن الخير والهداية فانقدح فيه نار العدوان واستقر في القلوب البغضاء والشنان فلم يكن له قلب سليم لينتفع بالمواعظ وينزجر بالزواجر وكل ما ورد في هذه الآية الشريفة فيها من الترتيب الدقيق في التدرج من الأدنى إلى العظيم والأعظم والأدهى والأمر فلا يغفل الإنسان عن نفسه ويتركها من دون رقابة في الأقوال والأفعال ولا يصلح النوايا والسرائر فإذا كان كذلك وأدركته التوفيقات الربانية وهذب نفسه بالإيمان واتقى الموبقات والآثام وعمل بما أنزل الله من الأحكام ومنها الولاية التي وردت في روايات المقام وهي روحها فاستعد لتلقي الفيوضات من مالك الملك والملكوت فمسح عنه أدران الذنوب وأزال حواجب القبول وفاز بالقرب وحلّ في دار الخلد عند مليك مقتدر وأنعم عليه بأنواع النعم فصلح وصلح النظام به، ويستفاد من الآية الشريفة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أن العمل بما علم يورث الفوز بالسعادة الدنيوية والأخروية وإن العمل بما أنزله الله يستدعي صلاح نظام العالم وتدل على ذلك جملة من الشواهد العقلية والنقلية، ففي الحديث عن نبينا الأعظم ﷺ (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) فإن العمل يورث استنزال البركات الإلهية ويستوجب الثبات والرسوخ في العلم، فالآيات الشريفة من جلائل الآيات في السير والسلوك إلى الله عز وجل وقد ابتدأت بسرد بعض

الحجب الظلمانية التي تكدر النفس وتحط من درجاتها السامية ولكنها اختتمت بالتحلية بالفضائل وتزكيتها بالكمالات العلم والعمل وعروجها إلى قوس الصمود فكان ختامها مسكاً وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٢، ص١٥٩.

بعض العادات التي توجب طمس نور الفطرة

الآية الشريفة[1] تحكي عن عادة جاهلية فيها نوع من التصرف في سلطان الله عز وجل وإرادته التشريعية، وقد جمعت تلك العادات الذميمة بين الحماقة والجهل وعدم الاهتداء والاعتماد على هدى صحيح ليسترشد الإنسان به في جميع أعماله وتصرفاته وقد وصف عز وجل القوم الذين كانوا يفعلون تلك الأمور بأوصاف تدل على هبوط منزلتهم، فهم أسراء بين الجهل وعدم التعقل لما هم فيه وما تتطلبه إنسانيتهم والتقليد المميت لفطرتهم والمموه لعقولهم فصاروا كالأنعام لا يدركون ما يفعلون في أمثالهم، فطوراً يسيبونها تائهة وأخرى يجعلونها وصيلة وثالثة تكون حامية ورابعة تكون بحيرة، وهذه كلها صفات ذميمة ترجع إلى تقييد النفس التي شرفها الله بكرامته وحباها من عظيم لطفه فإذا جعلت النفس إلى أدنى مستوى لها في الكمال بحيث لا تسمع إلا المخالفات بشق أذنها لها سابت في مراتع الشهوات من دون أن ترى عليها رقيباً وسرحت في الالتذاذ بالمخالفات وركنت إلى الدنيا فقطعت كل آمالها عن الكمالات وتمنت المزيد من المعاصي والآثام ووصلت بعضها ببعض

---

(١) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فسوفت التوبة والاستغفار والتهيؤ للاستكمال فلا يكون لها حام يحميها من المزال فوسوس لها الشيطان وألقى الشبهة بأنه لا معنى للمجاهدات والعمل بالشريعة الغراء واعتمدت على التقليد فلا اهتدوا لعدم تعقلهم ولا اعتمدوا على ركن وثيق فإن كانت هذه عادة جاهلية واحدة كانت في الأنعام وقد أثرت في النفس التي أراد لها الله عز وجل الكمال والوصول إلى مقام الأنس فما بالك في سائر العادات المهلكة وقد حذر الله عز وجل تلك لعظيم أثرها في النفس والحظ من منزلتها ويكفي النداء الربوبي لهم بأنهم لا يعقلون وتوصيف آباءهم بأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون فإن درك الحقيقة والرجوع إلى النفس التي على قدر معرفتها تكون معرفة الباري عز وجل يحتاج إلى هذين الأمرين العلم والاهتداء والتعقل لما يفعله وفهم ما يلقى عليه وهما الركيزتان اللتان يعتمد عليهما السالك والعارف وبدونها لا يمكن الوصول إلى الحقيقة مهما حاول فإنه يضيع العمر في طلب المحال[1].

(١) ن.م، ج١٢، ص٥٢١.

نعمة الامتحان والابتلاء

نعم الله تعالى على العبد كثيرة لا تعد ولا تحصى منها التكاليف الشرعية التي هي من الكمالات الإنسانية بحد نفسها ومنها الامتحانات الإلهية والابتلاءات الربانية التي تصقل جوهر النفس وتكشف عن حقيقتها فإنه عند الابتلاء يكرم المرء أو يهان وليست أثقالاً عليها لتئن تحت وطأتها كما يزعم بعض من لا بصيرة له، فإن أمر النفس غريب وهي صعبة المرام لا تسلس لقائدها بسهولة فلا بد من زجرها آناً بعد آن، فلو خليت وطبعها خرجت عن قيادة صاحبها وتخبطت خبط عشواء وأوردته المهالك العظام، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) لأن العدو إذا أكرمته خضع ونسي ما كان عليه من العداوة فصار كأنه ولي حميم بخلاف النفس فكلما أكرمتها تمردت وخرجت عن الطاعة وتمادت في الطغيان فلا بد من زجرها بالزواجر ودوام مراقبتها وتسلم زمامها ولا يمكن للإنسان وحده أن يقوم بهذه المهمة الصعبة والعسيرة جداً لكنها ليست بالمستحيلة لئلا يلزم محذور الجبر الذي ينادي به بعض من لا خبرة له بل هو وسيلة من أعرض عن الكمالات وانهمك في الرذائل والطغيان، ولقد قامت الشرائع الإلهية خير قيام بتذليل الصعاب للإنسان فسنت قواعداً وأحكاماً لجميع مجالات

الحياة التي تحنوا إليها النفس وترغب فيها وتزيد في طغيانها فكانت من أعظم النعم الإلهية، ولما لم يكن أفراد الناس على وتيرة واحدة فأتم عز وجل تلك النعم بالابتلاءات التي هي من أهم الزواجر والذواكر للنفس الطامحة إلى التبطر في العيش والتمني في البقاء اللذين هما من أهم الموبقات المهلكات ومن ذلك يعلم أن الابتلاء سُنَّةٌ من السنين الإلهية التي يرجع خيرها إلى الإنسان نفسه، وقد ورد في الحديث (لم يستكمل إيمان العبد حتى يعلم أن الابتلاء نعمة من ربه).

وقد ذكر عز وجل في الابتلاء الذي له من الأهمية بمكان ويكشف عن ذلك عظمة البيت الحرام وشرفه الكبير وأهميته في التقرب إلى الله تعالى، فالمكان والزمان والحال كله من الحرام لتحصل حالة الانقطاع وتتجرد النفس عن علاقتها المادية وتحشر إلى الله، وفي الآيات إشارات لأصحاب السير والسلوك ومن يهتم بترويض النفس ومن يريد معرفتها والطالب للحقيقة والرجوع إلى خالقها، فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه، فإن أول قدم يضعه في هذا المقام الإحرام عن زخارف الدنيا وزبرجها ومنع النفس عنها، فإنه مما لا بد منه في هذا المجال ذي المسلك الصعب فإن خلع النفس من الموانع وأبعادها عن الغفلة والركون إلى الدنيا أمر مهم لا يمكن التغاضي عنه، فإذا أراد شخص السير إلى محال قدسه والإحرام لزيارة كعبة الوصول فإنه يبتلى لا محالة بالمقاصد النفسانية والصيود الشيطانية فإن على قدر عظمة القصد والغاية تكون ابتلاءات المسير، وهذه إما أن تكون كامنة في نفس الإنسان مما تناله الأيدي أو هي من الأمور المادية المحيطة به مما تناله الرماح القاتلة وقد اتفقا على الصد من تكميل النفس بالكمالات والوقوف أمام مسيرها

الاستكمالي وسلوك الطريق المستقيم فلا بد من اجتياز تلك الابتلاءات وزجر النفس عن الاقتراب إلى ما يوجب التنزل إلى الدركات حتى يصل إلى درجة الشهود ويظهر الغيب المشهود ويكون على خوف شديد مما يجري حوله مما يوجب الصد عن ذكر الله تعالى والغفلة عن النفس وخالقها، وللخوف آثار عجيبة في تهذيبها ولولاه لما أمكن الوصول إلى دار الحبيب والتزود بلقياه، وهو كامن في كل فرد لكن الحجب التي يصنعها الإنسان من أفعاله وعقائده تكون مانعة من تأثيره فيخلد إلى الأرض وينسى آيات ربه ويصدر ما يصدر منه من الموبقات، ومن هنا يظهر سر قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ﴾ فإن الخوف يستتبع الخشية والهيبة في الحضور وتتجلى الذات وتنصقل النفس وتذوب في الصفات، فما أشد تأثير الخوف في مقام السير والسلوك ولذا ترى أن الأنبياء العظام والأولياء الكرام كانوا على خوف شديد من جميع الجهات، من النفس التي قد تنبو وتبطل جميع الأعمال والمجاهدات التي مضت عليها برهة من عمرهم، ومن الدنيا التي تكون فاتنة خداعة تأتي لحظة يفتتن بها فيخرج عن طور العبودية، ومن الأولاد والأموال التي قال عنها عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فإذا ذهب الخوف ابتلى بعذاب الحرمان وبعد عن ساحة الرحمن وبقي في ذل الاحتجاب والهوان وأما إذا تحقق وانتشر على الأعضاء والجوارح حصلت الهيبة والخشية ممن يعلم الغيب وتهيأ لقنص الكمالات واستعد لنيل المقامات فيحرم عليه قتل ذلك الصيد في حال التهيؤ إلى الملاقاة ونيل الدرجات بالإحرام الحقيقي والابتعاد عن الرذائل والسيئات فكيف يصح في حكم العقل قتل مثل هذا الصيد حينئذ وهو الذي تهيأ من طول المجاهدة وذاق مرارة الحرمان طوراً من الزمان وذاب فؤاده من طول الهجران فإذا مشى قاصداً

لارتكاب الحظوظ النفسانية وإعطاء النفس هواها فلا بد زجرها وقهر تلك القوة التي ارتكب بها في قتل هذا الصيد من قوى النفس البهيمية بجزاء معين هو مثل ما قتل الذي يتعين بالرجوع إلى من يحكم بذلك ممن وصل إلى درجة اللقاء واجتاز تلك الحجب وعرف كيفية الوصول وأذن له بإرشاد من يريد السلوك من عينه الحبيب على بابه حاجياً فيقدم له الهدي ويتوب إلى الله مما ارتكبه فيفني نفسه حق الفناء ويسترد تلك القوى البهيمية بالصدقة والصيام لترويضها على القيام بما يريد الله عز وجل، ولو عاد إلى ما نهي عنه فينتقم الله تعالى منه بإقصائه عن تلك الدرجات وإبعاده عن قربه فيضل حيران تهوى به الريح إلى مكان سحيق فكيف يمكنه الرجوع إلى حمى الحبيب حينئذٍ.

ولكن ليعلم أنه لا يمكن السير والسلوك إلا بعد التزود بالمعرفة والعلوم الحقيقية والمعلم الذي يرشد الإنسان إلى طرق استكماله ومن ذلك يعرف أهمية أهل الذكر في الرجوع إليهم وقد أحل الله تعالى له صيد البحر ونيل المعارف والرجوع إلى عالم الحقيقة والتزود من بركاته لمن أراد السفر إلى الله تعالى ولكنه محروم والحالة هذه من العلوم المادية التي هي صيد البر التي تبعد الإنسان عن خالقه العظيم المنان الذي هو مقصد كل عارف مفتون وسالك مجذوب ولا بد من المراقبة ودوام التقوى في هذا السفر المضني المبارك الذي به يتم الحشر إليه عز وجل أخيراً ويتم البقاء، فلا بد من الاجتهاد في السلوك وطي المراحل وإزالة الموانع والوقوف عند من جعله الله قياماً للعباد والتزود بمظهر جلاله وكبريائه فيتجلى عز وجل له بقدر ما حصل له من الاستعداد وما فني من نفسه من الأغيار حتى يصل إلى درجة لا يمكن أن ينالها إلا

الصِدّيقون المقربون فيحصل فيه الفناء وتموت في أنفسهم جميع الأغيار ويتحقق الموت الحقيقي ولكن في زمن خاص وهو الشهر الحرام الذي يحرم فيه الالتفات إلى مقتضيات النفس وتنعدم فيه صفاتها ويستعد لنيل الواردات التي ترد القلب وما يحصل له من التجلي والفناء التي بمنزلة الهدى وتقاد إلى مولاها التي هي القلائد لانقيادها إلى بارئها وأما صاحبها فهو وانِ فني في الحب من دون غفلة بل من صعقة الشهود إلا أنه لا يغيب عن بارئها وخالقها فإنه يعلم ما في السموات وما في الأرض وإن الله بكل شيء عليم وأن علمه محيط بكل شيء يعلم ما تصبوا إليه النفوس ومقدار زكاتها واستعدادها وسيرها وسلوكها والتفاتها ويعطي كل واحد بمقدار استعداده وقابليته، والآيات الشريفة وإن وردت في إحرام الحج والسفر إلى الكعبة بيت الله الحرام وقد بين عز وجل فيها ما هو المطلوب في الاستعداد لهذا السفر المبارك بهذا الميدان المادي فما بالك بالسفر المعنوي الحاصل من انتقال النفس من عالم المادة إلى العالم الذي كان مأنوساً فيه فإن الطريق المسلوك فيه أطول وأشد وعورة وأعظم امتحاناً وابتلاءً لعظم المقصود فيه رزقنا الله تعالى التوفيق والهداية[1].

(١) ن.م، ج١٢، ص٤٥٩.

مهلكات النفس وما يوجب الاطمئنان

الآيات الشريفة المتقدمة(١) تبين مظاهر سخط الله تعالى وموجبات لعنه وعذابه لأنها من عمل الشيطان الذي هو مصدر الغواية والضلال وقد بين عز وجل ما يترتب عليها من الآثار الوصفية التي تعتبر من مهلكات النفس وانحطاطها إلى أدنى الدرجات، وكيف لا تكون كذلك وهي التي تصدر عن ذكر الله تعالى الذي تطمئن به قلوب المؤمنين بل هو أمل العارفين والروح الذي يضفي للموجودات بهاء وعظمة ربه حياتها، فلا يستغني السالك إلى الله تعالى عنه وأن الصد عنه يوجب هلاكه لأن فيهم البعد عن ساحة جلاله، كما أن تلك المهلكات توجب المنع عن الصلاة التي هي قرة عين الأنبياء والمرسلين أو معراج الأولياء والصالحين وفيها سمو الروح واتصالها برب العالمين وفناؤها فيه، فلا يكون الصاد عنها إلا عدو استكلب على الإنسان ليحرمه عن ملاقاة الحبيب والالتذاذ بمناجاته وتكميل النفس بملاقاته وإبعادها بالغفلة التي تحط الإنسان عن

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قدرة وتمسخ قلبه، ولعل في إتيان الذكر ثم الصلاة لبيان درجات العارفين ومقامات السالكين فبعضهم اقتصر على ذكر الله تعالى الذي هو روح الموجودات وبه حياتها والبعض الآخر تعدى عن ذلك ووضع قدمه في ديار الحبيب وتمنى ملاقاته والحضور لدى جنابه، وكلا المقامين لا بد له من الحب الإلهي ليحق له الدخول في هذا السلك، فإذا كان الخمر والميسر يسلبان الحب مكن بين القلوب ويبدلانه بالعداوة والبغضاء فينشغل القلب بنيرانها وينغفل عن ساحته القرب وتحليته بالكمالات كيف لا يترتب عليه الصد عن ذكر الله تعالى فيكون ترتب الصد على العداوة والبغضاء من ترتب المقتضى على المقتضي، هذا في سكر الخمر وثمالتها والميسر الذي يلهي عن ذكر الله، فما بالك بسكر الدنيا الناشيء من حبها الذي هو من أمراض النفس الخطيرة فيسلب لب الإنسان ويفقده صوابه ولحب الدنيا وسكرها مظاهر كثيرة، فقد يحصل من المال أو الجاه والرياسة، وقد يدخل في أمور دقيقة عند السالكين والعارفين وقد يغفل عنها فتظهر على نواياه أو أقواله وأفعاله فإن لم يعالجها يرجعه إلى أسفل السافلين، ولذا كان الأنبياء والمرسلون يتعوذون بالله منهما ويتوبون ويستغفرون الله مما قد يصدر منهم في أطوار حياتهم المعنوية فإن الأمر دقيق جداً والإنسان في اختبار وامتحان مستمرين، وكانت سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام في تعاملهم مع الدنيا على حذر شديد وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «والله لقد نزلت الدنيا عندي منزلة الميتة متى اضطررت إليها أكلت» فإن جمالها الفاتن يخلب القلوب ويصد السالك المجذوب.

وقد نقل عن بعض العرفاء في حق منه كان مشغولاً بنفسه وزاهداً

عن الدنيا ومفاتنها مدة طويلة لما عرضت عليه القضاء فقبلها قال: إنه كان يضمر حب الدنيا مدة أربعين سنة وهو صحيح فإنه يبقى في مكنون النفس مدة طويلة ويكون صاحبها مشغولاً في جهة أخرى.

ولعل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إشارة إلى هذا الأمر الدقيق فلا بد من التقوى والرجوع إلى الإيمان دوماً والشدة في ذلك بدوام المراقبة أوانه إرشاد إلى مراتب الإيمان ومنازل المؤمنين وليعرف كل واحد منهم منزلته فيقوم بها على الوجه المطلوب ليمكنه التجاوز إلى منزلة أخرى كما ورد عن الصادق عليه السلام (الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه ومنه الزائد رجحانه).

ولا تكون منازل الدرجات إلا لأجل اختلاف المؤمنين في الاستعداد لتلقي الفيوضات الإلهية الناشىء من تفاوتهم في الأعمال وصفاء النفس وبعدهم وقربهم من معدن العظمة والكبرياء، وفي الخبر (أن التقوى على ثلاثة أوجه، تقوى في الله وهي ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهي تقوى خاص الخاص وتقوى من الله وهي ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهي تقوى الخاص وتقوى من الله وهي ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهي تقوى الخاص وتقوى من خوف النار والعقاب وهي ترك الحرام وهي التقوى العام، ومثل التقوى كماء يجري في النهر ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوي كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر من كل لون وجنس وكل شجر منها يمتص الماء من ذلك النهر على قدر جوهره وطبعه ولطافته وكثافته ثم منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها، قال الله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ فالتقوى لطاعات كالماء للأشجار، ومثل طبائع الأشجار في لونها وطعمها مثل مقادير الإيمان، فيكون التغيير والاختلاف يرجع إلى شيء مستور عن الناس مع كون المادة واحدة ويدل عليه قوله ﷺ (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) مع كون مادة الناس ومحل تكوينهم إنما هو المني والرحم وكذلك سائر المخلوقات من الجماد والنبات والملائكة، فإن منشأ تكوينهم شيء واحد مع الاختلاف العظيم فيما بينهم، فالآية المباركة من جلائل الآيات التي يستفاد منها أبواب كثيرة في العلم والعمل والتقوى وفيها إشادات لطيفة ودقائق ربانية لذوي البصائر في مقاماتهم الرفيعة ليكونوا على حذر مما يوجب صدهم عن ما فيه حياتهم بالآخرة وهلاكهم، كما أنها ترشدهم إلى التزود بالتقوى وبقائهم على مراقبة تامة وتطميعهم في مثل الدرجات العالية والمقامات الرفيعة فيا لها من آية عظيمة في السير والسلوك فلا تغفل عنها والله المستعان[1].

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٤١٧.

علم التوحيد وعلم الفقه

الآيات الشريفة المتقدمة[١] وإن كانت في بيان بعض الأحكام الفرعية العملية التي هي من الكمالات الإنسانية والعمل بها يوجب الاستعداد والتهيؤ لتلقي الفيوضات الربانية وتصفية النفس من الكدورات والرذائل المعنوية والظاهرية إلا أنها تهدف إلى إعداد المؤمن علمياً وعملياً وجعله في سيره الاستكمالي حتى بعد الموت فإن الأحكام الإلهية العملية التي هي محدودة بحياة الإنسان المكلف وتنقطع بعد الموت ولكن الذي يفيد بعد ذلك صفاء النفس وكمالها ونورها التي اكتسبها الإنسان من جهده العملي في دار التكليف وفق الشريعة الإلهية. وبالآخرة أن علم الفقه والتكليف إنما ظرفها هذه الحياة الفانية الذي يفيد بعدها علم التوحيد المكتسب من المجاهدات والسير إلى الله تعالى وأهم موجبات السلوك في هذا الطريق هو تطبيق الأعمال مع الشريعة والعمل بالتكاليف الربانية وبدونها إنما هو سراب بقيعه قد يراها الضمان ماءً،

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

فقد يستنشق الريح الطيب ويرشف من الماء الزلال لكن سرعان ما ينقطع ويرجع إلى الله، فإن لم يقدم ذلك العلم النافع الذي يدرجه في مقامات السالكين العالية يكون حائراً فلا بد من الإيمان والعمل على وفقه ولذا ترى أن الآيات الشريفة الواردة في بيان الأحكام لا تخلو من الإشارات والرموز التي لا يفهمها إلا أهله ليدرك الإنسان مدى أهمية العلمين والطريقين، فإن أحدهما مكمل للآخر ويكفي تصدير تلك الآيات بالخطاب الربوبي المشتمل على كمال العناية والمحبة التي بدونها لا يمكن السير والسلوك وهو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإن الإيمان هو الحبل الذي يشد الإنسان بخالقه ويربطه ببقية الموجودات وفيه من سمو المعنى ما لا يمكن أن يوجد في أي مقولة أخرى وفيه ذلك الارتباط الوثيق بين المحبوب وحبيبه فلا يخفى على أهل المعنى ومن سبر هذا الغور العميق أن الحب هو أساس الشد والربط في هذا المجال وأن العشق الإلهي هو الغاية التي يصبو إليها السالكون والسائرون إلى الله، وعلم الشريعة يبين هذا العشق الدفين في كل شيء ويزكيه وينميه حتى تستوعب جميع المشاعر والأعمال فلا تخلو منها لأنه من الذكر والعمل والتفكر حتى يصير كالمتيم الواله الذي لا شغل له إلا الوصول إلى محبوبه والارتشاف من وجوده ورؤيته، ولذلك مقامات متعددة ولسنا في مقام بيان هذا الجانب ولكن المراد أهمية علم الشريعة بالنسبة إلى علم التوحيد الذي هو الغاية من جميع العلوم والنافع في جميع العوالم لا سيما بعد الموت بعد انقطاع الأعمال، وبه يبقى الفرد حياً وإن غاب شخصه، ولم يخطر ببال أحد فمن سار في هذا الطريق يكون الفناء والموت قنطرة يعبر بها من عالم المادة إلى عالم الأشباح والأظلة ثم إلى العوالم الأخرى حسب درجاتهم ومجاهداتهم في دار الدنيا والتكاليف والعناء ولعل قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ إرشاد إلى ما ذكرنا، فإذا كان الفرد مؤمناً وأراد السير إلى الله والوصول إلى قربه فلا يمكن أن يكون إلا بالعبور على هذه القنطرة مع الزاد والراحلة اللذين هما العمل والشريعة الغراء وعدم تحريم ما بينه الله من التكاليف التي هي من الطيبات التي بالعمل بها يجعل الإنسان طيباً فتطيب بها نفسه وعمله وقلبه ونواياه فتشير الآية الكريمة إلى توبيخ هذا الإنسان الغافل الذي يريد الطيبات بمقتضى فطرته، ولكنه لا يعرف أن الطيبات كامنة في التعاليم الربانية والتكاليف الإلهية التي يحل نفسه بها عن قيود النفس الأمارة والملكات السيئة، فتحريم نفسه منها يكون من الاعتداء الشديد الممقوت عند رب العالمين.

فيجب العلم بالشريعة والأكل من طيباتها ومعرفة خصوصياتها وتعلم المعارف الحقة وما يقوى القلب والنفس في سلوكه إلى الله عز وجل ليكون على بينة من التقوى التي هي العروة الوثقى والحبل الذي يجب الاعتصام به فلا يجوز التقصير في درك المقامات العالية التي يدعو إليها الإيمان بالله ويجذبكم إليها الحب الذي حصل من الإيمان به عز وجل ولا يصح التراجع عن تلك الدرجات فإنه اعتداء على النفس التي تصبو إلى الارتقاء من الداني إلى العالي ولا ينبغي الحلف على ترك المقاصد العلية وطلب الدرجات العالية من دون السير والسلوك فإنه لغو في شريعة الرضا والتسليم لكن لا يؤاخذه الله لعله لضعف حاله وقلة حيلته ولكن إذا عزم وجد في التراجع وحلف على الهجران وعدم الاغتراف من المعارف الحقة وما يناله من الشهود لدى جلاله لكلالة القوى، وصمم على الخذلان لغلبة سلطان الهوى فلا بد له من الكفارة

ليتمكن من إزالة الحجب وهي إطعام عشرة مساكين وهم الحالون على باب الرجاء والمريدين للبقاء بعد إفناء ذواتهم في الكمالات أو إطعام حواسه الباطنة والظاهرة بالمعارف والكمالات المناسبة لها أو كسوتها لباس التقوى أو تحرير رقبة النفس من المهالك ويحررها عن عبودية الحرص والهوى فمن لم يستطع لعظيم أمرها فصيام ثلاثة أيام بالتوبة والاستغفار والاستقامة عليها ما دامت الدنيا لأنها ثلاثة أيام، يوم مضى ويوم أنت فيه ويوم لا يعلم ما يقضي فيه الرب، ويعزم فيها على الرجوع إلى الله تعالى والاعتكاف لدى جنابه فإنه المأمول لقضاء الحاجات والمقصود لجميع الخلائق[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٢، ص٣٧٤.

التوحيد وحقيقته وأدلته

التوحيد سر من الأسرار الإلهية تجلى به الله على مخلوقاته فأقر به الخلائق قبل الخلق يطلبه الملائكة المقربون وتهفوا إليه أفئدة المخلوقين، دعا إليه الأنبياء والمرسلون تتجلى عظمته في أنه أهم صفات الله تعالى إذ له ارتباط بين الخالق والمخلوق وهو آنس شيء للنفس الإنساني والأقرب إلى القلوب تتفانى فيه الروح وتنجذب إليه النفوس وتحن إلى معرفته العقول، وعلى مراتب عرفانه تتصاعد النفوس إلى الملكوت الأعلى ودرجات القرب لدى جنابه عز وجل فما أعظمها مسألة!! وما أشد تعلقها بالإنسان في جميع شؤونه وعوالمه؟! تتجسد فيه جميع الكمالات الواقعية، وتذوب فيه كل المطالب والغايات، ولعل السر في ذلك أنه أودع في الفطرة وأخذ عليه الميثاق وهو من لوازم حب المخلوق لخالقه بل المخلوقات كلها مظاهر توحيده وصفاته العليا وأسمائه الحسنى، فما أعذبه على النفوس؟! وما أخلبه للقلوب؟! هام فيه المحبون ليدركوا ما أملوه فازدادوا حباً وطلبه العارفون فانجذبوا إليه وانمحت ذواتهم وانصاعت لديه أفئدة السالكين فخلب لبّهم لما شاهدوه من الآثار العظام، ومع ذلك لم يصل أحد إلى كنه حقيقته إلا ما أدركوه من الآثار والتجليات فصار محور الدراسات والنقض والإبرام، والوجه

في ذلك يكمن في أنهم خلقوا على اختلاف في الفكر شدة وضعفاً وتفاوت في الإدراك زيادة ونقصاناً، فكان ذلك سبباً في اختلافهم في الفهم والتعقل لهذه الجوهرة الفريدة، ثم الإنس بالمادة والابتعاد عن المعين الصافي مما أوجب الانحراف والخروج عن الاستقامة التي كانت الفطرة تدعوا إليها، واشتد ذلك بمرور الزمن حتى تحقق الهجران فازدادوا في الاختلاف فكان ما كان من الشرك وعبادة الأوثان وتأليه ما لم يقر به العقل والبرهان.

فما أقسى هذا الإنسان وما أشد مكابرته وعناده للحق؟!! كيف وصل إلى هذا الحد من الخسران حيث أبعد نفسه من منبع الخير والرضوان؟!! فصار التوحيد من أقدم المسائل وأبعدها غوراً في التعمق والتحقيق وأصعبها فهماً وتصوراً، وقد ظهر في صور مختلفة ومر بمراحل متعددة فطوراً يظهر بأبسط الصور المودعة في الفطرة الإنسانية بإلهامها الخفي، وآخر في كلمات الحكماء المتألهين والعرفاء الشامخين وما وصل إليه أفهامهم إلى نوع من التوحيد، وطوراً ثالثاً في أفكار آحاد الإنسان مع ما هم عليه من الاختلاف العظيم ـ كما عرفت ـ وإن كان لهم شيء من الاتفاق على ما تمليه الفطرة عليهم من التوحيد ولكنها طمست لسوء الأفهام وكثرة المعاصي والآثام حتى جعلوا الأوثان والأصنام قرناء لله تعالى وأثبتوا لها بعض الصفات، وهكذا كانت هذه المسألة أسيرة الاختلاف ولكنها لم تمح من صفحة الوجود بمقتضى نور الفطرة المودع في كل أفراد الإنسان وجعلته الشرائع الإلهية لها المكانة العليا في معارفها وعلومها وأحكامها حتى بلغت أوج كمالها في القرآن الكريم الذي بين حقيقته وسائر خصوصياته بأحسن وجه وأتم بيان،

وأوضحت معالمه وأركانه أقوال المعصومين لا سيما الإمام سيد العرفاء وإمام الموحدين وأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام وهذا الذي ذكرناه مما شهد به تاريخ العلم والإنسان وقرره محكم القرآن، كما صرح به عز وجل في قوله تعالى: ﴿يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩)، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الذي يدل على وجود الاختلاف والعناد واللجاج في البشر، فقالوا بالتشريك الذي هو خلاف المركوز في الفطرة التي تهدي إلى التوحيد، وأن للعالم صانعاً لا يشبهه شيء من مصنوعاته ومخلوقاته، وقد كان الناس على هذه الفطرة المستقيمة تهتدي بهداها وتستضيء بنورها، وكانوا أمة واحدة كما قال عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لا اختلاف في عقيدتها وسلوكها ودعوتها إلى الواحد العظيم، إلا أن هذه الوحدة لم تبق على صورتها الحقيقية، فقد فسرها الإنسان بتفاسير متعددة بعد شيوع شبه الملحدين وتشكيك المشككين فحصل التفرق والاختلاف فبعث الله الأنبياء والمرسلين لإحياء الفطرة وبعثها من جديد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام (ليثيروا لهم دفائن العقول).

ويستفاد من القرائن الكثيرة أن أقدم الشبهات ما قيل في عبادة الأوثان من أنها مبنية على أساس التوحيد وإثبات الشفعاء لديه، قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ فكان ذلك بداية الانحراف عن التوحيد الحقيقي حتى آل الأمر إلى إعطاء الأصالة والاستقلال لكل ما اتخذ إلهاً من دون الله، وكانت الشكوك والشبه والاعتراضات لها الأثر الكبير في خفاء معنى التوحيد وقد عرفت أن لها أسباباً عديدة، وإذا

دعت الفطرة إلى الرجوع إلى الوحدة الحقة ولكن الإنس بالمادة وأن أول ما يبتلى به الفرد في حياته اليومية هو الوحدة العددية فصار ذلك سبيلاً في تفسير التوحيد الذي تدعو إليه الفطرة بالوحدة العددية.

فظهور الثنوية وتعدد الآلهة ثم ابتلاء المؤمنين بالتوحيد الحقيقي بهؤلاء وقيام الصراع بينهم مما أوجب الغفلة عن حكم الفطرة واشتد ذلك حتى ما رجعت كلمات الفلاسفة والعلماء وفي تفسير التوحيد إلى الوحدة العددية فأضافت الشبهات وكثرت التأويلات حتى لم يبق توحيداً سالماً من شائبة الشرك إذ ربما يكون الشرك خفياً لم يتنبه إليه الفرد المؤمن فضلاً عن غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ حتى سطع نور الإسلام ونزل القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقة الحقيقية فأخرجت التوحيد من تلك الشبهات والأباطيل وظهرت بصورتها الحقيقية ولكن آل الأمر إلى علماء الكلام ووقعوا في نفس الخلاف القديم ودخلوا في متاهات هم في غنى عنها لولا رجوعهم إلى معادن الوحي وأعدال القرآن في تفسير تلك الحقيقة القرآنية وبيانها وحينئذ كان اللازم هو الرجوع إلى القرآن الكريم وما ورد في كلمات الأئمة المعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) في تفسير الوحدانية الكبرى والتوحيد الحقيقي ليسلم من كل شرك خفي وجلي ولا تحتاج إلى كلمات الحكماء المتألهين والفلاسفة الشامخين فإنها إن اشتملت على شيء قويم فهو مأخوذ من كلمات المعصومين فذكرها يكون من التطويل.

معنى التوحيد

تطلق الوحدة على معان متعددة يجمعها الانفراد، والواحد هو كون

الشيء مبدأ للتكثر، وهي تارة تكون محدودة وأخرى غير محدودة ولما كانت الوحدة على دقة في المعنى وصعوبة في الفهم فلا بأس بذكر القسمين، أما الوحدة المحدودة فهي إما أن تكون في الجنس، أو النوع، أو يكون واحداً بالاتصال من حيث الخلقة أو يكون من حيث الصناعة، أو يكون واحداً لعدم نظيره.

أما في الخلقة كقولك الشمس واحدة، أو في الفضيلة كقولنا واحد دهره ونسيج وحده، أو يكون واحداً لامتناع التجزي فيه إما لصغره كالهباء أو لشأن آخر أو يكون مبدءاً للعدد كقولك واحد، اثنان، وأما مبدءاً الحظ كالقول النقطة الواحدة.

ويمكن درج بعضها في بعض فتقل الأقسام وجميعها محدودة ومن صفات المادة فإن الكل تشترك في كون الشيء مبدءاً للكثرة، وهو الذي تلحقه النسب والإضافات كما أشار إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام (أن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل... فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز له لا يدخل في باب الأعداد أما ترى أنه كفر من قال أنه ثالث ثلاثة وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فقط ما لا يجوز لأنه تشبيه، وجل ربنا تعالى عن ذلك.

ولا يمكن أن تعرض على الله تعالى الذي هو منزه عنها فإن الوحدة فيه عز وجل تكون بلا تأويل فهو الواحد الذي لا يصحالتجزي والتكثر عليه من جميع الجهات بخلاف غيره عز وجل، فإن الوحدة فيها باعتبار أمر ما والمقصود الشائع من أقسام الوحدة التي يقع الحس عليها مباشرة

هذا المعنى للوحدة، ولهذا ترى أنهم إذا أطلقوا الواحد على الإله فلا يخرج عن هذا النوع من الوحدة لشدة أنسهم به فيثبتون الله تعالى من صفة الوحدة مثل ما يصنعون به سائر ما اتخذوه إلهاً وهي الوحدة العددية قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ (ص: ٤ ـ ٦).

وإنما عجبوا لأجل عدم تمكنهم من إبعاد الوحدة العددية من أذهانهم وإذا قرع سمعهم الدعوة إلى التوحيد كانوا يتلقونها دعوة إلى الوحدة العددية التي تقابل الكثرة العددية، كما في جميع الآيات التي تدعو إلى نبذ التفرق في اتخاذ الآلهة والتوجه إلى الواحد الأحد كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (البقرة: ١٦٣). والحاصل مما ذكرناه أن الوحدة على قسمين، فإما أن تكون وحدة مبدء للكثرة ومنها الوحدة العددية وهي الشائع من أقسامها. وأما أن تكون وحدة حقيقية وهي عبارة عن كون الموجود لا يقبل التكثر، والفرد الذي لم يزل وحده لم يكن معه آخر وهذا هو المراد من قول أبي جعفر الجواد عليه السلام بعدما سئل معنى الوحدة (إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ (الزخرف: ٩)، ولصعوبة هذه الوحدة قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ (الزمر: ٤٥). والقرآن الكريم ينفي جميع أنحاء الوحدة عنه عز وجل، سواء كانت وحدة عددية أو وحدة نوعية أو جنسية أو أية وحدة كلية مضافة إلى كثرة فإن جميعها مقهورة بالحد والنسب والإضافات والله تعالى هو المنزه عنها

ولا يقهره شيء فليس بمحدود في شيء يرجع إليه، فهو موجود لا يشوبه عدم، وحق لا يعرضه بطلان، وهو الحي الذي لا يخالطه موت، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والعليم الذي لا يدب إليه جهل، والعزيز الذي لا ذل له، وقد جمع عز وجل النوعين من الوحدة في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨)، ولأجل ذلك كله صارت الوحدة أم الأسماء الحسنى والصفات العليا، كما ستعرف إن شاء الله تعالى.

ويمكن تعريف التوحيد حينئذ بأنه عبارة عن كون الموجود له من صفات الكمال والتناهي عن الجلال بحيث لا يمكن أن يحده حد، ولا يصح فرض ثان له أبداً فهو الحق الصرف الذي يملك كل شيء وغيره الباطل الذي لا يملك لنفسه شيئاً.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

التوحيد قبل الإسلام

عرفت أن التوحيد بالمعنى الذي ذكرناه لم يكن متحققاً عند آحاد أفراد الإنسان قبل نزول القرآن إلا ما كان عند الأنبياء والمرسلين والمؤمنين بهم حق الإيمان الذين دعوا إلى التوحيد في العبادة ونفي الشريك، وأما غيرهم فإن أقصى مراتب التوحيد عندهم هي الوحدة العددية التي عرفت أنها المأنوس عندهم والتي يمكن أن تتصور في أذهانهم بعدما كانت الفطرة تدعوهم إلى الوحدة والتوحيد في الإله، إلا أن هذا النوع من التوحيد لم يسلم من شوائب الشرك لأجل أسباب عديدة ذكرنا بعضها في ما تقدم، فدخلت الثنوية في العقيدة فأثبتوا تعدد الإله، ولا تخلو الأقوام القديمة من آلهة متعددة جعلوها رب الأنواع

فاعتقدوا للريح إلهاً وللسماء إلهاً وللأرض إلهاً وللجمال إلهاً وللزواج إلهاً إلى غير ذلك من الآلهة، وقد يقع الصراع بين تلك الآلهة فتغضب ويحدث سفك الدماء في الأرض، ومارسوا طقوساً معينة لإرضائها، وقد يحدث الزواج بين إلهين إلى غير ذلك من الخرافات التي نقل لنا التاريخ قسماً منها وما تزال بعضاً منها موجودة حتى الآن عند الوثنيين في هذا العصر، وكان شأن الرسالات السماوية إبطال تلك وإرساء قواعد التوحيد الحقيقي عند الإنسان وإبقاء نور الفطرة وقاداً فيهم وجاهدوا في هذا الأمر حق الجهاد، ولهم في ذلك أساليب متعددة ذكر بعضها القرآن الكريم، ولكن الوثنية التي أنشبت أظفارها في النفوس لم تجعل أن تتفهم تلك الوحدة الحقيقية والتوحيد الواقعي حق الفهم وربما تظهر بوضوح على عقيدتهم، كما ظهرت على قوم موسى عليه السلام وهو بين ظهرانيهم قال الله تعالى حكاية عنهم لما عبروا البحر بقيادته عليه السلام فرأوا عبادة الأصنام فقالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨) وقصة عبادة العجل في اليهود معروفة كما حكاها القرآن الكريم بالتفصيل، فإذا كان هذا شأن القوم الذين فضلهم الله تعالى ومنحهم الكرامة وأنعم عليهم أنواع النعم، فما بال غيرهم من الأقوام الذين لم يكونوا بهذه المرتبة من العلم والفهم ثم إذا تجاوزنا من قوم موسى بن عمران إلى قوم عيسى فنراهم أسوأ حالاً، فقد دخلت فيهم خرافة التثليث وجعلوا عيسى عليه السلام إلهاً يعبدونه من دون الله وغير ذلك من العقائد التي هي بحد ذاتها يحيطها الغموض والإبهام وقام الدليل على بطلانها ما زالت موجودة عندهم.

هذه حال الملل العقائدية التي نزلت فيهم الرسالة والكتب الإلهية

وأما غيرها من الأمم فقد أثبتت الأبحاث التاريخية ثبوت الشرك بل التثليث فيهم أيضاً، فهذه الديانة البرهماتية أصحابها قد اعتقدوا التثليث وأن الرب تجلى عندهم في ثلاثة مظاهر ثم انتقال ذلك إلى الديانة الهندوسية.

وأما الفرس فقد اعتقدوا بالثنوية وجعلوا لهم إلهين إله الخير وإله الشر. وتبادلت الأقوام تلك الخرافات والعقائد الباطلة وأما الفلاسفة والحكماء والعلماء فلم يسلم تفكيرهم من هذه الرواسب وإن بذلوا أقصى الجهد في إقصاء الشرك وإبعاد الإله عن صفات المخلوقين، إلا أنهم ما برحوا عن الوحدة العددية وما انفكت أقوالهم عنها.

وأما العرب فهم كانوا على أقصى درجات الشرك والتعدد وقد عرفوا بالعناد واللجاج والمقاومة العنيفة مع عقيدة التوحيد التي نزل بها القرآن الكريم وبسط الكلام فيها وأقام الأدلة والبراهين التي امتازت بكونها بسيطة تخاطب الروح وتقبلها النفس، مع أن التوحيد من العقائد الرئيسة في حياة الإنسان وله من الشمولية والبسط ليشمل جميع الموجودات كلها، فلا بد من بيان التوحيد القرآني وما ورد في تفسيره في كلمات المعصومين عليهم السلام الذي بلغ القمة من الكمال ووصل إلى أقصى درجات الشموخ ونهاية العرفان.

التوحيد في القرآن الكريم

لم يعهد في القرآن الكريم أن تكون عقيدة بهذه المثابة من الأهمية فقد بسط القول في التوحيد وفي أقسام الوحدة المحدودة وأبطل التشريك بجميع مظاهره وبين أقسام الوحدة الحقيقية مع ذكر الأدلة والبراهين القويمة وبأساليب مختلفة، وقد جعل الإسلام شعاره الشهادة بالوحدانية

لله تعالى ونفي ما عداه من الآلهة، فقال الرسول الكريم ﷺ كلمته المشهورة: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وإذا راجعنا القرآن الكريم وجدنا أن هذا التهليل ورد في أكثر من أربعين موضعاً منه.

ولما كانت هذه العقيدة لها من السمو والرفعة من جهة والصعوبة في الفهم من جهة أخرى فقد اتخذ أساليب معينة في تثبيت هذه العقيدة وإرساء أركانها في أذهان الناس ابتداءً من حصر الآلهة في إله واحد وتوجيه العباد إليه، فقال عز من قائل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩) وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (إبراهيم: ٥٢)، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الذي فيه من الدقة في اللمعنى كما عرفت سابقاً، فراجع.

وغير ذلك من الآيات الشريفة التي تثبت إلهاً واحداً للعباد، وترفض الآلهة الكثيرة بشدة، فقال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٦٤) وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور: ٤٣)، وقال تعالى: ﴿أئفكا الهة دون الله تريدون﴾ (الصافات: ٨٦)، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، ولقد أكد القرآن الكريم في تعاليمه على إثبات الوحدة المطلقة ونفي الوحدة العددية عن الإله العظيم جل جلاله الذي له من العظمة والجلالة والقهارية ما يوجب قهر المحدودية الحاصلة من الوحدة

العددية التي لها من النسبة التي تفرضها عند ملاحظتها مع غيرها فإن تلك الوحدة العددية توجب عروض الكثرة العددية، وهو عز وجل منزه عنها مطلقاً، فهو القاهر الذي لا يقهره من سواه والغالب الذي لا يغلبه شيء، فلا يمكن سلب تلك الوحدة عنه وهو منزه عن النسبة والإضافة فلا تعرض الكثرة العددية ولا الوحدة العددية، ولعله لذلك كانت الآيات التي تنفي الأرباب والآلهة المتعددة توصفه بالقهارية بعد إثبات الوحدة المطلقة له، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر: ٤)، وقوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ (ص: ٦٥).

فإن سياقها يدل على إثبات الوحدة المطلقة وتنفي جميع أنحاء الوحدة المحدودة عنه فإنه القهار الذي لا يقهره في الذات والصفات والأفعال فليس هو محدوداً في شيء، ثم إثبات الكمال المطلق له عز وجل، فهو كمال محض وخير محض لا يحد لكماله حد، وتدل عليه تلك الآيات التي تصف الله بالصفات العليا وتحصر الكمال فيه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (طه: ٨)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (غافر: ٦٥)، وغيرها من الآيات التي تدل ظاهراً على أن كل كمال مفروض له فهو المستغني عن خلقه وغيره محتاج إليه كما قال تعالى: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ (فاطر: ١٥)، ثم لأجل عدم التناهي في جميع شؤونه عز وجل وإثبات كل كمال لله تعالى كان محيطاً بما سواه إحاطة مطلقة فلا يضره فقد

المتناهي في شيء من شؤون كماله فهو القائم بنفسه على نفسه الشهيد عليه المحيط به ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ (فصلت: ٣، ٥٤)، وبعد ثبوت الكمال المطلق له عز وجل وأنه المحيط بما سواه إحاطة واقعية لا يشوبها نقص، فكل ما يفرض بعد ذلك إنما يكون محدوداً يشوبه شيء من النقص صح للعقل حينئذ أن يفرض له الثاني فصح عنده أن يتصف بالكثرة بالنظر إلى نفسه وإن كان ممتنعاً في الواقع وليس كذلك الله تعالى، فهو واحد لا بالوحدة العددية ولا غيرها من أقسام الوحدة المحدودة التي تلازم النقص ويشوبها الحرمان، ثم بعد إثبات الوحدة المطلقة له بحيث لا يحد بحد ولا يمكن فرض ثان له أبداً ويبطل ما عداه من الآلهة وكل أنحاء الشرك.

وما ذكرناه يبين حقيقة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء: ١٧١) أي أن الإله لا بد أن يكون واحداً جامعاً لصفات الكمال وهو منحصر في الله الواحد الأحد، ويدل على ذلك ما نقل عن الإمام الرضا عليه السلام من خطبة له قال: «ليس له حد ينتهي إلى حدِّه، ولا له مثل فتعرف له مثل» فإنه بعد نفي الحد عنه وإثبات الكمال المحض له عز وجل يلازمه نفي المثل له.

وبعد تحقق ذلك وبيان تلك المراحل الدقيقة في إثبات الوحدة المطلقة له عز وجل ينتهي إلى إثبات الأحدية لله تعالى الذي ينفي فرض التعدد مطلقاً عنه فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾، فإنه بعد التدرج في تلك المراحل التي ذكرناها ووضوح الأمر في التوحيد نوعاً ما

اقتضى المقام إلى استعمال أسلوب جديد لا يحتاج إلى النفي ولا التقييد نوعاً ما اقتضى المقام إلى استعمال أسلوب جديد لا يحتاج إلى النفي ولا التقييد ولا غير ذلك مما استعمل سابقاً في إثبات التوحيد لله تعالى وهو استعمال الأحد في هذه السورة المباركة في أسلوب الإثبات وتعقيبه بما يرفع الحد عنه عز وجل ليفيد أن هويته متمحضة في التوحيد بحيث يدفع فرض من يماثله أبداً سواء أكان في العقل أو الوهم أو الخارج، وله من البساطة والتجرد ما لم يمكن فرض التركب فيه بوجه من الوجوه والأحد الواحد وإن كانا يشتركان في الدلالة على الوحدانية، إلا أن الأحد يمتاز عن الواحد بأن الأول يدل على المتفرد بالذات والمعنى، والواحد يدل على المتفرد بالذات فقط وأن الواحد يدخل في الضرب والعدد ويمتنع دخول الأحد في ذلك فإنه إذا قيل (ما جاءني أحد) ينفي به أن يكون قد جاء الواحد والاثنان والأكثر ولم يخرج عن حكمه عدد ولم يشذ منه شاذ. ثم بعد إثبات التوحيد الكامل التام له عز وجل وصفه الله تعالى في هذه السورة بأنه صمد أي السيد المطاع الذي يقصد في قضاء الحاجات، أي الجامع لكل خير متعقل. أو أنه المصمت الذي لا جوف له ولا مكاناً خالياً ومنه ولا فيه صفة من صفات الممكنات، وثانياً بأنه لم يلد، وثالثاً بأنه لم يولد، ورابعاً بأنه لم يكن له كفواً أحد، وكل واحد منها ينفي نوعاً من المحدودية والانعزال ويشير إلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام (وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبه أنه عز وجل أحد المعنى لا ينتظم في وجود ولا عقل ولا وهم) وسيأتي في محله تفسير هذه السورة المباركة إن شاء الله تعالى.

ومن جميع ذلك يظهر أن التوحيد القرآني قد وصل من الكمال ما لم يصل في غيره من الأديان والأفكار وإن كان فيه من الدقة التي لا بد من الرجوع إلى كلمات المعصومين في توضيح المراد ولا يفوتنا التنويه إلى أن ما يقال في ذلك هو قاصر عن درك الحقيقة فإن كل ما يتصور من المعاني الكمالية هي أوصاف محدودة ولا تقع عليه عز وجل حق الوقوع. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ (الصافات: ١٥٩، ١٦٠) وهم معادن الوحي والعلم وكفى أن يكون القول محدوداً ولا يمكن إحاطة المحدود لغير المحدود، ولا يسعنا إلا الاعتراف بالعجز أمام عظمته وكبريائه ولا نقول إلا ما قاله الرسول الكريم ﷺ في كلمته المعروفة التي تعتبر من جوامع كلماته (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الدليل على التوحيد

ذكر العلماء ولا سيما الحكماء المتألهون والفلاسفة الشامخون أدلة كثيرة لإثبات الوحدانية الكبرى لله عز وجل تشترك جميعها في الغموض والإبهام وهذا هو شأنهم في كثير من المعارف الربوبية، فإنهم وإن أخذوها من القرآن الكريم ولطائف عباراته ودقائق كلماته المباركة وما ورد عن الأئمة المعصومين ﵈ إلا أن صياغتها في عباراتهم أوجبت غموضها وبعدها عن الفهم العرفي مع أن البراهين والأدلة التي وردت في القرآن الكريم امتازت بالوضوح والرجوع إلى الفطرة المستقيمة، وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن ما ورد فيها كان مما يدركه الفهم البسيط والعقل الساذج ونحن نذكر تلك الأدلة القرآنية بما ورد في تفسيرها في كلمات المعصومين وهي على وجوه:

الأول: برهان الإمكان الذي يدل على أن ما سواه عز وجل ممكن يحتاج في وجوده إلى علة، وأن الموجودات الإمكانية وما يتبعها من الأفعال والآثار مخلوقات لله سبحانه وتعالى والممكن فقير بذاته ولا يمكنه الاستغناء عن الله الذي هو غني في ذاته وفعله، والفقير الفاقد لكل شيء واجد في ظل خالقه وحينئذ يكون كل أثر وفعل مستنداً إلى الله تعالى فيعلم أن هناك خالقاً واحداً واجباً غنياً بذاته، وأما غيره فإذا كان واحداً لشيء فهو بأقدار منه سبحانه وإذنه ومشيئته ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وقد تقدم تفسيره، فراجع.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ (الرعد:١٦)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ (الأنعام:١٠٢)، فالإمكان بحد نفسه ينافي الألوهية المبنية على الوجوب والاستغناء والتوحد في جميع الشؤون، وهذا البرهان ينفي كل معبود سواه عز وجل أيضاً.

الثاني: برهان الحاجة أي أن كل من كان محتاجاً بوجه من الوجوه ينافي أن يكون إلهاً لأنه يجري على سبيل الحاجة والافتقار، وهو ينافي الوحدة فلا يمكن أن يكون إلهاً الذي يجب أن يون واحداً غنياً بذاته، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ فإن ما ورد فيه من صفاتهما إنما هو على سبيل الحاجة والافتقار من دون أن يكونا ربين. واحتياج المخلوقات إلى الله تعالى أمر يقربه العقل والنقل فإن الإمكان قرين الحاجة والافتقار وأن المخلوق يحتاج إلى رب يدبر أمره

ويرعى شؤونه فإن الحاجة التي اقتضت وجوده تقتضي أيضاً إلى رعاية شؤونه، فالمربوب كما هو محتاج في وجوده محتاج إلى إدامة وجوده وجميع شؤونه وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بعض الكلام، فراجع.

ويتجلى ذلك بوضوح في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، فإنه يدل على التوحيد في الخلق والتوحيد في الربوبية، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام جواباً عن سؤال هشام بن الحكم عن الدليل على أن الله واحد؟ قال عليه السلام: (اتصال التدبير وتمام الصنع) كما قال الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فإن حاجة الخلق إلى مدبر وانتظام تدبيره ووحدة صنعه يدل على أن المدبر واحد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١)، ومن هنا ان نفي الأرباب موافقاً للفطرة التي تدعو إلى الوحدة في الله الغني وتشتت المحتاجين وتفرقهم، قال تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩).

الثالث: أن الذي يمكن أن يتخذ إلهاً لا بد أن يكون مالكاً لأمر نفسه يدفع عن من يتخذه رباً الضر ويجلب إليه النفع وهذا مما يملكه الله تعالى وحده دون غيره وحينئذ تنتفي الحاجة من عبادة غير الله، وهذا أمر يدركه العقل بأدنى روية وما سواه لا يملك لنفسه شيئاً عند نفسه إلا بأقدار من الله تعالى وإذنه ومشيئته، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ (الأعراف: ١٩٥) فإن الآية الكريمة تنفي جميع ما ينسب إليهم من شؤون وجودهم وأن الذي منحهم تلك أحرى بأن يتخذ إلهاً فهو الله الواحد الأحد الغني عن خلقه وهم محتاجون إليه ولأجل ذلك ورد النهي عن اتخاذ الأرباب من دون الله، قال عز وجل: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، فإنه خلاف الفطرة الداعية إلى أن يكون الرب واحداً.

الرابع: إن الإله بما هو إله المتخذ معبوداً ورباً لا بد أن يكون إلهاً واحداً مع قطع النظر عن العناوين الأخرى التي ذكرناها مما يوجب الوحدة الحقة الحقيقية، ولعله هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ولو فرض التعدد في الآلهة استلزم الخلف وهذا الدليل وإن كان له غموض نوعاً ما إلا أنه حدث لأجل شوب الأذهان بالشبهات وأنس النفس بالمادة وإن تجرد الإنسان عن ذلك وتصور معنى الإله بحد نفسه لأذعن أن الإله يجب أن يكون واحداً وهو الله تعالى فإنه الحق المطلق بجميع شؤونه وأن وجوده طارد لكل تعددية في النسب والإضافات التي هي عدم بالنسبة إلى وجوده العظيم، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ (الحج: ٦٢)، وهناك أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى وقد ذكرها الإلهيون في كتبهم وكلها مستمدة من كلمات مولانا الإمام

أمير المؤمنين عليه السلام والأمة عيال عليه قد أخذت التوحيد من علمه (صلوات الله عليه)، ونحن نذكر جملة مما نقل عنه والذي أبدع فيه ففي نهج البلاغة، قال عليه السلام (أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده).

وقد تضمن هذا البيان البديع الذي هو فوق كلام المخلوق إشارات دقيقة ومعان سامية منها عينية الصفات والذات وهي برهان الوحدة الذي يوجب تنزيهه تعالى عن سائر أنواع التركيب والتجزئة ومنها أن المعرفة ركن من أركان الدين بل من أهمها، فمن لم يعرف الله فهو بعيد عن الدين، ومنها أن معرفته عز وجل تستدعي التصديق به عز وجل، فإن المعرفة بدونه لا تتم ولا تكون كاملة، ومنها أن معرفته تنتهي في استكمالها إلى نفي الصفات الزائدة عن ذاته وقد بين عليه السلام في وجه ذلك أن إثبات الصفات تستلزم التعددية بين الصفة والموصوف وأن الوحدة فيها تكون من الوحدة العددية التي تقدم الكلام فيها وقلنا إنها تتوقف على التحديد والتركيب والحاجة غير الجائز عليه تعالى فكمال معرفته يلازم نفي الوحدة العددية منه وإثبات وحدة أخرى، وهي اتحاد الصفات والذات الذي يستدعي تنزيهه سبحانه وتعالى عن التركيب والتجزئة ونفي الاحتياج وهو التوحيد النزيه الجامع لكل صفات الكمال وهو الخير المحض، ثم أن العلم يستدعي العمل ويكمل أحدهما الآخر، وأهم آثاره

التصديق به عز وجل فإنه ينبىء أن العارف قد أخذ المعروف صدقاً وانبسط على جميع مظاهره وخضعت له تعالى جميع جوارحه وجوانحه، ولا يتم هذا الخضوع إلا بنفي الشريك والإعراض عن غيره فيكون كمال التصديق به توحيده الذي هو على مراتب مختلفة ولا يكمل إلا بالإخلاص له وإعطاء الألوهية حقها من الإذعان به والخضوع له، ولا يتم ذلك إلا بإثبات الكمال المطلق فيخصه بالخضوع له وعبادته حقها فيخلص له قولاً وعملاً واعتقاداً بحيث يظهر على أعماله جميع آثاره فتكون من كمال التوحيد والإخلاص له.

والإخلاص له عز وجل يستدعي الاعتراف بالعجز أمام عظمته وتنزيهه مما لا يليق بساحة كبريائه فإن كل صفة ينسبها له تعالى، إنما هي لا تخلو عن كونها محدودة لأنها لا تخرج عن المألوف بين آحاد أفراد الإنسان والمأنوس الممكن عندهم التي تتصف بالتدافع ولا تقبل الائتلاف والامتزاج فإن كل مفهوم منها يخلو عن المفهوم الآخر، وهذا واضح فلا يمكن أن تنطبق مثل تلك الصفات عليه عز وجل فلا محيص من اعتراف المخلص بالعجز ونقص الأوصاف التي يصفه بها ربه فيقع في حيرةٍ واضطراب فلا بد حينئذٍ من نفي الصفات عنه فيعتبر ذلك هو الكمال في الإخلاص فقال عليه السلام: (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة) فلا إثنينية هناك بل وحدة مطلقة ولا حد ولا عد له عز وجل فلا بد من نفي الصفات عنه فإن (من وصف الله فقد قرنه) للمغايرة بين الصفة والموصوف والجمع بينهما حينئذٍ يكون قرناً بينهما ومن قرنه فقد ثناه للتغاير بين الوصف والموصوف وهما اثنان، ومن ثناه فقد جزأه إلى

جزئين، ومن جزأه فقد جهله فإنه إشارة إليه والإشارة عقلية، ومن أشار إليه فقد حده لانفصال المشار عن المشار إليه وإيجاد البعد بينهما ويرجع بالآخرة إلى أن الحد يستلزم العد وهذا هو الذي بدأ به أولاً في كلامه وهذا من الدقائق الذي لا يدركه إلا من ألهمه الله تعالى الدقائق ولا يمكن لأحد درك عظمة الباري وكبريائه، وقد قال عليه السلام في ابتداء خطبته:

(الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل محدود) وهذه الخطبة المباركة تدل على عينية الصفات والذات كما سيأتي البحث عنها.

وفي التوحيد بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له: ذعلب، ذرب اللسان، بليغ في الخطاب، شجاع القلب، فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ فقال عليه السلام ويلك يا ذعلب لم أكن أعبد رباً لم أره!! فقال: يا أمير المؤمنين كيف رأيته؟ قال عليه السلام (يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذعلب إن ربي لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، وكبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ قبل كل شيء لا يقال شيء قبله، وبعد كل شيء لا يقال له بعد، شاء الأشياء لا بهمة، دراك لا بخديعة، هو في الأشياء غير متمازج بها ولا بائن عنها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجل لا باستهلال رؤية، بائن لا بمسافة، قريب لا بمداناة لطيف لا بتجسم موجود لا بعد

عدم، فاعل لا باضطرار، مقدر لا بحركة، مريد لا بهمامة، سميع لا بآله، بصير لا بأداة، لا تحويه الأماكن ولا تصحبه الأوقات، ولا تحده الصفات، ولا تأخذه السنات سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له وبمفارقته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، واليبس بالبلل، والخشن باللين، والصرد بالحرور مؤلف بين متعادياتها، مفرق بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرقها، وتأليفها على مؤلفها، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ففرق بها بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه، كان رباً ولا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع ـ الحديث).

أقول: هذا الحديث مشهور بين الخاصة والعامة، روي بأسانيد متعددة وألفاظ مختلفة ومجموعه يدل على عينية الصفات وأحدية الذات في جميع ما يصدق عليه ويتصف به، فهو تعالى اللامحدود وغير المتناهي وهو المحيط بكل شيء المهيمن على كل أمر، فلا تلحقه صفة تمتاز عن ذاته فإن ذلك يستلزم محدوديته وانتفاء أزليته، ويستفاد أن كل وصف يوصف به عز وجل لا بد أن يكون من الكمال والعظمة لا يكون لهما حد محدود فلا يصح أن يتصف بوصف يدفعه الغير أو يدفع الغير كما في أوصاف المخلوقين، فإن كل وصف فيهم كالعلم يدفع غيره

كالقدرة مثلاً، فبين تلك الأوصاف من المدافعة ما يثبت التناهي والمحدودية والتعددية فيها وهو تعالى منزه عن جميعها، فإن الصفات هناك متحدة مع الذات، فهو عز وجل إحدى الذات والمعنى ولا يمكن أن يحدها بحد فإن كل ما هناك من الدقة والسمو ما هو ألطف معنى وأبعد غوراً، فهو الطيف لكن لا بالمقاييس المحدودة، وكذا بقية الأوصاف فإنها وإن أخذت من المعاني المحدودة في الخارج إلا أن إطلاقها عليه عز وجل لا بد أن لا يكون على نحو يستلزم انعزال كل مفهوم عن الآخر وانعزال الذات عن الخلق، وهو مفاد قوله عليه السلام (لا تحده الصفات) وهذا له من الدقة التي تحير الإنسان اللبيب.

وقد تقدم في خطبته المباركة السابقة (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه) فهو (صلوات الله عليه) يثبت الصفات له وفي نفس الحال ينفيها عنه عز وجل لأن الإثبات يستلزم التحديد ونفي الحد يستلزم إسقاطها، وهذا يعني اتحاذ الصفات وعينيتها ولأحد حينئذ، وهذا هو الذي يدور الحديث حوله، وأما عن المفردات الواردة فيه يحتاج إلى الشرح والتفسير وله موضع آخر ويستفاد من الحديث الشريف مجهولة الماهية التي هي مسألة معروفة في الفلسفة، فإن قوله عليه السلام (وبتشعيره المشاعر أن لا مشعر له وبتجهيرة الجواهر عرف أن لا جوهر له) والسر في ذلك أنه لا يجوز أن يكون بعض أفراد الطبيعة الواحدة علة لبعض آخر بالذات لما ثبت في الحكمة المتعالية من امتناع ذلك فجاعل الشيء يستحيل أن يكون مشاركاً مع مجعوله في الطبيعة الواحدة، ثم إن أفاضية الله تعالى الكمالات على عباده دليل على أنه عز وجل متصف بها على الوجه الأتم الخالي من شوب النقصان لأنه دليل على الافتقار المنافي

للألوهية والربوبية فهو الواحد في الصفات والذات لا تدركه العقول ولا تحيطه العلوم، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠).

ثم مسألة عينية الصفات والذات من المسائل المهمة الدقيقة التي دلت عليها الأدلة العقلية والنقلية التي وردت عن الأئمة الهداة لا سيما ما ورد عن سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام وتقدم قوله في خطبته المباركة (وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه الزائدة) لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله (بصفة زائدة على ذاته) فقد قرنه (أي قرن ذاته بشيء) ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله (لم يعرفه فلم يوحده) وهو صريح في عينيه الصفات مع الذات والتي هي غاية التوحيد، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام (لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور) وهو يدل على أن لذاته من الكمال والجمال لا يخرج عن حيطة ذاته المقدسة والحديث وإن كان في قسم خاص من العلم إلا أنه يشمل الصفات الأخرى ومن ذلك يعرف بطلان نظرية الزيادة التي ذهب إليها الأشاعرة ونظرية النيابة التي ذهب إليها المعتزلة وشرح تلك المسائل يطلب من الكتب الفلسفية.

وفي النهج من خطبة له عليه السلام (الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليته، وباشتباههم على أن لا شبه له لا يستلمه المشاعر، ولا يحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحاد والمحدود، والرب والمربوب، الأحد لا بتأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبعيد لا بتفريق آلة،

والشاهد لا بحاسة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية والباطن لا بلطافة، بأن من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه، من وصفه فقد حده ومن حده فقد عده، ومن عده فقد أبطل أزله).

أقول: الحديث يدل على أنه تعالى أحد لا بتأويل وأن الصفات التي اتصف بها غير محدودة بحد، فإن جميع ما يطلق عليه من المعاني والصفات المشهورة في الممكنات هي أمور محدودة قد خلقها الله تعالى وأوجدها وأفاضها على مخلوقاته، فإذا كان الحد من صنعه فكيف يطلق عليه فهو تعالى منزه عن كل حد يحده، وهو يستلزم أن يكون بائناً عن خلقه لا بينونة عزلة وانفصال عن مخلوقاته بل بمعنى قهره لهم وقدرته عليهم وخضوعهم له ومن ذلك يظهر أن الألفاظ المستعملة في المخلوقات إن استعملت في الخالق فهو بضرب من التأويل وذلك واضح لأن الألفاظ والاستعمال والمستعمل من الزمانيات وكل ذلك من الحدود والله تعالى منزه عنها، فهو السرمدي الذي نسبته إلى الزمان نسبة روح الروح، لأن الدهر روح الزمان والسرمد روح الدهر، فالألفاظ المستعملة فيه عز وجل ومخلوقاته إنما تكون بالاشتراك اللفظي، فتدبر الأخبار الواردة عن الأئمة الهداة (سلام الله عليهم أجمعين) تجد صدق ما ادعيناه وفي توحيد الصدوق عن مولانا الرضا عليه السلام في خبر طويل في بيان الصفات قال عليه السلام عند بيان معنى السمع والبصر والقدرة (فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى) ولعلنا نتعرض لذلك في مستقبل الكلام إن شاء الله تعالى.

وكيف كان فإن قوله عليه السلام (من وصفه فقد حده ومن حده فقد

عده، ومن عده فقد أبطل أزله) يدل على التوحيد الذاتي وعينيه الصفات مع الذات وفيه إبطال الوحدة العددية لأن إبطال الأزل يستلزم ذلك فإن حقيقة الأزل فيه عز وجل عدم التناهي في الذات والصفات والحد لا أن يكون المراد من الأزل في الزمان أي أنه سابق على مخلوقاته تقدماً زمانياً غير متناه فإن ذلك من الخطأ كما هو معلوم.

فالأزل فيه عز وجل أنه غير مسبوق بشيء يتقدم عليه كما أن الأبد فيه باعتبار أنه غير ملحوق بشيء يتأخر عنه وإذا اعتبر من الجانبين كان الدوام.

وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام في خطبة (دليله آياته ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزله أنه رب خالق غير مربوب مخلوق، ما تصور فهو بخلافه.. إلى أن قال عليه السلام: ليس بإله من عرف نفسه، هو الدال بالدليل عليه، والمؤدي بالمعرفة إليه).

أقول: هذه الخطبة المباركة تشتمل على بليغ البيان في بيان التوحيد ويحتاج إلى شرح طويل، فإنه يدل على أن وجوده عين وحدته، كما أن معرفته إنما تكون في وحدته، وهو ينفي كل المعاني التي ذكرناها في الوحدة المحدودة التي منها الوحدة العددية، فإنها غير الذات التي تثبت الوحدة فإذا كانت غيرها فيحتاج ثبوت الوحدة إلى أمر خارج عن الذات وهذا خلف وهذا المعنى غاية في الدقة وهو يدل على ما ذكرناه في الدليل الرابع من أن الإله بكل ما يتصور من المعنى اللائق به يثبت الوحدة فلا يحتاج إلى أمر خارج فتدبر قوله عليه السلام (ليس بإله من عرف بنفسه هو الدال بالدليل عليه والمؤدي بالمعرفة إليه)، فهو يدل على أنه

عز وجل في غاية الجلال والعظمة والكبرياء، فهو أجل من أن يتعلق به معرفة وفهم وإدراك، فهو القهار، وتعالى أن يحيط به معرفتنا، وهو الدليل الذي يدل على ذاته بذاته المقدسة فهو المحيط بذاته وعلى ما سواه فكيف يمكن أن يهتدي الذي يحيط به عز وجل إليه.

وفي المعاني بإسناده عن علي عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: التوحيد ظاهره في باطنه وباطنه في ظاهره، ظاهره موصوف لا يرى، وباطنه موجود لا يخفى، يطلب بكل مكان، ولم يخل عنه مكان طرفة عين، حاضر غير محدود، وغائب غير مفقود).

أقول: الحديث الشريف يدل على كونه عز وجل غير محدود بحد، والتوحيد الكامل التام، وعينية الذات والصفات، فإنه لا تمايز وانعزال بين الظاهر والباطن وتوصيف أحدهما دون الآخر. فإن كل واحد منهما ينعزل بالحد، فإذا ارتفع اتحدا فكانت وحدة حقيقية واقعية وكذلك الأمر في الظاهر الموصوف والباطن الموجود، فإنه إنما يخفى إذا كان محدوداً، فإذا اتحدا فلم يتجاوز كل منهما حده المعين.

والحاصل إذ تحقق الحد بين الذات والوصف والظاهر والباطن والحاضر والغائب فإنه يوجب الافتراق وينفي الاتحاد، وأما إذا ارتفع الحد وانتفت المحدودية اختلط الجميع واتحدت وتحققت الوحدة الحقيقية بينها فتكون جميعها حاضرة ولكن مع حفظ كل منها شأنه المضروب له.

هذه بعض الأحاديث التي وردت في هذا المقام، وهي غيض من فيض، ومن جميع الأخبار الواردة في هذا الشأن نستفيد أن التوحيد الذي بينه القرآن الكريم لم يصل إلى هذه المرتبة من الدقة والكمال والوضوح

ولم ينكشف غطاؤه إلا بما ورد عن إمام الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة فإنه الذي كشف رموزه ورفع الحجاب عن دقائقه وأبان غموضه بأوضح برهان وأوضح سبيل وأتم وجه وبأسلوب متين يفوق كل كلام سوى ما ورد في القرآن الكريم الذي يعتبر الإمام في هذا السبيل فإنهم عليهم السلام بفكرهم الثاقب وفهمهم الوقاد وما أفاض عليهم رب الأرباب استفادوا ما ذكروه من تلك الدقائق القرآنية وقد صرح غيرهم من العلماء الإلهيين والفلاسفة الشامخين أنهم استفادوا مما ورد في كلماتهم لا سيما من كلام سيد العرفاء وإمام الموحدين علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين عليهم السلام والحق الذي ينبغي أن يقال إنه لولاهم عليهم السلام لما ظهرت هذه المسألة التي هي في غاية الدقة بهذا الوضوح بل بقيت على ذلك المعنى الذي ورد في الأديان الإلهية السابقة التي كانت تدعو إلى التوحيد في العبادة ونبذ الشرك والأنداد لله عز وجل وتوجيه العباد إليه حتى نزل القرآن الكريم فكان ما بينه أول الخطوات في تعليم هذه المعرفة وقد تلقتها الأئمة الهداة بالشرح والبسط والتفسير وقد غفل غيرهم عنها وأهملوا هذا البحث الشريف وعلماء الكلام وإن ذكروه في كتبهم إلا أنهم لم يأتوا بشيء سوى ما يلوح من كلماتهم من الوحدة العددية التي ذكرنا أن القرآن الكريم ينفيها ويثبت وحده حقة حقيقية واقعية ونكتفي بما ذكرناه من الروايات والتفصيل يطلب من الكتب المعدة لذلك.

وختاماً نذكر دعاء الإمام سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام في صحيفته المباركة الذي يبين فيه التوحيد الحقيقي ويشرحه بأتم وجه ويذكر آثاره على المخلوقات.

قال عليه السلام: (أنت الله لا إله إلا أنت الأحد المتوحد الفرد المتفرد وأنت الله لا إله إلا أنت الكريم المتكرم العظيم المتعظم الكبير المتكبر وأنت الله لا إله إلا أنت العلي المتعال الشديد المحال، وأنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم العليم الحكيم، وأنت الله لا إله إلا أنت السميع البصير القديم الخبير، وأنت الله لا إله إلا أنت الكريم الأكرم الدائم الأدوم، وأنت الله لا إله إلا أنت الأول قبل كل أحد والآخر بعد كل عدد وأنت الله لا إله إلا أنت الداني في علوه والعالي في دنوه وأنت الله لا إله إلا أنت ذو البهاء والمجد والكبرياء والحمد، وأنت الله لا إله إلا أنت أنشأت الأشياء من غير سنخ وصورت ما صورت من غير مثال وابتدعت المبتدعات بلا احتذاء...).

أقول: بين عليه السلام صفات الواحد الأحد واتحادها مع الذات بالوحدة الحقة الحقيقية، فهو الأحد المتوحد الفرد المتفرد في غاية الكمال والكبرياء ولا نظير له ولا مثيل، فهو أحدي الذات المتوحد في الصفات الكمالية التي أوجبت توحيده عز وجل، ثم كشف عن عظيم أثر التوحيد في المخلوقات ومدى تعلقها به وقد تقدم شرح مفردات الدعاء في ما تقدم، فراجع.

ولم نذكر كلمات الإلهيين في المقام، لأن ما تشتمل منها على شيء قويم، إنما هو مأخوذ من كلمات الأئمة الهداة الواردة في شرح القرآن الكريم وتفسيره، كما صرح جمع منهم بذلك، فلا حاجة إلى ذكرها حينئذٍ والله العالم.

مظاهر التوحيد:

ذكرنا أن التوحيد الحق الذي بينه إمام الموحدين علي بن أبي

طالب عليه السلام هو الوحدة التامة الكاملة التي لا تقبل التأويل والتنظير والتمثيل فهو أحدي الذات وأحدي الصفات لا تفاوت بينهما له من الكبرياء والعظمة والجمال والقهارية ما لا يمكن دركها بوجه من الوجوه وإلا كان محدوداً مقهوراً وهو خلاف ما عليه من القهارية المطلقة والإحاطة التامة الكاملة غير المحدودة كما عرفت آنفاً، فالوحدة فيه عز وجل لا تقبل التعدد لها من البساطة واللطافة ما لا تقبل التركب فكان الذات عين الصفات ومتحدة مع الذات إلا أنه بلحاظ الآثار والمتعلق والتجليات يمكن تقسيمها إلى وجوه.

الأول: التوحيد في الذات وقد فسره العلماء بمعنيين أحدهما أنه واحد بمعنى أنه لا مثيل له ولا نظير، وثانيهما أحد بمعنى أنه بسيط لا جزء له، وقد أشار سبحانه وتعالى إليهما في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ أي بسيط لا جزء له وقوله تعالى في ختامها ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ أي لا ثاني له، فهو تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهذه الوحدة تسمى بالوحدة الحقيقية عند العلماء أي كون الموجود لا يقبل الإثنينية، ولا التكرر ولا التكثر كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④﴾ وقد تقدم قول أمير المؤمنين عليه السلام (معنى هو واحد أنه ليس له من الأشياء شبه، وقول القائل أنه عز وجل أحدي المعنى يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم وكذلك ربنا عز وجل) وسبق قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الدال على نفي الشريك والنظير والشبيه والمثيل.

الثاني: التوحيد في الصفات بمعنى عينية الصفات والذات واتحادها فإنه لا ريب في أنه عز وجل جامع لجميع الكمالات الواقعية ويتصف

بصفات الكمال والجمال لكن لا على وجه اتصاف المخلوقين ببعض الصفات فإنها زائدة على ذاتها بمعنى أن هناك عرضاً وذاتاً معروضاً ينتزع من اتصاف الذات بالعرض عنوان العالم والقادر وغير ذلك من الصفات العارضة، فالعالم من له العلم والقادر من له القدرة فيكون الواقع في التوصيف هي البينونة ويستحيل اتصاف الله تعالى بالأوصاف كذلك فإنه يستلزم تعدد القدماء، وهو المحذور الذي وقع فيه الأشاعرة كما هو مفصل في علم الكلام إلا أن الحق كما عليه الإمامية ودل عليه العقل والنقل هي عينية الصفات والذات بمعنى اتحاد الذات مع الصفات والعرضية في الصفات ليست أمراً لازماً لها بل قد يكون كذلك كما في الصفات الحادث المخلوق، وقد تكون جوهراً كعلم النفس بذاتها، وثالثة فوق الجوهر والعرض فتكون واجبة قائمة بنفسها فلا اثنينية بين الذات والصفات حتى يستلزم التركيب الذي هو قرين الحدوث والحاجة. وقد دلت الأدلة العقلية والنقلية على ذلك وتقدم قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام (وكمال الإخلاص له نفي الصفات - أي الزائدة - عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة).

وعن الإمام الصادق عليه السلام (لم يزل الله جل وعز ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور).

والحديث وارد في العلم الذاتي، ولعل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يشير إلى ذلك فإن إجراء الأوصاف عليه عز وجل أمر خاص به لا يكون له مثيل في هذا النحو من التوصيف ويمكن استفادة هذه النظرية

من الدقائق القرآنية، ومن ذلك يعرف بطلان نظرية المعتزلة من نيابة الذات عن الصفات ونظرية الأشاعرة من زيادة الصفات على الذات وللتفصيل محل آخر.

الثالث: التوحيد في الخلق أي كون الخالق هو الله تعالى وإن كل ما سواه مخلوق مربوب له عز وجل فلا خالق حقيقة سواه سبحانه وتعالى إلا أن المخلوق تارة يكون منسوباً إليه عز وجل مباشرة وأخرى بالتسبيب وهذا لا يضر في صحة إطلاق الخالق عليه عز وجل وتوحده فيه، وهذا هو التوحيد في الخالقية وهو الله تعالى، وأن غيره إما أنه غير خالق لشيء أو خالق بأقدار منه عز وجل وإذنه ومشيئته سبحانه، ويدل على ذلك مضافاً إلى العقل الذي يحكم بأن المخلوقية آية الحاجة إلى الخالق في الذات والفعل والأثر وهو الفقير بالذات والله هو الغني المطلق فيكون الممكن الفقير واجداً في ظل خالقه في الذات والفعل والأثر. الدليل النقلي وقد تقدم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (غافر: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ (فاطر: ٣).

وفي الحديث عن الإمام الجواد عليه السلام حيث سئل عن معنى الواحد قال عليه السلام: (إجماع الألسن عليه بالوحدانية) لقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ فإن إجماع الألسن على كونهم مخلوقين مربوبين كدليل على حاجتهم إلى الخالق العظيم الغني بذاته المتوحد في خلقه السموات والأرض، وهذا لا ريب فيه، إنما الكلام في أن الخالقية المحصورة فيه عز وجل تستدعي نسبة جميع الموجودات إليه بحيث لا يكون مؤثراً ولا خالقاً سواه على نحو يستلزم سلب الإرادة

والاختيار عن العبد فإن ذلك يستلزم الجبر الذي ذهبت الأشاعرة إليه فأنكرت قانون العلية والمعلولية، والأسباب والمسببات، والتأثير والتأثر بين الموجودات الإمكانية. وبالأحرى ذهبوا إلى أن الفاعل هو الله تعالى والإنسان محل فعله عز وجل ومجرد آلة واستندوا إلى ظواهر بعض الأدلة التي إذا جمعناها نرى أنها تدل بمجموعها على بطلان ذلك وقد ذكرنا ما يتعلق بمذاهب الجبر وفساد أدلتهم في ما سبق من هذا الكتاب وفي كتابنا تهذيب الأصول، فراجع.

وبإثبات التوحيد الخالقي لله عز وجل ينفي الشرك في الخلق وأن هناك خالقاً أو خالقين مستقلين مؤثرين في العالم والقائلون به كثيرون منهم المفوضة الذين يعتقدون بتفويض أفعال البشر إلى أنفسهم فهم مستقلون في خلق الأفعال وإيجادها من دون نسبة إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى وهم في مقابلتهم للمجبرة من الأشاعرة انوا قطبين متضادين في تاريخ المسلمين فالمجبرة أرادوا من قوله نفي الشرك عنه تعالى فوقعوا في تعطيل البعث والتكليف وبطلانهما، كما أن القول في التفويض الذي أرادوا منه التنزيه يستلزم التعطيل والشرك. وكيف كان فبطلان مذهبهم معروف ذكرنا ما يتعلق به في هذا الكتاب، فراجع.

ومنهم الثنوية من الزرادشتية القائلون بإله الخير وإله الشر وبطلانه أوضح من أن يخفى، وهناك مذاهب أخرى عفى عليها الزمن وأدلة التوحيد في الخلق تبطلها جميعاً.

الرابع: التوحيد في الربوبية بمعنى انحصار التدبير والربوبية العظمى فيه عز وجل، قال تعالى في سورة الفاتحة (رب العالمين) والاعتقاد بخلاف ذلك يكون من الشرك الذي كان شائعاً بين الوثنيين، فإنهم وإن

اعترفوا بأنه ليس في الوجود إلا خالق واحد وهو الله ما حكى عز وجل عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٢٥) ولكنهم كانوا يشركون في التدبير والربوبية وتفويض تدبير الخلق إلى غيره متحداً كان أو متعدداً واعتزاله عن الربوبية العظمى، وقد اختلفوا في المفوض إليه فإن بعضهم كان يقول بأنه الكواكب، وآخر الملائكة، وثالث الأرواح المقدسة، ورابع أصنام وأوثان صنعوها بأيديهم بما هي مثال للآلهة التي كانوا يعتقدون بها التي فوض إليها تدبير العالم وغير ذلك من المذاهب التي تتحد في التشريك في عالم التكوين، وهناك مذاهب يعتقد أصحابها بالشرك في عالم التشريع وجعل زمام التشريع بيد أشخاص كما اعتقد اليهود والنصارى في علمائهم من الأحبار والرهبان فاتخذوهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، فجعلوا لله شريكاً في التشريع وهو يشترك مع سابقيه في البطلان. وقد دلت الأدلة العقلية والنقلية على بطلان الشرك في الربوبية والتدبير سواء كان في عالم التكوين أو في عالم التشريع وأن التوحيد يقتضي القول بأن الخير والشر وتدبير ما سواه تكويناً وتشريعاً بيده عز وجل ومنحصرة فيه ولا يملك غيره شيئاً، قال تعالى: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ﴾.

مراتب التوحيد

عرفت معنى التوحيد الذي تدعو إليه الفطرة، وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال (فطرهم على التوحيد) وهذا التوحيد الفطري مبني على البساطة والخلوص من شوائب الأوهام ويدعو الناس إلى التوجه إلى الله تعالى الذي لا يحجبه عن خلقه سوى ضعف الخلق وفقرهم واحتياجهم إليه كما في الحديث الشريف عن موسى بن جعفر عليه السلام (ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه) وهذا هو المراد مما ورد في خطبة سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام (توحيده تمييزه عن خلقه وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة) وهذا التوحيد هو الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون في توجيه العباد إلى الله العزيز المتعال ودعوتهم إلى الوحدانية ونبذ الشرك بجميع معانيه التي كانت متفشية عند أممهم كما عرفت إلا أن هذه الفطرة لم تبق على استقامتها وإن كانت تظهر في وقت الحاجة والاضطرار وتدعو إلى الله الواحد القهار. قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾ (الإسراء: ٦٧). وقد أخذ كل فرد من آحاد الناس في حدود فهمه الذي آتاه الله عز وجل فإنهم لم يخلقوا سواسية في الفكر والعقل، يفسر التوحيد بحدود فهمه وحسب ما يراه ويدركه من المعاني فظهرت مذاهب فيه والقرآن الكريم بين الحقيقة الناصعة في هذا الأمر المهم بأحسن أسلوب وأتم بيان، وكان للأئمة الهداة (صلوات الله عليهم) ولا سيما سيد الموحدين منهم وأمير المؤمنين عليه السلام الدور الكبير في شرح معناها وبيان خصوصياته كما عرفت آنفاً ولكن ظهور الشبهات وادعاءات بعض العلماء ولا سيما المتصوفة منهم المكاشفات وتنازع الفرق فيما بينهم أوجب الغموض والبعد عن الحقيقة والابتعاد عن منبع النور وما ورد في كلمات جملة الوحي وخزان العلم فأثبتوا للتوحيد معاني جديدة وأولوه بتأويلات عديدة

حتى ظهرت وحدة الوجود بل وحدة الوجود والموجود الذي اعتبروه من أقصى درجات التوحيد وأكملها حيث له مراتب ودرجات منها توحيد العوام وتوحيد الخواص وتوحيد خاص الخاص وتوحيد أخص الخواص. ومنها توحيد الأفعال وتوحيد الصفات وتوحيد الذات وبعض كلماتهم واعتقاداتهم يرجع إلى الكفر الصريح ونحن لا ننكر بأن للتوحيد مراتب حسب القرب والبعد عن الله تعالى إلا أن ما ذكروه يحتاج إلى شرح وتفسير لا سيما وأن بعض القائلين بوحدة الوجود من أعاظم الحكماء المتألهين والعرفاء الشامخين فإن أمكن تأويلها بما يوافق الشرع فنعم الوفاق وإلا فيرد العلم به إلى أهله إن لم تكن مخالفة لصريح الشرع المبين وتفصيل الكلام موكول إلى محله إن شاء الله تعالى، وقد تقدم في سورة البقرة بعض الكلام، فراجع[1].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٢٦٤ ـ ٣٠٣.

الرقي من الكمال أو الانحطاط في الرذائل

الآيات الشريفة المتقدمة(١) تبين قسمين من الخصائص التي يمكن أن يرتقي بها إلى الكمالات أو يحبط بها إلى الدرجات السفلى فيخرج عن طور الإنسانية ويدخل في زمرة أدنى البهائم حسب الملكات التي اكتسبها من تكرر الأفعال والمداومة على العصيان.

وقدم عز وجل هذه الأخيرة لتقدم التخلية طبعاً إلا من أدركته العناية الإلهية بالكمالات وتنهار سيئات الملكات ورذائل الصفات، وقد ذكر صنفين مما يوجب الانخراط في الحيوانات أحدهما يتعلق بالنوايا

---

(١) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

وهي الاستمرار على العصيان والأخرى بالأفعال وهي المداومة على الاعتداء وارتكاب المحرمات وهتك الحرمات، فإذا استولى العصيان على النيات فلم يكن له نية خيرة ولا همة شريفة حيث غلب الشر قلوبهم فلم يرج منها الصلاح وظهرت على أفعالهم وانهمكوا في ارتكاب المعاصي والآثام فلا يتوسم فيهم الخير ولا يتناهون عن المنكر إذ استوعب المنكر شعورهم ومشاعرهم فاستحقوا اللعن ممن يعرف أن يضع اللعن في مواضعه والطرد عن الرحمة الإلهية التي هي أساس كل خير ومنبع كل كمال وسبب كل هداية، فمسخوا قردة وخنازير بما يناسب تلك الملكات التي اكتسبوها باختيارهم وبقدر بعدهم عن الرحمة الإلهية ابتعدوا عن الذين آمنوا وأضمروا العداوة الشديدة لهم واقتربوا إلى الكفار المنكرين لوحدانية الله تعالى والعابدين للأوثان الذين هم مظاهر غضبه وسخطه فسخط عليهم بمثل ما سخط على هؤلاء فكانوا مشتركين في العذاب وهم فيه خالدون لخلودهم في العصيان والعدوان، ولو عاشوا أبد الآبدين، وقد بين عز وجل لهم طريقاً يمكن لهم التخلص مما هم فيه وهو الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه ويصلحوا ما يمكن إصلاحه مما فسد فيهم ولكني إني لهم ذلك وفيهم من الكفر والخروج عن طاعة الله ما سدّ عليهم طريق الرجوع وفي مقابل هؤلاء طائفة أخرى استفادوا من ضمائرهم وركنوا إلى إنسانيتهم التي أودع فيها الخير والسعادة وتشرفوا بمودة أهل الإيمان لأنهم آثروا نصرة الله ودينه الحق وهذبوا أنفسهم بالزهد عن ما يوجب الانخراط في الدنيا ويشغلهم عن عبادة الله وتسلموا بسلاح العلم الذي يتبين به الأمور فيعرف صحيحها من سقيمها وخيرها من شرها وكان المقتضى الأكبر فهم أنهم لم يجعلوا ذهاب تلك المجاهدات هدراً وبدون فائدة، فأخلصوا النية وعمدوا إلى التواضع

للحق مهما كان ولم يستكبروا عن قبوله أينما كان فصاروا بذلك أهل الأنس فسمعوا ما تهفوا إليه النفوس الروحانية فأثارت فيها الشوق إلى عالمها فأفاضت عيونهم من الدمع الغزير لما تنبهت تلك النفوس المرتاحة من محيطها المادي الذي تزجرها بالابتعاد عن عالمها الروحاني الفسيح ورجعت إلى ما تحن إليه من الحق العتيد. وهذا هو شأن الإنسان الذي عرف قدره ومصدره ومنتهاه فإنه لم يزل الجانب الروحاني منه يحنو إلى مقام الإنس الذي كان فيه قبل خلق الأجساد، فإذا استغل هذا الجانب على الوجه الصحيح لما تعدى عن الحق أبداً ولذا ترى أن الآية الكريمة التي هي من جلائل الآيات في هذا المجال قد بينت أموراً لا غنى عنها للسالك وطالب السير والسلوك والعرفان ولا يمكن الوصول إلى تلك المرحلة العظيمة إلا بعد إزالة الموانع والحجب عن هذا الطريق وجعل النفس في أقصى يقظتها وإخراجها عما يصادفها من الماديات والشهوات وتجاوز العقبات فإن المقصد عظيم والطريق طويل وفيه عقبات وموانع عظام لا ينخرط فيها إلا من أدركته العناية الإلهية والبوارق الربانية ولا بد من طلب الاستعانة من الله تعالى والاستعاذة به سبحانه مما يوجب الضلال والغواية ولأجل ذلك يظهر السر في طلب الاستعانة من الله وحصرها فيه عز وجل وتكرار الطلب والمداومة عليه وقد ذكرها تعالى في أجمع سورة في القرآن الكريم وهي سورة الفاتحة وتكرارها في الصلاة التي هي من أهم الروابط بين العبد ومولاه وأوضح المسالك في التقرب إلى المعبود ولا يمكن الاستغناء عنها في جميع الحالات والحاصل أن العبد السالك لا بد له من تخليص نيته ابتداءاً من جميع ما يشغله ويشينه عند خالقه وتطهير النفس من الرذائل المهلكة ومنها العصيان فإذا طهرت النفس منها وتزكت بالعلم وعرفت الخير والشر

ظهرت الآثار على الأفعال فتخلت عن الاعتداء وهتك الحرمات ثم الاشتغال بالزهد عما يوجب الوقوع في تلك المهلكات لئلا تعود الكرة فتحتاج إلى مجاهدة وصراع مرير مع الواقع المادي الذي تعيش فيه النفس التي تحن إلى عالمها حتى تقلع الاستكبار عنها فتحصل له حالة الانكسار والتواضع للحق وتنهار أمامه ولهذا الاستكبار أثر شديد في النفس فإنه السبب القوي في ربط النفس بهذه الدنيا والخلود إليها وله مظاهر متعددة ودقيقة، فإذا لم يكن الإنسان متصفاً بالعلم والعمل لا يمكن معرفتها ولذا قدم عز وجل العلم والزهد عليه في هذه الآية الكريمة وبعد طي المراحل التي هي عديدة وشديدة على النفس ودقيقة لا يمكن معرفتها إلا بالرجوع إلى ركن وثيق وهو القرآن الكريم وعدله القويم ولذا ترى أن هؤلاء لما سمعوا القرآن الكريم ومض فيهم النور وكان بالنسبة إليهم إثارة لما فيهم من الاستعداد فلا بد من سبب قويم صحيح يعتمد عليه السالك الطالب للحق ثم لما من الله عليهم بالحق وأنار قلوبهم به وطلبوا المزيد من الفيض عمدوا إلى الشهود فطلبوا منه تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين الذين لهم مرتبة خاصة عند السالكين لما فيه المواظبة على السلوك واستقرار النفس والمداولة على الخلوص.

ثم طمعوا في المزيد، ولا يخفي أن الطمع من المعدات في هذا المجال فطلبوا أن يكتبهم من القوم الصالحين بعد أن كانوا معاشرين لقوم ليس فيهم صلاح وكانت المعاشرة معهم من الموانع لتأثير العشرة على القلوب وتأثر النفوس بها، ثم أنهم لما صلحت نفوسهم وأعمالهم وطلبوا من الله المنان أن يدخلهم مع القوم الصالحين الذين لهم منازل خاصة في الجزاء العظيم، فرجعت نفوسهم إلى تلك الجنان الكريمة التي

كانت في ابتداء الأمر فيها فكانوا محسنين في جهادهم ونالوا الإحسان العظيم ممن هو رب الإحسان ثم ختم الآيات بأصحاب الجحيم للتنبيه بأن الطريق طويل والسلوك فيه شديد ولئلا يغتر من دخل في هذا السلك وأن المضلات كثيرة، وقد استعاذ منها نبينا الأعظم في حجة الوداع في خطبته المشهورة (نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) والبحث نفيس، نسأل الله تعالى العلم والعمل ونعوذ به من مضلات الفتن[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٢، ص٣٣٩.

القلب والتجليات الإلهية

إنّ للقلب حياة وممات، ولكلّ منهما علامات تأتي في ضمن تفسير الآيات الكريمة المناسبة لها إن شاء الله تعالى. فمن علامات موت القلب الغفلة عن الله تعالى، وإرسال الجوارح في معاصيه جلّ شأنه، وعدم المبالاة بالزلّات، وأنّ الجامع الباعث لموته حبّ ما سواه تعالى.

وحياة القلب لا تكون إلاّ بمعرفة الله تعالى، فكلّما كانت المعرفة أكثر وأعمق تكون آثارها كذلك، ومن تلك الآثار ظهور آياته جلّت عظمته بدرك القلب الذي فيه الحياة لها، ويعبّر عنها بالتجلّي في مصطلح أهل العرفان.

ولم ترد التجلّيات إلاّ على القلب الذي سلم من يد الأغيار في حياته، واستعدّ للواردات الربوبيّة بشهود أنواره، وصار محلاً لدرك الإفاضات بصفاته، ولذلك كان ظهور التجلّيات في صنف الأنبياء والأولياء أكثر من غيرهم لكمال معرفته بالله العظيم وأنسهم بخالقهم، وبعدهم عن الأوهام، وخوفهم من سخطه، وتقرّبهم إلى ساحة كبريائه.

وقد فاز بالحظ الأوفر من التجلّيات الإلهيّة سيد الأنبياء وخاتمهم نبيّنا الأعظم ﷺ، لكمال استعداده، وعظيم معرفته، ومنتهى أنسه بربّه، كما نصّت عليه الآيات الشريفة التي يأتي شرحها وتفسيرها والبراهين العقليّة.

وأعظم تلك التجلّيات كان لإبراهيم خليل الرحمن ﷺ، وأسماها لموسى بن عمران ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [سورة الأعراف، الآية:١٤٣]، ففي الحديث: «أنه برز من نور العرش مقدار الخنصر، فتدكدك به الجبل وصار مستوياً بالأرض» أي تراباً، وكذلك لمريم ابنة عمران ﷺ، فقد تجلّى ربها لها بإرسال الأمين وتمثل بالبشر عندها، فولد عيسى منها بلا أب، وغير ذلك ممّا ظهر لها في المحراب، وأما تجلياته جل شأنه لعيسى بن مريم فهي كثيرة، من إبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير، وإحياء الموتى بإذن ربه، ورفعه إلى السماء وغيرها.

وتختلف تلك التجليات حسب اللياقة والصفاء، والزمان، والأنس بالرب وحسب المصالح التي لا يعلمها إلا هو جلّت قدرته، كما هي مذكورة في كثير من الآيات الشريفة والكتب السماوية المصونة من يد التحريف، وتفصيل ذلك خارج عن موضع هذا الكتاب، ويأتي ما يتعلق بذلك في محله إن شاء الله تعالى.

وأما التجليات للمؤمنين، فتختلف حسب اختلاف درجات إيمانهم وحياة قلوبهم وقرب منزلتهم لديه جلّ شأنه، وإن كانت أصولها تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

الأول: التجلّي بعد الانتباه من الغفلة إلى اليقظة، ويعبر عنه بالإقبال، فيغيب عما سواه تعالى ولا ينظر إلا إلى آثاره تعالى، وهو المرحلة الأولى للسالكين إليه عزّ وجلّ، وله مراتب متفاوتة، وفي كل مرتبة درجات.

الثاني: التجلّي بالوصال وهو مختص بالأوصياء والكمل من

الأولياء، وفي دعوات الصحيفة الملكوتية السجادية ودعاء كميل شواهد كثيرة على ذلك، وله أيضاً مراتب وفي كل مرتبة درجات.

الثالث: التجلّي بالفناء، بكشف الحقيقة أو بفناء النفس في جنبه، وهو مختص بالخلص من الكمل، والغور فيه بالبحث عنه مزلة الأقدام، فطوبى لمن نال بقبس من ذلك النور وفاز برشحة منه.

وهناك تقسيم آخر للتجلّي وهو العظيم، والأعظم، والأكبر كما ورد في الدعوات المأثورة، والبحث عنه موكول للآيات المناسبة له إن شاء الله تعالى.

وعن بعض العرفاء أنّ العوالم كلها ساحة تجلياته تعالى، ويدركها الإنسان إن تحقّقت المعرفة، ورفعت الحجب، وأزيلت الأستار، وانفصلت الأغيار عن النفوس، وصفي القلب عن الشوائب، وإلاّ فدركها بالعقول المشوبة بالمادّة والنفوس المختلطة بالأوهام غير ممكن، كما قال الشاعر:

وللعقول حدود لا تجاوزها والعجز عن درك الإدراك إدراك

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، وفي بعض الدعوات المأثورة: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»، وفي الدعاء عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «اللهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً» هذا.

ولعلّ ما ورد في كلمات المسيحيين من حلول المبدأ جلّ شأنه في المسيح مرادهم التجلّي له، كما حصل ذلك لإبراهيم وموسى عليهما السلام،

ولمحمد ﷺ في المعراج، وإنزال الروح الأمين على قلبه، وانشراح صدره، وتجاوزه قاب قوسين أو أدنى إلى غير ذلك من تجلياته، وإلاّ فإنّ الحلول محال وغير ممكن كما عرفت سابقاً، ويشهد لذلك أن مثل هذا التعبير قد وقع في جملة من كلمات مشائخ العرفان وأكابر الصوفية، ومرادهم نوع من التجلّي لا الحلول الواقعي كما هو واضح والله العالم بالحقائق والشاهد على السرائر[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٠، ص٢٣١ ـ ٢٣٣.

موارد تجليات الله تعالى لعباده.

الإنسان قرين الحاجة والفقر، وهو يحتاج في حدوثه وبقائه إلى الله جلّ جلاله، وبعد كون الخير بيده تعالى فلا بد من الرجوع إليه عزّ وجلّ والتماس الخير منه والإعراض عمّا سواه ليتمّ له التوحيد الفعلي، كما يتم بذلك تفويض الأمر إليه عزّ وجلّ وتتجلى في قلبه هذه الآية الشريفة، ويكون من مظاهر: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فتسهل عليه جملة من الصعاب التي عاقت أهل الدنيا عن الوصول إلى مقاصدهم، فإن من شاهد القيومية المطلقة منه تعالى في وجوده وبقائه وجميع شؤون، لا يرى لنفسه شيئاً إلا مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [سورة الانشقاق، الآية: ٦]، وتتم بذلك نشأة الآخرة، حيث تكون من مظاهر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [سورة الفجر، الآية: ٢٧-٣٠]، ولا معنى للعبوديّة الحقيقية إلا ذلك، ويتّحد المبدأ والمآب حينئذٍ من كلّ جهة، بل إن وصل إلى مرتبة التفاني في مرضاة الله يتحد السائر والسير والمسير إليه.

فهذه الآية الشريفة من أجلّ موارد تجليات الله تعالى لعباده، ولأن خرّ موسى بن عمران عليه السلام صعقاً في تجلّ واحد منه تعالى للجبل، لكن

صار الكروبيون والروحانيون وعقول ذوي الألباب صرعى في مثل هذه التجلّيات الإلهية القرآنية.

ولأن كل للاسم الأعظم الذي هو أم الأسماء الحسنى مظاهر كثيرة، يكون العالم واحداً منها، فيصحّ أن تكون هذه الآية من بعض مظاهره، وصحّ ما نسب إلى سيد الأنبياء ﷺ حين سئل عن الاسم الأعظم فقرأ هذه الآية الشريفة، كما مرّ، فإن فيها اجتمع كمال الذات والصفات[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٥، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

أسباب تطهير النفوس المنحرفة

إن الأسباب في تطهير النفوس المنحرفة عن فطرتها المستقيمة وتزكيتها كثيرة جداً، بل عن بعض أنّها معسورة الحصر، وعدّوا منها الحدود والتعزيرات، كما ورد في بعض الروايات التصريح بذلك.

والتعبير بأنّ الحدود والتعزيرات فيوضات إلهيّة ومكارم ربانية لأجل صلاح المجتمع وإصلاحها في عالم الشهادة والفوز بالمقامات السامية في عالم الآخرة، كان مطابقاً للواقع. هذا كلّه إذا لم تكن الجريمة ممّا يوجب غضبه تعالى وسخطه، وإلا لا يطهّره الحد والتعزير في عالم الشهادة، لأنّ الظرف غير قابل لذلك، فينتقم الله منه في عالم الآخرة، ولعلّ ما ورد في بعض العقوبات أنّه لم يجعل الشارع له حدّاً خاصاً في الدنيا لأجل ذلك وأنه يوجب سخطه.

إن قلت: إن الصفات السيئة والأفعال القبيحة كلّها توجب غضبه وسخطه، وإن الحدود جزاء شرعيّ، وإن العقاب تابع لسخطه وغضبه.

قلت: أوّلاً: أن غضبه وسخطه لهما مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً ـ بل متباينة ـ وأنّ الحدود توجب رفعهما وإزالة الجريمة والخبث الباطني، فيرضى الله عنه.

وثانياً: أن الحدود توجب محو الذنوب، وإنها كالتوبة، وبعد ذلك لا وجه لأن يكون العبد مورد غضبه وسخطه.

والحاصل: أن الغضب الإلهي والسخط الرباني يرتفعان بما قرّره الشارع لرفعهما، سواء كان حدّاً أو تعزيراً أو توبة نصوحاً. نعم جعل العبد نفسه مورد تعلّق غضبه تعالى ينافي العبوديّة ويضاد الانقياد، ولا يناسب السير والسلوك، وعن بعض أعلام العرفاء: التخلية بترك المساوىء وهجرها أولى من التحلية بفعل الحسنات[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١١، ص٢١١ ـ ٢١٢.

التخلية والتحلية

الإخلاء عن العيوب الكائنة في الباطن ونبذ الصفات الذميمة عن النفس يعبّر عنه في العرفان بـ(التخلية)، وعن بعضهم: أن السعي إلى إزالة ما بطن فيك من العيوب خير من السعي إلى ما حجب عنك من الغيوب. والسرّ في ذلك أنها بمنزلة الإعداد لها، فهي تطهير القلب الذي هو السبب للحياة الأبدية للنفس. وأنّ العيوب الباطنية مانعة عن رقي النفس، فهي موجبة هلاكها. وأنّ الفيوضات الإلهية لا تفاض على الإنسان إلاّ بعد التخلية.

ومن هنا قالوا: إنّ الحق ليس بمحجوب إنّما المحجوب أنت عن النظر إليه، لأنّ الحق محال في حقّه الحجاب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ۝٣﴾ [سورة الحديد، الآية: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٦١]، وغيرهما من الآيات المباركة.

وعن بعضهم: أن الأوصاف البشرية تناقض خلوص العبودية، والمراد من الأوصاف العيوب الكائنة في نفس البشريّة التي تحصل من متابعة الهوى بإغواء الشيطان بالبعد عن الحقّ وآراءه الواقع غير ما هو عليه بالأوهام، وقد يوجب الأوهام الحجب عن الحقّ تعالى، والوهم أمر عدمي وسراب محض لا حقيقة له أصلاً.

ولا شكّ في أن اتباع الهوى يختلف باختلاف الأشخاص والحالات، وله مراتب متفاوتة شدةً وضعفاً وكيفيةً وجهةً، وأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ يشمل جميعها، ولا بدّ للسائر والسالك إلى الله جل جلاله من التخلية بإزالة العيوب الباطنية وغيرها. وأهمها ثلاثة:

الأوّل: عيوب النفس، وهي ما تتعلق بالشهوات الجسمانيّة، كطيب المآكل، والملبس، والمركب، والمسكن، والمنكح وغيرها، ومن كلّ هذه العيوب تتفرع عيوب ومساوىء أخرى.

الثاني: عيوب القلب، وهي تتعلق بالشهوات القلبيّة كحب الجاه والرياسة والعزّ، والكبر، والحسد، والحقد وغيرها ممّا يرد على القلب بالتخيلات والأماني الشيطانية، التي لا واقع لها بل هي مجرد وهم بعيدة عن الحقّ والحقيقة كلّ البعد.

الثالث: عيوب الروح، وهي ما تتعلّق بالحظوظ الباطنية، كطلب الكرامات والمقامات عن غير الصراطالمستقيم المبيّن من الشرع الأمين.

وهذه العيوب ـ عيوب النفس، وعيوب القلب، وعيوب الروح ـ كلّها تحصل ن متابعة الهوى والبعد عن الحقيقة، ومع هذه الأغيار كيف تستعدّ النفس للواردات الإلهيّة؟! وكيف تحظى بالرقي إلى المقامات العالية؟! أم كيف تصل إلى جنّة المعرفة؟! وكيف تشرق عليها الأنوار الربوبيّة؟! وكيف تخرق أبصار القلوب حجب النور حتى تصل إلى معدن العظمة؟. وكيف يمرّ على النار وأنها تناديه: «جز يا مؤمن فإن نورك يطفىء لهبي» المعدّة للمؤمن؟! وكيف يدخل الجنّة وهي التي أزلفت له وبه نال رضاءه تعالى عنه؟! وكيف يشفّع في قومه وهو يحمل أوزار نفسه؟! فإذا زالت هذه الأغيار ورفعت الأوزار واخترقت الحجب وأزيلت

الأستار، فحينئذٍ تحلّت النفس بالمعرفة، فالتخلية ثمرتها التحلية، والقرآن الكريم يحرص على إزالة هذه العيوب ورفع هذه الحجب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة ص، الآية:٢٦]، وقال تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [سورة طه، الآية:١٦]، وقال تعالى مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف، الآية:٢٨]، وقال تعالى كذلك: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النازعات، الآية: ٤٠، ٤١].

ولعلّ قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يشير إلى ذلك، أي التحلّي بأسمى صفاته ومظاهر أسمائه وهو العدل، فيستلزم ذلك التخلّي عن المساوىء والمفاسد والبعد عن أخلاق الشياطين كالكبر، والحسد، والحقد، والغضب، وكتمان الشهادة، والحدّة والبطر والأشر وغيرها، ولأجل ذلك أتى عزّ وجلّ بصيغة المبالغة (قوامين) الدالة على الشدّة وتهويل الأمر والتحمل مع التعب والمشقّة.

كما يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: شهداء لله وفي الله، غائبين عن وجودكم في شهوده بالوحدة، وهذا مقام أخصّ الخواصّ، لا شهداء لله الحاضرين مع الله بالفردانية، وإن كان ذلك مقاماً سامياً أيضاً وهو مقام الخواصّ، فضلاً عن الشهادة بالتوحيد وهو أوّل أصول الدين، وإن كان صحيحاً إلا أنّه يختص بعوام المؤمنين.

وبعبارة أخرى: تحصيل المعرفة والشهود بالوحدانيّة تارة، يكون بالدليل والبرهان، فهذا معرفة العوام، لعدم التقليد في أصول الدين.

وأخرى: بالمشاهدة والعيان، وهذا معرفة الخواص، وهي من أجل المقامات.

وثالثة: بالفناء عن ما سوى الرحمن، وهذا معرفة أخصّ الخواص.

وكذا الشهادة لله فتارة: تكون سمعيّة، وأخرى: عينيّة، وثالثة: فنائيّة بعد رفع حجب الأنانيّة عن النفس وإزالة الأغيار عنها بالتجريد، فإنّ الشهادة لو كانت على النفس لإحقاق الحقّ بإيصاله لأهله وكانت لله تعالى، استلزمت اضمحلال الأنانية والتطهير من الذنوب، خصوصاً لو كانت مخالفة للهوى، وكذا لو كانت على الوالدين والأقربين بنبذ العواطف النفسانية واللجوء إلى رضاء الحق وتقديم خشيته جل شأنه على رضائهما، من غير أن يبالي أن المشهود عليه كان فقيراً أو غنياً بعدما علم أن الغناء الواقعي في جلب رضاه جلّت عظمته والفوز فيه، فهؤلاء هم الذين أيدهم بروح منه ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ٢٢]، والحمد لله رب العالمين[١].

---

(١) ن.م، ج١٠، ص٢٧ ـ ٣٠.

تهذيب النفس وإصلاحها

الآية الشريفة[١] من الآيات الداعية إلى الاستكمال، وهي تتضمّن دعوة من الكمال المطلق الحقيقي لتوجيه النفس إلى التربية والتهذيب والإصلاح بترك كلّ ما يوجب البعد عن معدن الرحمة والعظمة والجلال والكبرياء، وتوجب القسوة وكدورة النفس، وقد فتح الله تعالى على عباده باباً سمّاه التوبة ودعاهم إلى السلوك فيه والدخول منه، وهو حرم الله الأكبر الذي مَن دخله كان من الآمنين، وجعل الطريق إليه اجتناب الكبائر والتكفير بالنسبة إلى علم الله تعالى الأزلي المحيط بحقائق الممكنات ـ كلياتها وجزئياتها ـ فالبحث عن السبق واللحوق لا وجه له حينئذٍ.

وأما إذا لوحظ ذلك بالنسبة إلى المتدرجات الزمانية، فهل يقتصر بالنسبة إلى الماضي أو المستقبل أيضاً؟ مقتضى كمال رأفته وعنايته الأزلية بعباده هو الأخير، ويمكن أن يستشهد له بما ورد في بعض الروايات من تأخير غفران الذنوب من عرفة إلى عرفة أخرى، أو من شهر رمضان إلى شهر رمضان قابل[٢].

---

(١) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

(٢) ن.م، ج٨، ص١٤٤.

الطاعة ومراتبها

المراد من الطاعة ـ التي هي الوسيلة للوصول إلى الدرجات الرفيعة السامية والأفق القريب منه جلّ شأنه، وهي التي أكدت عليها الآيات الشريفة ودعى إليها الأنبياء والأولياء بألسنة مختلفة واهتموا بها، لأنها المبعث لتكريم الإنسان ونيله أشرف المراتب وأجلّ المقامات، وهي الانقياد الكامل والامتثال مع الإخلاص لجلب رضا الحقّ وترك ما سواه.

ولها مراتب كثيرة ـ بل متفاوتة ـ حسب إخلاص العبد ومقام العبوديّة، بل حسب درجات الحبّ والمحبّة له جلّت عظمته، ففي الأثر: «إن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات». فأعلى مراتبها قتل النفس في الحقيقة وقمع هواها التي هي حياتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس، الآية: ٩ ـ ١٠]، وبالخروج عن عالم المادّة. ومن مراتبها تسليم النفس إليه تعالى ودوام المراقبة لها، كما ورد ذلك في روايات مستفيضة عن المعصومين عليهم السلام وفي الدعوات المأثورة عنهم، وفي الأثر: «كنا في طريق مكة، فإذا بشاب قائم في ليلة يناجي ربّه ويقول: يا من شوقي إليه، وقلبي محبّ له، ونفسي له خادم، وكلّي فناء في إرادتك ومشيئتك، فأنت ولا غيرك، متى تنجيني ـ إلى آخره ـ قلت له: رحمك

الله، ما علامة حبّه؟ قال: اشتهاء لقائه. قلت: فما علامة الفاني؟ قال: لا يعرف الصديق من العدو، ولا الحلو من المرّ من فنائه عن رسمه وجسمه. قلت: فما علامة الخادم؟ قال: إنّه يرفع قلبه وجوارحه وطعمه من ثواب الله ـ إلى آخره»، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل». وعن سيد العرفاء عليّ عليه السلام: «إلهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً لذلك فعبدتك».

وبالطاعة الحقيقيّة ينال الإنسان الدرجات الرفيعة والمراتب الشريفة، ويتجاوز عن حدّ الكمال ويصل إلى درجة التكميل، فتكون له المعيّة في الدرجة لا في الاتحاد ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ التساوي في كل جهة معه محال، كما ثبت في الفلسفة الإلهيّة.

كما أن العصيان والتجرّي بالإعراض عن طاعة الرحمن والإقبال على طاعة الشيطان، يصل الإنسان إلى أسفل الهاوية ومنتهى الهلاك، وإنّ له أيضاً مراتب، وعن نبينا الأعظم ﷺ: «كلّ أمتي يدخلون الجنة إلا مَن أبى. قيل: يا رسول الله، ومَن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى»، فإنّ إطاعته إطاعة الله تعالى، كما أن عصيانه كذلك، كما تقدّم.

وإنّما جعل سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة جزاء الطائعين لله والرسول مرافقة الأنبياء والصدّيقين والشهداء الصالحين، ولم يجعل ـ كما في غير الطاعة ـ الجنّات التي تهفوا إليها القلوب وتخلد فيها النفوس، لأنّ الطاعة ليست تكليفاً محضاً حتى يجعل في مقابلها جاءً، وإنما هي وسيلة لرقي النفس وسبيل للوصول إلى المرتبة الكاملة والنيل إلى المرتقى.

ومعنى رقي النفس ورفعها بالوصول إلى الشاهق الأعلى، هو معاشرتها ومصاحبتها مع سنخها من النفوس القدسيّة، كالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، لما ثبت في الفلسفة الإلهيّة وغيرها من أن السنخيّة في جميع الأشياء وفي جميع العوالم لازمة وموجودة، فمقتضى قانون السنخيّة في عالم المصاحبة والمعاشرة ـ الذي يكون في عالم الشهادة وعالم البرزخ وعالم الآخرة ـ هو أن تكون النفوس الخيرة مع أمثالها والنفوس الشريرة كذلك، لما بينهما من التباعد والتباين، فلا تلائم بين الصنفين أيضاً، فإنّ أرواح المطيعين ونفوس المؤمنين لا تميل ولا تستقرّ إلا مع النفوس التي تماثلها وتكون قريبة بينهم وفي أفقهم، أي من سنخهم، وهي النفوس الرفيعة القدسيّة.

على أن ذلك يلازم دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ولعلّ التعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وقوله تعالى في ذيل الآية المباركة: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾، يدلان على ما ذكرناه، والله العالم بالحقائق.

وفي الآية الشريفة إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يسعى في تكميل نفسه بالصلاح، ويترقّى إلى مرتبة الشهادة، ثمّ إلى مرتبة الصديقيّة، التي ليست بينها وبين مرتبة النبيّين أية واسطة إلاّ الوحي.

والحسن الوارد في قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ من الصفات التي لها مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً وكمالاً. وأن المراد من الحسن الحسن في الرفاقة في عالم الدنيا، ويستلزم الحسن في عالم الآخرة، بل لا يتمّ حسن إلاّ به[1].

(١) ن.م، ج٩، ص١٧ ـ ١٩.

من درجات الإيمان والاصطفاء

تقدم أن حقيقة الإيمان بالله جلّت عظمته إنما هي ارتباط خاص بين العبد وبين الله تعالى الذي له من الصفات الجمالية والكمالية ما لا يمكن أن يحدّها حدّ، فله القدرة والملك والتدبير والربوبيّة والرأفة والكمال والجلال، والعالم كلّه مظاهر جلاله وجماله وأسمائه وصفاته، وله التأثير التام في نظام العالم.

والإيمان ارتباط بين عالم الشهادة وعالم الغيب ارتباطاً اختيارياً، وهذا الارتباط الخاص الاختياري وإن كان في نظرنا أمراً عرضياً قائماً بالغير، لكنه في الواقع جوهر نوراني يضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض، وهو الركن الشديد الذي يعتمد عليه عند الشدائد والأهوال وفي مختلف الأحوال، وهذا الارتباط قد يقوى وقد يضعف، تبعاً لدرجات الإيمان، ويمكن أن يصل إلى حدّ الجذبة، فيصل العبد إلى مقام الاصطفاء وهو التجاذب التامّ من الطرفين، فالجذبة من ناحية العبد هي العبوديّة المحضة والانقطاع إلى ربّ العزة بكل همة، وجذبة الله ما هو متناه من كل جهة، فإنه يحظى من عطاء الله تعالى ولطفه غير المتناهي.

وفي الاصطفاء يظهر سرّ العبودية والامتحان الإلهي، وفيه تبدو

الأخلاق الكاملة الربانيّة، وهو مظهر الكمالات والتحليات، والمصطفى (بالفتح) هو الإنسان الكامل الذي يكون قطب رحى الوجود، يتشرّف أهل الأرض بوجوده، ويترقب أهل السماء لقاءه، فهو الأمان من كلّ شرّ، وبه يدفع كل بلية وعظيمة، وهو الذي باهى الله تعالى، الملائكة بخلقه وإيجاده، وهو عرش الرحمن، وهو واسطة الفيض الإلهي على سائر الخلق.

وتختلف درجات الاصطفاء حسب اختلاف درجات الفضل، ورأس كلّ مصطفى ورئيسهم أشرف الكائنات على الإطلاق وسيد الخلائق، مجمع كلّ فضيلة ومكرمة، ومظهر كلّ فيض ورحمة، خاتم الأنبياء الذي وصل إلى ما لم يصل إليه أحد من العالمين في الأخلاق الساميّة والكمالات الإنسانية، حتى وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى بما لم يحظ به الأملاك والأفلاك، ويلحق به أهل بيته الذين هم من البضعة الطاهرة الصدّيقة، التي تربت في حجر رسول الله ﷺ، ووصلت إلى مقام الرضا لأبيها، وهو القائل فيها: «فاطمة مني يرضيني ما يرضيها ويغضبني ما يغضبها». وهي مستودع علم رسول الله ﷺ ومظهر أخلاقه القدسية، والذرية الطيبة من نسلها، وهم المعصومون المطهّرون الممتازون عن سائر الخلق خلقاً وخلقاً، وهم أسرار الله تعالى ومظهر أسمائه وصفاته ومحال تجلياته الخاصة ومبلغ أمره ونهيه، وهي من تلك الذرّية المصطفاة، التي تبقى هذه الذرّية إلى آخر الدهر لتقيم العدل وتمحق الجور.

ومن تلك الذريّة المصطفاة مريم العذراء أم المسيح كلمة الله التي اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين ومظهر تجلّيات الله تعالى وأسمائه

عز وجل، فهي البرّة التقية العابدة الزكية الطاهرة النقية محل إبداع الله عزّ وجلّ ومورد امتحانه تعالى ومستودعة سرّه، وهي المنذورة لله تعالى في الطاعة والإخلاص من قبل أمها الطاهرة المصطفاة أيضاً المنقطعة إليه عزّ وجلّ كمال الانقطاع، حتى أنها ألقت على نفسها أشد أنحاء العطف والحنان بالنسبة إلى وليدتها، إخلاصاً لله وقدّمتها إليه عزّ وجلّ، من دون أن يكون في قلبها شيء سوى محبة الله تعالى، فحظيت مقام المحبة فيه عزّ وجلّ، ولفتحت لها أبواب الاصطفاء فصارت بمنزلة جدّها الخليل، حيث قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الصافات، الآية:١٠٢]، ولا بدع في ذلك فإن الذرّية بعضها من بعض، وأن الذرية بمنزلة الروح لهذا العالم وهو بمنزلة الجسد لها[١].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) ن.م، ج٥، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

درجات الإيمان

الآيات الكريمة المتقدمة[١] تبين درجات الإيمان عند المؤمنين ومنزلتهم العظيمة عند الله وأنبيائه الكرام، فإن الحوار بين الذين سألوا نبيهم نزول المائدة قد ألهموا الإيمان وأسلموا لله حق التسليم فلم يشك في إيمانهم، إلا أن الإيمان المعتمد على مشاهدة الآيات يختلف عن الإيمان الحاصل عن عقيدة وبرهان يدخل في القلب وينبث على جميع المشاعر كانت آيات أو لم تكن وقد قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) ولعل الحواريين استشعروا هذا الأمر فأرادوا المزيد لتطمئن قلوبهم ويدل على ذلك اقتران الغايات التي ذكروها في نزول المائدة بالغايات المادية وهي الأكل واستنكار عيسى بن مريم عليه السلام اقتراحهم بدء الأمر وتعظيمه مع ما رأوا الآيات البينات الباهرات وقد كانت واحدة منها تكفي في الإيمان كما أن نفس صيغة السؤال فيها الإبهام والإجمال بحيث يوجب تشويش ذهن المخاطب ولم

---

(١) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾.

تكن تشبه ما يسأله العلماء العارفون وحق لنبي الله تعالى أن يستعظم الأمر بعد ذلك السؤال من حواريه الذين هم خلص أصحابه فكيف بغيرهم وقد أتعب نفسه الشريفة في سبيل هدايتهم وتحمل أنواع الأذى والمشاق في تربيتهم فإن الذي يتربى في حجر الأنبياء ويكون معهم ليلاً ونهاراً ولم ينفك عن مشاهدة أحوالهم ويتلقى علومهم وآدابهم يعرف كيف يلقي السؤال ويطلب شيئاً من الله تعالى فإن للعبودية آثاراً وآداباً خاصة مع الخالق العظيم، ولذا ترى بدل المسيح عيسى بن مريم ذلك السؤال إلى آخر فيه منتهى العبودية والخضوع والتسليم والأدب البارع مع ربه الكريم وقد أعرض عن سؤالهم لما فيه من الفجاجة وعدم اللياقة في مواجهة من لا نهاية لكبريائه وعظمته وهو المعروف بحسن الأدب مع الله تعالى الذي له موضع آخر للبحث فيه فلما عرف عيسى بن مريم مطلبهم ومبتغاهم وعلم أنه الذي يريدونه قد يطلبه الأنبياء الكرام كما في سؤال إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) ولكن كل على حسب درجاته من القابلية لتلقي الفيض فأدرج نفسه الشريفة في الطلب فسأل بارئه عز وجل وجمع في دعائه ما يوجب القبول فعظم وأثنى وأقر بالفقر والمسكنة وطلب تلك الآية العظيمة التي فيها من العوائد والفوائد الكثيرة المادية منها والمعنوية فأكلوا وشربوا وانتعشوا غاية الانتعاش واستشعروا غاية الاطمئنان وعرفوا أن الغذاء له الأهمية الكبرى في تصفية النفس وتهذيبها والمستفاد من القرائن أنها آية جامعة حاوية لكثير من الدلالات ولذا جعلها عيسى بن مريم عليه السلام عيداً يعود كل عام ليستفيدوا من دلالاتها المعنوية ولا ينفكوا عن نبيهم العظيم الذي لم يرد إلا الخير لهم ولا عن تعاليمه التي لم تكن إلا تعاليم طاهرة تطهر النفوس من درن المعاصي والآثام، فهي بحق آية عظيمة ولعلها كانت آخر الآيات التي نزلت لجمع

المؤمنين به وتربطهم برابطة قوية ثم رفع إلى السماء ولكن حذرهم أشد التحذير فإن الكفر بالنعمة من أسرع الذنوب عقوبة واعتبر عذابه عذاباً خاصاً بهم إذا كفروا فإنهم أرادوا الاطمئنان لقلوبهم من تلك الآية فإذا أبدلوه بالشك والكفران فلا محالة يستحقون عذاباً خاصاً شديداً لا يتعداهم إلى غيرهم فإن اطمئنان القلب الذي أراده هو آخر المطاف في درجات الإيمان التي استدرجوا فيها وقد صار مشهوداً على غيرهم ولا ريب أن الكفر بعد ذلك العلم الشهودي يستوجب عقوبة شديدة فكانت هذه الآية عبرة لكل من يريد الاستفادة من سيرة الأنبياء العظام (صلوات الله عليهم) فهي بمضمونها وغاياتها وأسلوبها وغير ذلك مما هو كثير فإن فيها الاعتبار ويستفيد من رموزها وآثارها الكثير ممن له الاستعداد والقابلية[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٢، ص٦٤٨.

من آثار الإيمان

من أجلّ الصفات الإنسانية وأسماها الإيمان بالله جلّت عظمته، وهو انقياد النفس وخضوعها له تعالى بالالتزام بالشريعة والعمل بتكاليفه، وللإيمان آثار أهمّها الزجر والجذب.

أما الزجر: فهو الانتهاء عما يدعو إليه الشيطان من الأعمال القبيحة والعقائد الفاسدة والأخلاق الرذيلة، التي تصدّ الإيمان وتعوق عن رقي المؤمن بالتقرّب إليه تعالى، كالرياء والعجب والبخل وغيرها، وكذا الأعمال التي فيها الفساد ـ اجتماعياً كان أو شخصياً ـ كهتك الأعراض وسلب الأموال وإراقة الدماء من غير مبرر شرعي، وكذا الأخلاق الرذيلة كالكبر، والأنانية وغيرهما. فإنّ المرحلة الأولى من توجّه النفس وتربيتها تتوقف على ترك تلك الأعمال القبيحة، وطرد تلك العقائد الفاسدة والبُعد عن الأخلاق الرذيلة.

وذلك عبّر القرآن الكريم في القتل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، لأنّ الإيمان به تعالى بنفسه زاجر عن القتل العمدي، فلا يليق بحال المؤمن أن يقتل مؤمناً، وإذا عرض له قتل المؤمن من باب الاتفاق ـ أي الخطأ ـ لأنّ الإنسان مجبول على أن يكون محلاً لأن يعرض له الخطأ يتداركه بالكفّارة التي هي نوع من العقوبة لما حصل له من التقصير بترك الاحتياط الذي صار سبباً لفقد حياة فرد من أفراد

المجتمع، فيكون بذل المال بالتحرير نوعاً من تربية النفس وتوجّهها إليه تعالى، فإن لم يجد ذلك ولا يمكنه نيل هذه المرتبة من التزكية، فلا أقل من ترك الدنيا والتوجّه إليه جلّ شأنه بالصوم ليذوق وبال خطيئته، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البلد، الآية: ١٤]، ولذا قال علماء السير والسلوك: إنّ أول قدم السالك أن يخرج من الدنيا ما فيها، وثانية أن يخرج من النفس وصفاتها.

وأمّا الجذب: فهو القابلية للنيل إلى المقامات التي تحصل بها العبوديّة المحضة ومنتهى التقرب إليه جلّت عظمته، بل الفناء في سبيل الذي يتحقق بالخلع عما سواه تعالى. ولهما مراتب كثيرة جداً، ولكلّ مرتبة منها درجات حتى تحصل المثليّة، كما في بعض الروايات الواردة في النوافل، والغور في البحث مستلزم الخروج عن الموضوع، ولم أر مَن يليق بذلك في زماننا هذا.

وبهما يتمّ الإيمان، وفي إحداهما ـ أي الزجر ـ دون الآخر لا يتحقّق الإيمان وإن اتصف ذلك بالحسن، فإن ترك القتل حياءً أو لأجل القوانين الوضعيّة في حدّ نفسه حسن، ولكن لا يترتّب عليه الأثر المترتّب على الإيمان، وكذا البعد عن الصفات الذميمة أو التخلّق بالأخلاق الحسنة لو حصلا من الكافر، فإنّه في حدّ نفسه متّصف بالحسن، وقد يترتب عليه الآثار الوضعيّة المترتبة على ذلك، ولكن الأثر الخاص المنبعث من الإيمان بالله تعالى لا يترتّب عليه، كما تقدم في أحد مباحثنا السابقة[1].

---

(١) ن.م، ج٩، ص١٦٢ ـ ١٦٣.

الإخلاص

الأفعال الصادرة عن الإنسان في حقيقتها ـ تكون كالأشياء النامية ـ لها صورة خارجيّة وروح يمتاز بها عن أفعال سائر الحيوانات، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات في عالم الإمكان مركّب في واقعه من جسم وروح، وكذا أفعاله لها صورة ـ وهي عبارة عن ما يتشخّص في الذهن من الكيفيّات، وهذا يعمّ جميع أفعال الحيوانات ـ وروح يتفرّد بها عن بقيّة الحيوانات، وهي أمر معنوي يحصل من التوجّه إلى الباري جلّ شأنه والسوق إلى الخالق جلّت عظمته ـ ولا ربط له بالإرادة ـ وأثره إفراد القلب له تعالى بارتباطه إلى ساحة كبريائه والتبرّي عن كلّ ما دونه تعالى، وهو الباعث لتحقق الإضافة إليه تعالى، التي هي السبب لتحقّق الفعل خارجاً، وإذا وجد الفعل بدونها كان مجرّد صورة، كالأفعال التعليميّة.

ويعبّر عنه في الكتاب والسنّة بالإخلاص في الأفعال العباديّة أو المضافة إليه تعالى، المتفرّد بها الإنسان عن غيره، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة، الآية: ٥]، فكما لا قيام للأشباح إلاّ بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك الأعمال العباديّة،

فلولا الإخلاص والروح المعنوي فيها كانت مجرد شبح وهيكل، ومراتب الإخلاص كدرجاتها تختلف حسب درجات الإيمان، كما يأتي.

حقيقة الإخلاص:

وهي من الحقائق المحجوبة ولا تعرف إلاّ بالأثر، ولا يمكن وصفها وإن أدركها العرفاء الشامخون، فإنّها تشرق على القلب وتنوّر النفس ويتشرف المؤمن بالإخلاص إلى أعلى مراتب الكمال بلذّة ذل العبودية له تعالى، وبه يخرق الحجب ويصل إلى معدن العظمة، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّه سئل عن الإخلاص فقال ﷺ: حتى أسأل جبرائيل، فلما سأله قال: اسأل ربّ العزّة، فلما سأله قال له: هو سرّ من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده»، وعن سيد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام: «هو أن تعبد الله كأنّك تراه»، فحقيقة الإخلاص يدركها الخلّص من عباده، ولكنّها لا توصف، والإخلاص من أعلى مراتب التفويض.

درجات الإخلاص:

كما أنّ للعبودية درجات، ولكل منها مراتب، ولكل مرتبة منزلة حسب درجات الإيمان ومراتب المعرفة ومنازلهما، وأن التقرّب لديه جل شأنه يحصل بجميعها، وأن أسمى المراتب وأعلى الدرجات قبوله عزّ اسمه بالعبودية ـ وإن كان للقبول مراتب أيضاً ـ فإنه هو الفوز العظيم، فعن بعض العرفاء: «قيل له بعد وفاته ـ في الرؤيا ـ: كيف حالك مع الملكين (النكير والمنكر)؟ فقال: لما قالا لي: مَن ربّك؟ قلت لهما: اسألا ربي، فإن قال: هو عبدي وأنا ربّه، يكفي، وإلا فلو قلت: هو ربّي وأنا عبده مراراً لا يفيد بلا قبوله»، كذلك للإخلاص له درجات،

وفي كلّ منها مراتب، وفي كلّ مراتبه أنواع أهمّها وجامعها أقسام ثلاثة: إخلاص العوام، وإخلاص الخواص، وإخلاص أخصّ الخواص. وإن شئت قلت: مطلق الإخلاص، وإخلاص المحبّين، وإخلاص الموحّدين.

والأول: هو الإخلاص في العبادة لأجل الحظوظ ـ سواء كانت دنيويّة أم أخرويّة ـ كحفظ البدن وسعة المال والقصور والحور.

والثاني: لأجل السعادة الأُخرويّة والدخول في الجنّة دون الحظوظ الدنيوية.

والثالث: هو إخراج الحظوظ بالكليّة، بل الإخلاص لأجل جنّة الشوق بالقرب له جلّت عظمته: «وفؤادي ليس فيه غيره».

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب كما مرّ، وأنّ جميعها حسن إلا أن أسماها وأعلاها القسم الأخير، وفي دعاء كميل: «هب لي صبرت على حرّ نارك، فكيف اصبر على فراقك»، وعن سيد العرفاء المتألّهين الشامخين أمير المؤمنين عليه السلام: «إلٰهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً لجنّتك، بل رأيتك أهلاً لذلك فعبدتك»، وعن بعض العرفاء المتألهين:

ليس سؤلي من الجنان نعيماً غير أنّي أحبّها لأراكـ

ولهذا القسم درجات ومراتب، نسأل الله العظيم الفوز بمرتبة منها، ولا تنال هذه النعمة الكبرى إلاّ لمَن عصمه الله تعالى وأمدّه بحقّ اليقين بالتجلّي له، وكشف الأسرار له بإفاضة العلوم عليه، وقرّبه إلى ساحته بخلع الأنداد عنه، وكرّمه بتطهير النفس بمخالفة الهوى ونبذ الأغيار، وشرّفه بالرقي إلى مقام عرفانه بالتوجّه إليه والقرب لديه.

منافيات الإخلاص:

الصفات الحميدة تقابلها الحالات السيئة، وتفسدها الصفات المنافية لها، فالشجاعة مثلاً يفسدها الخوف، لأنه ينافيها ولا يمكن الجمع بين المتنافيين في النفس وكذا القناعة ينافيها الحرص والجشع، كما أنّ الزهد ينافيه طول الأمل، وكذا غيرها من الصفات.

والإخلاص ينافيه أمور كثيرة، لأنّ سبب الإخلاص لله تعالى المعرفة والخوف، فإذا زال أحدهما لم يتحقّق الإخلاص، وأهمّ ما ينافي الإخلاص أمور:

منها: الريا ـ نستجير بالله العظيم منه ـ فعن نبينا الأعظم ﷺ عن الله تعالى في القدسيات: «أنا أغنى الشركاء، من أشرك معي غيري تركته لغيري». وعنه ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمّتي الشرك الخفي، وهو الريا»، وغيرهما من الروايات، وأنّه دقيق جداً، «أدق من دبيب النمل في صخرة ملساء»، وسببه حبّ الدنيا بأقسامه، وللتخلص منه طرق كثيرة لا يسع المجال للتعرّض لها.

ومنها: العجل بالعمل، فإنّه مناف للإخلاص وقادح في كمال العمل، وقد ورد في ذمّه روايات كثيرة.

ومنها: الاستهانة بالعمل ـ تحقيره ـ كما دلّت عليه روايات كثيرة.

ومنها: الإيكال في الأمور على غيره تعالى، سواء كان على النفس أو غيرها.

ومنها: التعمّق في حكمة الأشياء والبحث عن حِكَم الأحكام الشرعيّة، فإنّه مناف للإخلاص، كما دلّ عليه بعض الروايات، فعن نبيّنا

الأعظم ﷺ: «إيّاكم والغلو في الدين»، أي: البحث عن عللها وغوامض متعبّداتها، وعن بعض مشايخنا من أهل العرفان ادّعاء التجربة في ذلك.

ومنها: عدم الثقة بالله العظيم، فإنّ ذلك مناف للإيمان، فكيف بالإخلاص، وإنّه من المعاصي الكبيرة على ما فصّل في محلّه.

وهناك أمور أخرى منافية للإخلاص، ذكرها علماء الأخلاق ومشائخ العرفان في كتبهم ورسائلهم، ومن شاء فليرجع إليها.

الفرق بين الرضا والإخلاص:

تقدّم أن للإخلاص مراتب، أدناها مرتبة الرضا، بل هو كتمهيد له، ولذا أنّ الإخلاص يتضمّن الرضا ولا عكس، هذا كلّه في العبيد. وأما رضائه تعالى، فهو عين محبته، وإنّ محبته عين إخلاصه، فلا يمكن التفكيك بينهما.

ومما ذكرنا يظهر أنّ للرضا مراتب ودرجات، وأنّ أسماها هو التفويض، وأن أعلى مراتب التفويض الإخلاص، الذي هو مختص بالأولياء والصالحين.

وأن الصفات الحسنة المذكورة في الآية المباركة من الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، إذا كانت صادرة لابتغاء مرضاته تعالى وخالصاً لوجهه الكريم، كان ذلك مظهراً من مظاهر أسمائه، ويكون أدوم وأنفع للمجتمع ـ كما تقدّم ـ وإلا فالأمر إضافي[1].

---

(١) ن.م، ج٩، ص٢٧٤ ـ ٢٧٨.

مقام الشهود أهم النعم للمخلصين

الآيات الشريفة(١) تدل على أهم النعم الربوبية على عبد من عباد الله الذين اصطفاهم الله تعالى وأحاطهم برعايته وأوصلهم إلى مقام قربه وجعلهم شهوداً على خلقه يستشهد بهم وهو العالم بحقائق الأحوال، والعليم بالأسرار والإعلان ولكنه الحكيم القادر المتعال ينصب الموازين ويقيم الشهود لإتمام الحجة وإحكامها على العباد وبيان ما يستحقونه من الجزاء اعترافاً منهم بذلك، فهؤلاء الشهود هم أصفياء الخلق وأحباء الله والمخلصون من عباده تربوا بتربية الله عز وجل وتأدبوا بآدابه، راقبوا أنفسهم في دار الدنيا أشد مراقبة وأفنوها في سبيل الله حتى وصلوا إلى مقام الشهود، فلم يكن لهم شغل إلا معرفة الله تعالى بمعرفة أنفسهم وإصلاحها بما يرضي الله وأشغلهم ذكره عن كل أمر، ومقام الشهود من أجل المقامات التي لا يمكن أن يصل أحد إليه إلا بعد طي مراحل

---

(١) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

العبودية والفناء في ذات الله والوصول إلى ساحة قربه تعالى، فتراهم من فرط الحب وما غشيهم من جلاله وجماله أنهم تاهوا فلم يقدروا أن يثبتوا لأنفسهم مقاماً وتحير لبهم وبهتوا فلم يتمكنوا من الجواب لأن المقام عظيم فقد فازوا بالمشافهة، وكيف لا يطير لبهم؟! وهم قد ولهوا في حبه والآن وصلوا إلى مشافهة الحبيب.

ولعمري إن تصوير ذلك في الذهن يودي بالمحب لو ما تدركه العناية الربانية التي اقتضت أن لا يهلك المحب ويبقيه ليدرك لذة الحضور لدى جنابه وهذه غاية من أهم الغايات ومقصد دونه جميع المقاصد.

ويكفي في عظمة مقام الشهود هذا الأثر العظيم فما بالك ببقية الآثار وهم لم يتمكنوا من الجواب إلا أن يعترفوا بما طرأ عليهم من سطوات الجلال ويوكلوا الأمر إلى علمه الأتم فهو علام الغيوب يعلم حال الشهود وما غشيهم من لذة الشوق وفنائهم في ذاته ويعلم حال المشهود عليهم بما صدر منهم من الاستكبار والنكوص عن الطاعة فلعل الله تعالى يرحمهم كما رحم الشهود بمظاهر جماله فهو الحكيم فيفنيهم تارة ويبعثهم أخرى ويعاملهم بالقهر ساعة ويخاطبهم باللطف أخرى، وهذا حال الشهود في الدار الأخرى.

وأما حالهم في الدنيا فقد منحهم الله عز وجل أنواع النعم وأكرم عليهم جميع ألطافه وجعلهم مظاهر رحمته وجماله وقد شهدوا أنفسهم بالمراقبة والمحافظة وأتموا الشهادة لله تعالى حتى وصلوا إلى المقامات العالية وجرت على أيديهم أنواع الآيات وأيدهم بتأييداته من حين طفولتهم التي تحتاج إلى الرعاية والإحاطة الربانية إلى وصول مقام الأنس

فلم تختلف أحوالهم صغراً وكبراً فكان كما قال عزّ وجل: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وتكلم الناس في المهد إنما هو لبيان آثار رحمته وتعريف الناس بمظاهر قدرته الكاملة وسلطانه الأتم وإعلان علمه الأكمل وقد نطق بتنزيه الله وتقديسه واستمر على ذلك فلم يرجع عما صدر عنه في أول عمره فهؤلاء هم الأنبياء والشهداء الذين يشهدون على الخلق في يوم الجمع وقد علمهم الله الحقائق والمعارف الواقعية فصاروا هم حقائق لا يمكن أن يدركهم أحد إلا أن من أدركته عناية من الله تعالى فطهروا أنفسهم بالعلم والتقوى ونقوا قلوبهم عن لوث الطبائع فأوحي إليهم الإيمان بالله وبرسوله ونوّر عقولهم بنور المعرفة فصاروا حواريين أتقياء نجباء نقيّات نفوسهم وخلصوا وأخلصوا فاتخذهم عيسى عليه السلام خلصاً له يمنحهم من فيوض علمه ويكرمهم من ما منحه الله من آلائه ونعمه يشاورونه في مهاماتهم ويشاورهم في تطبيق شريعته[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٦١٦.

الصلاة من أهم أسباب تزكية النفس

من أسباب تزكية النفس ورقيّها الصلاة، بل هي من أهمّها وأسماها ـ لما علم الله تعالى من وجود الشره المؤدي إلى الهلاك والخسران في الإنسان، جعل الطاعات والعبادات ـ خصوصاً الصلاة صوناً للنفس وحفظاً لها عن الهلاك والخسران، بل لرقيها إلى مراتب الكمال، ففي الحديث: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحبّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة تعبد به ملائكته، فمنهم راكع وساجد وقائم وقاعد»، فبها يزول الدنس كما في بعض الروايات، وإنّها مطهرة للقلوب من المساوىء والعيوب، وبها تفتح أبواب الغيوب، وبها تطمئن القلوب، وبها ترفع الدرجات، وفيها المناجاة برفع الأستار، وتتسع فيها ميادين الأسرار، وبها تشرق شوارق الأنوار، وبها تزال الحجب والأستار بالقرب إليه، وبها تصفو المحبّة من كدر الجفاء ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفا.

ولقد علم الله تعالى ضعف الإنسان ووساوس الشيطان، فقلّل أعدادها وفرض في ليلة المعراج خمس صلوات في خمس أوقات بشفاعة نبيّنا الأعظم ﷺ، وهذا لعوام الخلق، وإلاّ فالعارفون من الخواص: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴿٢٣﴾﴾ [سورة المعارج، الآية: ٢٣]، منحهم

ديمومة الصلاة من الأزل إلى الأبد، وهذا لا يدرك بالعقول القاصرة المشوبة بالمادة الزائلة، فلا يعقلها إلا العالمون بالله تعالى.

وإنّ المقصود والأثر المطلوب من إقامة الصلاة معنويّتها، لا مجرد وجودها وشبحها، فإنّ الإقامة هي الإكمال والإتقان، يقال: (فلان أقام داره)، أي: أكملها وجعل فيها كل ما يحتاج إليه. وإنّ إقامة الصلاة تعديلها من جميع الجهات ـ بالتوجه فيها إليه تعالى والتقرب بها لديه جل شأنه وحفظ أركانها وشرائطها حتى تترتب آثارها ـ فليس كلّ مصلّ مقيم، وكم من مصل ليس له من صلاته إلاّ التعب، وفي بعض الأحاديث: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعداً»، وعن نبينا الأعظم ﷺ: «إذا صلّى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، لفت كما يلف الثوب الخلف ثم يضرب بها وجهه»، فالمصلّون كثيرون والمقيمون قليلون وأهل الأشباح كثير وأهل القلوب وأرباب المعرفة قليل.

والتعبيرات الواردة في القرآن الكريم في مدح المصلّين أكثرها وأغلبها جاء بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة، الآية:٣]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم (عليه أفضل الصلاة والسلام): ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة الحج، الآية:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة التوبة، الآية:١٨]، ولما ذكر المصلين بالغفلة قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [سورة الماعون، الآية:٤، ٥]، ولم يقل سبحانه وتعالى: فويل للمقيمين الصلاة، وفي الحديث: «أنّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت

الملائكة من لدن منكبه إلى الهوى يصلون بصلاته»، إلى غير ذلك من الروايات والأحاديث.

والتوجّه أو الخشوع فيها على مراتب:

الأولى: خشوع خوف وإذلال وانكسار لعظمته وقهّاريته، وهي للعبّاد الزهاد.

الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهي للمتّقين الأبرار.

الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهي للمقرّبين العارفين، ويسمّى هذا المقام بقرّة العين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة ألم سجدة، الآية: ٢٩].

الرابعة: الجمع في مقام الجمع، وهذه تختص بالأولياء والمقربين، فيها تتمّ التصفية وتظهر المحبّة وتفتح الأبواب ويرتفع الحجاب، فتخرج الروح من ضيق الأشباح إلى فضاء الكمال في عالم الأرواح، أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت.

ولا شكّ أن إمداداته وإفاضاته جلّت عظمته غير محدودة بحدّ ولا بزمان معين، لصدورهما عن ذات غير المتناهي.

نعم، ترد على العبد حالات خاصّة وظروفاً معيّنة يكون التوجّه فيهما إليه أشدّ وأكثر، فلها آثار مخصوصة لنجح المقاصد وإنجاز المطالب، منها حالة الصلاة، خصوصاً عند الانقطاع إليه تعالى كالسفر والخوف والمرض وغيرها، ولأجل ذلك ورد الاستعانة بها وقالوا: إنّ الصلاة لا تسقط في أي حال، لأنّه لا بد للعبد من حفظ الصلة بينه وبين ربّه، وبها تتمّ المحبة وتحصل المودّة[١].

---

(١) ن.م، ج٧، ص١٤١ ـ ١٤٢.

نــار الشهــوات

يمكن أن يكون المراد من (عن النار) في قوله تعالى) ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ نار الشهوات المادية الجسمانية، التي هي أصل النار الكبرى ومادّتها. ويراد بالجنّة جنة التفاني في مرضاة الله تعالى، التي هي أعلى من جنة عدن بمرات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٢]، فإنه لا فوز أعظم من ذلك، وإنّ جميع الممكنات دونه نزر يسير، فتكون الآية الشريفة في مقام بيان حقيقة أولياء الله تعالى الذين أماتوا أنفسهم بالاختيار، واستخرجوا النفس الأمّارة من جحيم الشهوات، ففازوا بلقاء الله تعالى وشربوا من عيون الحياة المعنويّة واستشرقوا بشوارق الأنوار الأزليّة، وجعلوا متاع الغرور تحت أقدامهم، فابتهجوا بابتهاجات غير متناهية في المدّة والعدّة، كما ابتهج العرش الأعلى بوجودهم.

والآيات الشريفة المتقدمة من آيات السير والسلوك إلى الله تعالى، فإنّها ترشد الإنسان إلى الكمال وتبيّن أن الوصول إليه صعب المنال، فلا بد من الصبر والتقوى وخلع النفس الأمّارة بالسوء التي لها منابت في النار.

كما أنّها ترشد المؤمنين إلى التحلي بمكارم الأخلاق وتذكّرهم فيها ببعض مساوىء الأخلاق، التي تبعدهم عن الواقع وتوقعهم في المهالك والردى[١].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) م.ن، ج٧، ص١٤١ ـ ١٤٢.

العبودية

العبودية الحقيقية لله تعالى جوهرة كنهها الربوبية، والتفاني في مرضاة الخير المطلق خير مطلق، ويصير العبد بذلك محبوباً لدى الجميع من دون أن يكون في البين واسطة وشفيع، بل يصير العبد بها محبوب الممكنات وتشرق عليه الشوارق من ربّ البريات.

ألم تر أنّ البدر يشرق ضوؤه بصفو غدير وهو في أفق السما

فإنّ استغراق العبد في العبودية المحضة تلذذ من الجمال المطلق الأتم واستشعار بالكمال الأرفع الأهم، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون، وفي مثل هذه المرتبة تتحد الحقيقة والفعل والفاعل، وحينئذٍ يقصر القلم عن البيان ويكلّ اللسان عن الكلام.

وحيث لا يجد المدّعون لعبودية الله تعالى هذا المقام في أنفسهم، ويعترفون بعدم وجدانهم له، فلا بد أن يعترفوا بعدم وجدانهم لمقام العبودية المحضة، فإنّ عدم المعلول يكشف عن عدم العلّة، وكيف يصل أحد إلى هذا المقام وهو منغمر في الشهوات وأليف الغفلات.

وإنّما يعبد العابدون أهواءهم النفسانية التي أفنوا جميع حيثياتهم وشؤونهم فيها ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٣].

والعبودية الحقيقية هي التي تظهر آثارها على العبد، فلا يصدر منه معصية ولا يخطر في باله غير رضاء الرب، وفيها قال عليّ عليه السلام: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، واحذره أن يراك حيث نهاك».

وإنها إذا استولت على القلب فلا يشغله شاغل من الشواغل المادية الدنيوية، ولا يمنعه مانع من الإنفاق في سبيل الله تعالى، فإنّ الخلق كلهم عيال الله عز وجل.

والعبودية الحقيقية إضافة بين المعبود والعابد، وهي دواء لجملة من الأمراض النفسانية الروحانية، وفيها سرّ الخلوص والإخلاص.

والعبد يبذل المال اليسير والإنفاق في سبيل الله يرتبط بذلك مع عالم لا نهاية لعظمته ولا حد لجهة من جهاته، فيتضاعف بنفس الإضافة التشريعية أضعافاً مضاعفة، لا في الدنيا فحسب، بل في كلّ عالم يظهر فقر الإنسان الذاتي من كل جهة، ولو أردنا بيان الأدلة السمعية والشواهد العقلية لطال المقام.

فالإنفاق إما لأجل حبّه من حيث هو كمال للإنسان، كان الإنسان جواداً بنفسه، أو لأجل رضاء الله تعالى أو لأجل حبّ المنفق عليه حباً يرجع إليه عزّ وجلّ، فجميع ذلك يرجع إلى نفس العبد المنفق ويكون كمالاً له، ويستكمل به استكمالاً حقيقياً تتبعه السعادة الأبدية، وهي غاية خلق الخليقة، وتلزم ذلك السعادة الدنيوية والكمال الدنيوي الزائل، فلا استمال إلا بالإضافة إلى الحيّ القيوم، وكلّ من أهمل ذلك، أهمل غاية خلقه وسعى في تعطيلها وتضييعها.

والإضافة إلى الله تعالى لا بد أن تكون عن طريق الوحي المبين المنزل على سيد المرسلين، كما أن أصل العمل المضاف إليه يجب أن يكون كذلك، وإليه تدعو جميع الآيات والسنّة المقدسة والأدلة العقلية.

وبذل المحبوب في مرضاة المحبوب من طرق إثبات خلوص المحبة وصفاء المودّة، ويتضاعف ذلك حسب تضاعف عظمة المبذول له وأهميّة الوصول إلى قربه ورضوانه، ونفس هذه الإضافة توجب للباذل درجة رفيعة مع قطع النظر عن سائر الجهات، ولذلك أجمل سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٠]، فالعين موجودة عنده سبحانه وتعالى ولا يعقل فناؤها، لكن مع إضافات لا تتناهى، وكلّ ما ورد فيه من التحديد، فإنما هو بحسب موجودات هذا العالم لا بحسب الواقع الذي يطلق عليه (عند الله) أو (عند الربّ)، ولا معنى للربوبية العظمى إلا تربية ما يصل إليه بما يليق به.

وأما الملكية، والمالكية، والاختصاص، فإنّها إذا لوحظت بحسب هذا العالَم فهي قابلة للتغيّر والتبدل، ولكن الإضافة الواقعية وهي سبيل الله والحق المطلوب له، باقية لا تزول، بل تنمو وتزداد بالعناوين الخارجية، ولا يحدها الزمان والمكان ولا غير ذلك من ملابسات الفعل

وذلك، فكلّ إنفاق يصدر عن غير ذلك ولا يقصد به الحقّ المتعال، يكون من ترجيح المرجوح على الراجح، الذي هو قبيح عقلاً، ولا نصيب للفاعل منه في الآخرة، فقد ذهب المال وبقي الحسرات[١].

(١) ن.م، ج٤، ص٣٥٩ ـ ٣٦١.

العبودية

من المعلوم أنه لا كمال أرفع وأجلّ وأعلى من العبودية لله تعالى، فهي فوق الرسالة والنبوّة، والولاية، بل بها تنال تلك المقامات الرفيعة، والدرجات العالية ولا غاية لها إلا جماله وجلاله جلّت عظمته، وبما أنهما غير متناهيين، فلا يعقل التناهي فيها أيضاً، وكيف يعقل لها حدّ خاص وهي التفاني في مرضاة الله تعالى. والعبودية جوهرة لا يعلم كنهها إلا الله سبحانه. ولكن آثارها عظيمة، فهي التي تهيء العبد لنيل الكمالات الواقعية، والسعادة الحقيقية، والعبد يكون مظهراً من مظاهر تجلّي الله تعالى، وتظهر آثار العبودية على جميع جوارحه، وأفعاله، وأقواله ولحظاته، فلا يخرج لحظة عن طور العبودية وزيّ الرقية، ولا يعقل لمثل هذا العبد أن يدعو إلى غير الله تعالى ويتّخذ غيره عز وجل رباً، فإنه خروج عن الفطرة واستبدال الطيب بالخبيث، الذي هو قبيح عقلاً.

والآية الشريفة[١] ترشد الناس إلى نبذ كلّ أنحاء الأنانية، وتدعو إلى العبودية الحقّة، والتوجه إلى الله الواحد الأحد، والإعراض عن كل

---

(١) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

ما يبعد عن ذكر الله عزّ وجلّ، وتحرضهم إلى نيل الكمالات بالتعلّم والتعليم ودراسة المعارف الحقّة الإلهية، وتبين أن الغرض الأقصى من سعي الإنسان في الدنيا أن يكون ربّانياً قد تخلق بأخلاق الله عزّ وجلّ وزكّى نفسه بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل ومكارم الأخلاق، ليستعد بذلك أن يكون معلّماً للمعارف الإلهية، ومرشداً إلهياً، وداعياً إلى كتاب الله تعالى، ولا ينال هذه الدرجة إلا بتهذيب النفس وتزكيتها، والتخلّق بمكارم الأخلاق، وتعلّم المعارف الحقة وتعليمها، فلا يليق بهذا المنصب كل متطاول ليس له حظ من ذلك، فإن الأغيار لا يمكنهم الوصول والتقرّب إلى دار الحبيب إلا بعد الجهاد مع النفس والتزين بما يرضي المحبوب. وعلى مرشدي الأمة وطلاب العلم ـ لا سيما علوم الدين ـ أن يزكّوا أنفسهم أولاً ويتخلّقوا بمكارم الأخلاق، وأن يكونوا داعين إلى الله تعالى علماً وعملاً، بل يكونوا داعين إلى الله بعملهم أكثر من دعوتهم إليه بعلمهم، ولا يخرجوا عن زي العبودية أبداً[1].

(١) ن.م، ج٦، ص٩٢ ـ ٩٣.

أفضلية الأنبياء على بني البشر

الأنبياء - الذين هم أفضل أفراد البشر وأكملهم حسب درجاتهم - كلّهم من مظاهر شؤونه تعالى وأفعاله، وكلّ واحد منهم مظهر لأسمائه الخاصة جلّ شأنه. وفضّل بعضهم على بعض بشرف تقرّبهم إلى حضرته جلّت عظمته - وإن كان جميعهم نالوا التقرّب إليه بمكانتهم وارتباطهم معه تعالى - ولا يتحقق ذلك التشرّف العظيم إلاّ بأداء أمانة الحقّ الملقاة على عواتقهم وتحمّل المشاق في سبيل إعلاء كلمته عزّ اسمه والتكلّف مع المشقّة الشديدة في إبلاغ رسالته، وتحمّل الأذى في سبيل هداية البشر إلى السعادة بعد إنقاذهم من المهالك والقيام بالوساطة بينه تعالى وبين العباد.

وكلّما كانت الأمة بعيدة عن الكمالات والمثل الإنسانية والأخلاقية ومنغمسة في الشرور والماديات، كان تعب النبي وتحمله أشد وتقربه إلى الله أكثر، ولذا ورد في الحديث عن نبينا الأعظم ﷺ: «ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت» ولأجله - ولكمالات أخرى - تفوّق ﷺ على جميع الأنبياء وإلا فإن الأنبياء جميعهم على حد سواء في إبلاغ الرسالة قال تعالى: ﴿مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾

[سورة المائدة، الآية: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٤].

وإنما خصّ سبحانه وتعالى كلّ نبي بمعجزة خاصة لتناسب زمانه بها بالتحدي من أهل عصره وقبولها من أمته، لأن المعجزات الصادرة عن الأنبياء عليهم السلام ليست هي إلا خوارق العادات لإثبات دعوى رسالتهم بطريقة يقتنع بها المدعوون إلى الإيمان، فيؤمنون بشريعتهم مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وغيرهما من معجزات المسيح عليه السلام، فهي ليست إلا كإلقاء العصا فتصير حيّة تسعى، ونجاة بني إسرائيل من العذاب، وغرق فرعون وغيرها من معجزات موسى عليه السلام التي تناسب عصر كلّ منهما.

وكذا معجزات نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله من تسبيح الحصا بين يديه، ونصرته في الغزوات مع قلة عدد المسلمين، وتفوق حجّته على الخصام، وإخباره عن المغيّبات، وعروجه بجسمه الشريف إلى السماء، والبشارة بنبوّته في كتب السماء على لسان الأنبياء عليهم السلام ومعجزته الباقية الخالدة (القرآن) وغيرها مما هو كثير.

وأما خلق المسيح عليه السلام بلا أب، فإنه يرجع إلى قدرته تعالى وعزّته، كخلق آدم عليه السلام بلا أب وأم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، ولا يكون من المعجزة التي تصدر منه أو تظهر على يديه، لأنه لم يكن تحد في البين مثل نزول المائدة من السماء بدعائه، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، بل معجزة في خلقه، وكذا رفعه إلى السماء يرجع إلى قدرته تعالى فيه، فالمسيح إنسان أرضي وسماوي، وقد أخر هبوطه إلى الأرض بعد رفعه منها حتى يكون شاهداً

على حقانيّة شريعة محمد ﷺ باقتدائه بمهدي هذه الأمة الذي هو من ولد محمد ﷺ، ويكون لشريعته ـ بل لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء ـ سير استكمالي يصل إلى منتهى الكمال بظهور مهدي هذه الأمة الذي هو من ولد فاطمة البضعة الطاهرة منه ﷺ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً هذا بالنسبة إلى حياتهم الظاهريّة في إبلاغ مهامهم.

وأمّا أرواحهم الشريفة ونفوسهم القدسية، فهي لا شك في امتيازها وتفوّقها على سائر النفوس لقربها من العقل الأول كما عن بعض. أو أنها فائضة من الحضرة الإلهيّة كما عن آخرين.

وعن بعض الحكماء أن العقل الأول ليس إلا نفوسهم القدسية وباقي النفوس تتشرّف بالقرب إليه بالإفاضة من المعارف إليهم، أو التقرب إليه تعالى بهدايتهم، أو استكمال نفوسهم بالإلهام منه عزّ وجلّ بواسطة تلك النفوس المعبّر عنها بالعقل الأول.

وكيف كان، فلا إشكال في قدسية نفوسهم وتفوّقها على البقية، ولذا يحصل لهم المعراج الجسماني لقرب نفوسهم به تعالى وتربية أجسامهم بالتربية الرحمانيّة وتوطّن تلك الأرواح في تلك الأجسام، وسيأتي في الآيات المناسبة تفصيل الكلام.

وأمّا نفس نبيّنا الأعظم ﷺ، فهي في مقام جمع الجمع ومظهر للاسم الجامع الإلهي أصالة، فإنّ الكمالات والمعارف تفاض منها، وفي الحديث عنه ﷺ: «أوّل ما خلق الله نوري»، وعنه ﷺ أيضاً: «أنا أبو الأرواح وأنا من نور الله والمؤمنون فيض نوري»، فيستفاد منه أنّ الأرواح المقدسة وارثة أولية منه، وأن الأبوة هنا بمعنى الأشرفيّة والأكمليّة، ويستفاد ذلك من بعض الآيات الشريفة كما يأتي، فأقرب النفوس

والأرواح إلى نفس الأقدس هي نفوس المؤمنين حسب درجاتهم، وهذا بحث دقيق شريف نتعرّض له مفصّلاً إن شاء الله تعالى، وإنّ قل الطالب له في هذه الأعصار[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٠، ص١٥٨ ـ ١٦٠.

اهتمام الرسول بأمر الرسالة

الآية الكريمة[١] تبين مدى اهتمام الرسول العظيم ﷺ بأمر الرسالة وتبليغ الأحكام وإيمان الناس بها، فإنه ﷺ جاهد في هذا الأمر أشد الجهاد وتحمل في سبيل ذلك ما لم يتحمله غيره من الأنبياء والأوصياء، ولكنه مع ذلك كان يحب أن يرى الناس مؤمنين يدخلون في دين الله، ويغمّه أشد الغم إذا عرف منهم النكوص والخذلان، فهو لم يهتم ولا يبالي بما يجري عليه من المتاعب والأهوال ولم يعهد من نبي من أنبياء الله (صلوات الله عليهم أجمعين) أن يتذمر من المتاعب في سبيل إعلاء كلمة الله، بل كانوا يعتبرون تلك زيادة في الدرجات والتقرب والزلفى لديه سبحانه وتعالى، وهذا شأن كل مؤمن يحب لقاء الله عز وجل ويرغب في ثوابه فهم في جهاد مرير مع الدنيا وفناء مستمر مع الله فهو ﷺ لا يخاف أحداً، كيف وقد وصف سبحانه القوم البديل في الآيات السابقة بأنه ﴿لا تأخذه في الله لومة لائم﴾؟ وأنه عرف الصبر وما يترتب عليه من عظيم الأمر، بل امتحن قبل الرسالة، فأتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين، وأن فيه قال عز وجل ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤) وأنه القائل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (الحجر: ٩٤) وأنه العالم بما سيجري عليه وعلى المؤمنين به وما يبتلى به أهل بيته والخاص من أرومته كل ذلك لم يوجب وهنه، بل ازداد في صلابته وشدة تعلقه بالله العزيز الحكيم، وجميع ذلك كان هيناً عنده إلا الدين والشريعة التي بعثه الله لإحيائها وتثبيتها في قلوب الناس، فإنه كان يهتم بها اهتماماً بليغاً ولا يحتاج الرسول ﷺ إلى حارس يحرسه، فإن الله قد حرسه قبل كل أحد، وقد نجا من مهالك عظام كانت أدونها تودي بحياته الكريمة ولولا عناية الله به ورعايته له فهو ﷺ لم يفكر لحظة في دفع تلك عن نفسه بعد أن حماه الله لطفاً به، ولكنه بعد أن عرف من القرائن والإشارات، أنه لا بد من الرحيل إلى الرفيق الأعلى وأن العام الذي فيه هو آخر الأعوام من حياته الكريمة فحج البيت العتيق، وودع ديار الحبيب فكانت حجة الوداع، وكادت نفسه الشريفة تزهق من هول ما رأى من الأصحاب وهم يتبادلون الأسرار ويكتمون الأخبار فأوجس في نفسه خيفة على بقاء الدين بعد ارتحاله ومفارقة الحياة، وهو لم يتوان في مدة الرسالة عن حكم إلهي، وقد شهد على ذلك الحق بأنه الحق في تبليغه والأمين في نشر دينه، فما كان سبب خوفه، أهو مفارقته الحياة وقد أحب الأصحاب وأحبوه؟!! أم الخوف من الأهوال وهو السلام في كل الأحوال، وقد خلقت الدنيا والآخرة لأجله وأرسله رحمة للعالمين؟!! أم أنه قصر في شيء يخاف عاقبته وهو الصادق الأمين، بل هو على خلق عظيم؟!! أم يخاف على نفسه من الفتك والغدر والخيانة، وهو الذي بذل مهجته في سبيل الله قبل سنين وترك الأهل والمال والديار ورضي بالتشريد وقد جندلوا أعز أقربائه وكرام عشيرته ولاقوا المحن والصعاب؟!!، فماذا يكون السبب

الذي ألم به وخاف من التبليغ، والله اهتم به اهتماماً بليغاً ولم يبق من حياته الكريمة سوى أيام قليلة، وقد ذهبت جلها، ولعل الآية الكريمة تنبىء عن ذلك لمن أمعن النظر فيها وأعطاها حقها وليس هي إلا حياة الدين وبقاء الشريعة بعد غياب زعيمها الأكبر وراعيها الوفي الأمين وحارسها القوي، أيتركها سدى في ذمة الله كما يدع الواحد منا ما خوله الله من حطام الدنيا ولا يكون ذلك أبداً، والدين بعد لم يشتد عوده والقوم لم يتركوا مساوىء الأخلاق لقرب عهدهم بالشرك، وفيهم من دخل في الدين طمعاً لا حباً وغير ذلك مما هو معلوم وإن جعلوه من المكتوم فلا بد من ولي هاد ينصر دين الله من كيد الأعداء، فأرشده الله إلى الإبلاغ ويدع سائر الخصوصيات على الله سبحانه، فصدع (صلوات الله عليه) بالأمر الذي أنزل ربه عليه واختار من اختاره الله وجعله ولياً على أمته، واستبشر القوم بذلك ظاهراً، ولكن عرف البواطن وأغاضه ذلك وأغضبته بعض الأفعال، فذهب عن أمته وهو حزين وإن كان بشراه أنه أتم النعمة على المؤمنين وأكمل الدين[١].

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٢٠٢.

عدم إمكانية تحديد مخاطبة النبي مع الله تعالى

الآيتان المباركتان[١] تدلان على مخاطبة الرسول ﷺ مع الرب جلّت عظمته، وحقيقة هذه المخاطبة من الأمور التي لا يمكن تعريفها وتحديدها، فإنه مهما أمكن تعريف شيء من الأشياء أو الإشارة إليه بحدّ أو رسم، لا يمكن ذلك فيما هو خارج عن المشاعر الإمكانية، وإن شئت فعبّر عنه بعلم الحال أو علم الحضور، أو نحو ذلك مما يصح أن يشار به إلى هذا النحو من الوجدان، فلا بأس به.

وكيف يعرّف ما هو خارج عن الأين والكيف، ونحو ذلك من الألفاظ المعرّفة للأشياء؟

وكيف يعقل أن يعرّف حالة ملاقاة الحبيب غير المتناهي في أي جهة من الجهات لحبيبه المتفاني فيه من جميع جهاته، حتى وصل من الخلق إلى الحق بكلّ معنى الحقّانية، وأراد أن يرجع منه إلى الخلق

---

(١) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

لتكميل الحقّ والحقيقة؟! والتعبير بالسفر والملاقاة والرجوع من باب قصور التعبير، وإلا فلا معنى للحبيب وحبيبه المتفاني فيه هذه التعبيرات مطلقاً.

وكيف تحدّ حالة هي حالة مكالمة الحبيب لحبيبه، مشافهة وكلمات هي عين ما وقع بها التخاطب في قمة ذروة الممكنات بأسرها؟!

أم كيف يوصف فضاء تشرّف بهذه الكلمات والملاقاة؟!

وكيف توصف كلمات هي أساس النظم والانتظام؟! فلو لم يكن لسيد الأنبياء إلا حدوث هذه الحالة، لكفاه فخراً على جميع الأنبياء، فإنه إن أرى الله لخليله ملكوت السموات والأرض، فقد أرى لحبيبه هيمنة خلاّقية السماوات والأرض، فحقّ أن تكون الآيتان المباركتان من كنوز تحت العرش، كما في الحديث، بل العرش ينطوي في هذه المكالمة والحالة:

هذه من علاه إحدى المعالي ... وعلى هذه فقس ما سواها

كما أنه يحقّ لنفس هذه الكلمات كلّ مرتبة عالية يقال لها، فإنه ليس شيء في الممكنات أعلى وأغلى من الإيمان بالله تبارك وتعالى، وكذا بالنسبة إلى التكليف، فإنّه كمال إنسانية الإنسان الذي هو أفضل الموجودات، وقد يصل إلى أعلى الدرجات[1].

---

(١) ن.م، ج٤، ص٤٤٠ ـ ٤٤١.

إمكان أن يكون غدو النبي من الأصل معراج آخر له (ص)

يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إشارة إلى معراج آخر لنبيّنا الأعظم ﷺ، فإن معراجه الأوّل كان في مكة من بيت أم هاني، وكان من الخلق إلى الحقّ والانقطاع عن العلائق بالكليّة والانقطاع إلى الربّ الفياض من جميع الجهات، وإعداد نفسه الأقدس لمعراج آخر، والسفر من الحق لكشف الحجب الظلمانية عن النفوس، ولا حجاب أقوى وأغلظ من الكفر مطلقاً، ولا ينكشف ذلك الحجاب إلا بالسيف، فكما أن لجهاده وحروبه المقدسة دخلاً في نظام التشريع، لها دخل في نظام التكوين أيضاً، وهو إثارة العقول المستترة بالسيوف التي تعمل في نصرة الحقّ. والغدو من الأهل لتعيين مواقع القتال للمؤمنين معراج للرسول الكريم لإظهار الحقّ وإزالة الحجب والأغشية الظلمانية، ومن المعلوم أن أغلى الأشياء وأعظمها لدى الإنسان هي الروح التي بين جنبيه ونفسه التي يقضي بها آماله ويفعل أفعاله، فهي الأصل وجميع ما سواها من الأهل والمال وسائر الجهات من الفروع التي ترجع إلى حفظ النفس وحبّ بقائها، وهذه الجوهرة النفيسة إن بذلت في الأوهام والخيالات والماديات، فقد بيعت بأرخص الأشياء وشريت بثمن بخس، وإن كان بذلها في الحقيقة التي لا حدّ لكمالها

بوجه من الوجوه، فهي السعادة العظمى. ومن مظاهر تلك الحقيقة الجهاد في سبيل الله تعالى، فإنه اتصال بالمبدأ القيوم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]، فهل يعقل حدّاً لمعنى «عند» من لا تناهي لحدّ الحضور لديه، مضافاً إلى أن في رفع الحجب والأستار من الأسرار والدقائق ما لا يعلمها إلا الله تعالى[١].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) ن.م، ج٦، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

المباهلة

مظاهر تجلّيات الحقّ جلّ جلاله في عالم الشهادة لا حدّ لها ولا حصر، عميت عين لا تراها وخسرت صفقة عبد ليس له فيها نصيب، ومن أعظم تجلياته عزّ وجلّ استجابة دعوات المحرومين وإغاثة الملهوفين والتنفيس عن كربات المكروبين.

ومنها: المباهلة التي يتحقّق فيها الارتباط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بل إنها من أشد أنحاء الارتباط وأشرفها، لا يمكن تحديده بحد ولا توصيفه بوصف، بل لا يعقل الإحاطة به لأحد إلا لعلام الغيوب والمطّلع على السر المحجوب، وهي الكرامات الصادرة من الأولياء والمعجزات المتحقّقة من الأنبياء، لا سيما إذا لاحظنا ذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وتتجلّى عظمة المباهلة أنها لإقامة الحقّ ودحض الباطل وإبقاء الشريعة الختمية والنور المحمدي، وفيها يتحد الداعي والمدعو، فإن الله هو الذي باهل الكفار.

والمباهلة وإن كانت في الظاهر فيها العذاب للكفّار، ولكنها في الواقع تكون لحفظ النظام وإبقاء سلسلة الأسباب والمسببات بين الأنام.

وفي المباهلة الأحمدية تجلّت العنايات الخاصة من الحضرة الأحدية، وقد جمعت في هذه المباهلة أنوار كلها واسطة الفيض، ظهرت فيهم عظمة الباري وعنايته، وفيها قابل الحقّ المحض مع الباطل كذلك.

وفدّى رسول الله ﷺ نفسه الشريفة وأهل بيته فيها دون إقامة الحق وإظهاره وإماتة الباطل.

ولم يتعرّض للمال، لأنه لا شيء أغلى من النفس ولا قيمة له في مقابل تفديتها، مع أن المفدّى أجلّ وأكرم من أن يفدي بشيء آخر لا قيمة له، بل يعد من متاع الغرور. وتكون هذه المباهلة تعليماً لكلّ مرشد قام بين الناس داعياً للحق وناصراً له، فلا بد من خلوص النية وصفاء السريرة ليستعد بذلك لتجلي الله جلّ جلاله، وفي الحديث: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تخرق الحجب السبع»[1].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) ن.م، ج٦، ص٢٩ ـ ٣٠.

البيت

الكعبة المباركة من حيث مقام معنويتها أزلية وأبدية، لأنها وجهة التوحيد وفناء المعبود الوحيد، وفيها تفانى باني البيت إبراهيم الخليل الجليل، بل وتفانى جميع الأنبياء من صفيهم إلى حبيبهم، فإنهم بالطواف حول البيت الشريف يظهرون تفديتهم للعزيز المهيمن القهّار، ويطرحون جميع جهات أنانيتهم من الحجب والأستار، ويبرزون مقهوريتهم من جميع الجهات لربّ البيت العتيق، وينسون أنفسهم وقد أتوا من فج عميق.

ترى المحبّين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ولعلّ من أحد أسرار طواف نبيّنا الأعظم ﷺ حول البيت الشريف وهو على البعير، أن هذا المقام مقام علوّ العبودية التي يفيضها اللطيف الخبير، فأظهر ﷺ العلو الجسماني رمزاً إلى العلو المعنويّ الروحاني، فليس المقام مقاماً لعروض الدهشة على الطائف من حضرة الكبرياء والجلال، كما عن بعض العرفاء، بل مقام ذل العبودية التي تشير إلى عزّ الربوبية، وأسرار المقام كثيرة لا يحصيها القول ولا رعاف القلم.

ثم إن الحج كسائر العبادات، منه ما هو ظاهري مسقط للتكليف كحجّ عامّة الناس، ومنه واقعي يوجب نيل أقصى الكمالات والفوز

بأعلى المقامات في ما إذا أراد بإحرامه ترك جميع ما يلهيه عن ربّه ورأى في طوافه التفدية الحقيقية في مرضاة ربّه، ومن سعيه الدنو إلى ساحة قربه، وأراد من رمي الجمرات طرح جميع ما لا يرتضيه الربّ ومن الذبح إهلاك القوى الشهوانية وإفناءها، ومن صلاته في مقام إبراهيم عليه‌السلام الفوز بمقام إبراهيم الخليل وهو مقام الخلّة[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٦، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

تشريع العبادات في الإسلام

تقدّم في أحد المباحث السابقة أنّ الطاعات والعبادات في الإسلام إنّما هي ألطاف إلهيّة لتكميل النفوس المستعدة، والوصول إلى الغاية المتوخّاة من خلق الإنسان، فبالعبادة ينال الإنسان مقام العبودية، التي هي مجمع الكمالات الإنسانية، وبها يصل إلى درجة الخلّة الحقيقية، وبها يتقرّب العبد إلى خالقه ويصل إلى ساحة قدسه، وبها تتخلّى النفس من الرّذائل، وتتحلّى بالفضائل، وتتخلّق بالأخلاق الإلهيّة، لتتجلّى أنوار الغيب على القلوب وتفوز بالسعادة التي هي فوق كلّ مطلوب، وبها ينال العبد مرتبتي الفناء في الله تعالى والبقاء به عزّ وجلّ، كلّ ذلك إذا أتى العبد بها على وجهها المطلوب.

ومن العبادات في الإسلام الحجّ، الذي هو السفر إلى الله تعالى للوقوف بين يدي عظمته والدخول في ضيافته في بيته وحرمه، الذي جعله من أبواب رحمته، فمن دخله كان من الآمنين.

وهو سفر يتضمّن كثيراً من الأسرار، التي لا يطّلع عليها إلا من خلع عن نفسه الأغيار، ودخل في حريم كبرياء الجبّار.

وهو السّفر الذي تتحقّق فيه الأسفار الأربعة، التي تكون للسّلاك من العرفاء، ولا ينال العبد ما في هذا السّفر ولا يصل إلى الوجه المطلوب، إلا

إذاً ان ملتفتاً إلى سفره: مبدئه وغايته، ومتوجّهاً إلى كلّ جليل ودقيق في الحركات والأفعال، بل حتى الخطرات، فإنّ المقام جليل والمطلب خطير، ولا يناله إلا من كان بانياً على التكميل، لأنّ أصل تشريع هذا السّفر إنما هو لتحريك النفس الإنسانية إلى المشاعر الربوبية، والانتقال منها إلى المنازل المعنوية، والتوجّه فيها إلى المعارف الإلهية، وتحلّي النفس بأخلاق الله تعالى، فتصير الدنيا والآخرة عنده كمرآتين متقابلتين، تحكي إحداهما عن الأخرى على نحو النقص والتمام، اللذين هما من خصوصيات الذات والزمان، لا من جهات أخرى.

وفي هذا السّفر منازل ومقامات لا يمكن الوصول إليها إلا بعد طيّها والخروج منها على الوجه المطلوب، ونبذ ما هو المعتاد والمألوف، فإنّ الشيطان حريص على الغواية والتضليل.

وأوّل تلك المنازل حمل الزاد وتهيئة المركب، كما في سائر الأسفار الدنيوية، فإن أول ما يفعله المسافر حمل الزاد ومعرفة أمن الطريق، وتوثيق الصلة مع أرباب النواحي، وتثبيت الارتباط مع مدبّر كل بلد ومديره، ليأمن كيدهم، وكلّما عظم السفر، اشتدت الحاجة إلى الزاد.

والسّفر إلى الحجّ سفر إلى الله تعالى، فلا بد من الاهتمام بما يأخذه من الزّاد، وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ أن التقوى هي خير الزاد، فإنها من أعظم السبل في توثيق الصلة والارتباط مع مالك الملك ومدبّر الأمور، وهي مالكية أزمّة الآخرة، ويتبعها مالكية أزمّة الدنيا، فإنها تبع الآخرة، فإنّ للدنيا جهتين: الأصالة، لكونها محلّ العمل، فلولا الدنيا لما كان عمل ولا عامل ولا تكليف ولا جزاء.

وجهة التبعية لكونها مزرعة الآخرة، فلولا الآخرة لما خلقت الدّنيا، فبالتقوى ينال محبة الله تعالى، وبها يمتطي صهوة النّفس الأمّارة، ويأخذ بزمامها. وهي مفتاح كلّ خير وصلاح.

ومن منازل هذا السّفر الخطير الإعراض عمّا سواه عز وجل والابتعاد عن الأغيار، لأنّه السفر إلى الله والسّير إلى حريم كبريائه عزّ وجلّ، فلا بد أن يكون حجّه وعمرته لله ربّ العالمين.

ومن منازله ـ أيضاً ـ البناء والعزم على إتيان العمل جامعاً للشرائط، وأن لا يقدم عليه إلا وهو مطمئنّ النفس على إتمامها، فإنّ قطع العمل والرجوع عن السّير بعد التلبّس به مما لا يليق بمقام العبودية، بل قد يوجب الحرمان، كما هو معروف لدى أهل العرفان.

ثم يُحرم عند الوصول إلى الميقات، وهو أوّل المقامات، فيحرم النفس عن المشتهيات، ويوقفها عن كافة الشهوات، ويطرح عنها كل مشتبه وحرام عند خلعه الثياب عن الأبدان.

ويتهيّأ للدخول في الحرم الإلهي والورود في ضيافة الرحمن، ولا بد أن يلاحظ أنه في المأمن الإلهي، وهو من أهم ما يبتغيه أهل السّير والسلوك في الله تعالى، فيجب أن يكون السّعي والعمل متفقين مع الإرادة القلبية، وكلاهما لله تعالى، فترتفع الأغيار وتزول الحجب والأستار.

ثم الطواف بالبيت رمز العشق بالله عزّ وجلّ، وهو جذب روحي وإظهار للعبودية، فلا بد وأن يكثر من ذلك، كالمحب الذي تيّمه الحب وذلّله وهو يطوف حول بيت الحبيب، وقد علا صوته بالبكاء والنحيب

لعلّه يلقاه أو يجيب، وفي الطواف حكم وإشارات، منها التردد في محالّ القدس والإعلام بأن الطالب للحبيب لا بد له من الفناء فيه، ليفوز بلقياه ونيل إفاضاته.

والصلاة في المقام إشارة إلى التشبّه بخليل الرحمن في تركه طاعة الشيطان.

وفي السّعي بين الصّفا والمروة انقطاع إلى ربّ الخلائق، وإبراز التحيّر في ذاته المقدّسة، وإظهار العشق له، ونبذ كلّ صنم ووثن ومعبود سواه.

والوقوف بالمشاعر العظام، إنّما هو تذكير بالوقوف بين يدي الله تعالى في عرصات يوم القيامة وإبراز الخضوع والخشوع لعظمته تعالى، وإظهار التذلّل والعبودية لساحة قدسه، فلا بد وأن يكون على سكينة ووقار طالباً مغفرته ورضوانه، فإنّ تلك المشاعر العظام ليست إلا من مظاهر التوحيد وإلقاء الشرك والكفر. والوقوف فيها مع ما فيها من الزحام إراءة نموذج ما يكون في طريق المصير إليه تعالى، وظهور الحقّ وفناء التكثّرات فيه.

والإفاضة منها مع ضجيج الحجيج والنّداء والعجيج، وهم يفيضون من كلّ حدب وصوب، قد تخلّوا عن الأهل والأوطان، وهم ضيوف جنابه، يريدون ساحة قدسه، قد تلقّاهم الرب الرحيم بكل حنان ورأفة وعناية ورحمة، وهو الرب الرحيم قد وعدهم أن يزيل عنهم كلّ أهوال المحشر، فكان هو المبدأ والمنتهى، وتجلّت الإفاضة منه وإليه.

وفي رمي الجمرات استعداد الإنسان للابتعاد عن الشيطان، والإعراض عن الخطيئات والسيئات.

وفي إفناء حياة الهدي بالذبح، إشارة إلى إفناء النّفس الأمارة بعد الإهلال وإظهار التقصير والعجز، وكناية عن طرح كلّ رذيلة عن النّفس، والمجاهدة معها في كلّ حقير وكبير.

والرجوع من الحرم إلى الأهل يعتبر رجوعاً لتكميل معارف الدّين وأحكام شريعة سيد المرسلين، فيتجلّى في هذا السفر كل ما يبتغيه أهل العرفان.

ولا بد أن يكون في جميع الأحوال مولعاً بذكر الحبيب، طالباً منه مغفرته ورضوانه، فإنّ الحبيب لا ينفك عن البكاء والنحيب إذا صدّ عن حبيبه وطرد عن بابه.

ملأت به سمعي وقلبي وناظري وكلّي وأجزائي فأين يغيب

هذه نبذة يسيرة ممّا لا بد أن يعمله السائر في هذا الطريق، فإنّ في الحجّ قد اجتمعت قواعد السّير والسلوك المتبعة في تهذيب النفس.

وفي الحجّ تتجلّى المشارقات الربوبية على الرّوح الإنساني، فكم من عناية إلهيّة تفاض على أهل عرفات؟!!

وكم من شروق غيبيّ يشرق على النفوس المستعدّة في المشعر الحرام؟!!

وكم من تجلّيات ربوبية تظهر للذوات القابلة في الرّكن والمقام!!

وكم من نفس تلوثت بالذنوب والآثام تطهر عند إراقة الدّماء في منى!!

وكم من ذنوب يحطّمها الرّب العظيم عند الحطيم!!

وكم من خطايا يغفرها الرّب الغفور الرحيم عند التعوذ بالملتزم والمستجار!!

وكم من نفس تصل إلى مناها عند الوصول إلى منى!!.

وكم من عناية ولطف تظهران لعبده عند استلام الرّكن، الذي هو يمين الله في الأرض يصافح بها عباده!![1].

(١) ن.م، ج٣، ص١٩٠ ـ ١٩٤.

الصلاة

لا شك في كمال العناية بشأن الصلاة، لأنّ فيها إضافة إلى عالم لا نهاية له في الجلال والجمال والإفضال، إضافة اختيارية يظهر أثرها على أفعال الجوارح والجوانح، توجب عظمة المضاف وارتفاع درجاته ومقاماته المعنوية الأبدية، لا سيّما إذا كان المضاف إليه داعياً لإيجاد تلك الإضافة ومرغّباً إليها، فإنه من سنخ تعلق المحبوب بحبيبه. ففي الصّلاة هذا السر المعنوي الذي تدركه العقول بحقائق الإيمان، لا الحواس الظاهرة التي في الإنسان.

فالصّلاة هي العمود النوري المتصل بين الحيّ القيوم والعبد الذي هو في معرض الحوادث والآلام، ولذا أمرنا بالاستعانة بها إذا أهمّنا أمر. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٥]، وكان الأنبياء عليهم السلام إذا دهمهم أمر استعانوا بالصلاة.

والصلاة علامة الإيمان بالله تعالى، وبها وبقرينتها الزكاة تتحقّق الأخوة الدينية، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١].

وإنّ تاركها من الكافرين، فعن نبيّنا الأعظم: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

وإنّ تركها يوجب الحسرة العظمى في الدار العقبى، قال تعالى حكاية عن أهل سقر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المدثر، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤]، وإنّ إهمالها وتضييعها وقطع تلك الرابطة التي بين العبد والباري، يوجب ارتكاب المعاصي واتباع الشهوات، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة مريم، الآية: ٥٩].

والصلاة هي آية الإنسانية الكاملة، لأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فتتحقّق بها التخلية عن الرذائل، وتتجلّى فيها الفضائل، فيكون المصلّي المحافظ عليها هو الإنسان الكامل الذي تتجلّى فيه جميع الصفات الحسنة.

والصلاة هي الرادع الباطني في الإنسان، تمنعه عن ارتكاب الجرائم والآثام، وتوقظ الضمير الإنساني فيردعه عن ركوب الشهوات وتضييع الحقوق، فيعظم الحقّ ويكبر عليه تركه، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة والآثار الرفيعة التي لو أردنا ذكرها لما وسعه المقام.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ على إيجازها تكفي في الاهتداء إلى عالم النور، العالم الذي يرى فيه الإنسان آثار أعماله، بل يجد فيه حقيقة نفسه وفطرته، ويلتذ بما يشاهد من مقامه الرفيع.

وهو يعم جميع أوامر الله جل جلاله وأحكامه المقدّسة، ويرشد إلى ترك نواهيه حتى يصير الفرد من الله وإلى الله، وتنهدم فيه الأهواء النفسانية، ولا يبقى في نفسه سوى حبّه جلّ شأنه، وهذا الإطلاق موافق لإطلاق قول نبيّنا الأعظم: «إنما الأعمال بالنيات»، وتقتضيه أذواق

المتألهين والعرفاء الشامخين، ولعل أولياء الله تعالى وأحبّاءه اقتبسوا من هذه الآية الشريفة ما أبرزته قلوبهم عند مناجاتهم لخالقهم، منها ما نسب إلى الحسين بن علي عليه السلام: «إلهي أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبّوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك، وأنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك». وما ذكره عليه السلام من أهم آثار القيام لله من كل جهة قانتاً له وخاضعاً لربوبيته، فالقيام بامتثال أوامر الله تعالى وترك نواهيه والاستقامة فيه غاية آمال المخلصين والعارفين به تعالى[١].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) ن.م، ج٤، ص٩٠ ـ ٩٢.

القرب من الله وسبل التقرب إليه عز وجل

لا شك في أن تقرّب الإنسان إلى خالقه ومبدئه هو من أسمى الكمالات وأجلّها، بل هو نتيجة جهد الأنبياء والأولياء، به تطمئن النفوس وتستقرّ وتحصل السعادة في عالم الشهادة وسائر العوالم، وبه يذوق الإنسان لذّة الحضور في ساحة المعشوق، وإنّما خلقت الدنيا لأجل ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٦]، ويدلّ على ذلك الأدلّة العقليّة والنقلية.

ولكن للتقرّب إليه جلت عظمته درجات متفاوتة وعرض عريض، وأنواع كثيرة تختلف حسب المقامات والاستعدادات بل الاعتقادات، لأنّ الذات غير متناهية وكذلك الصفات، فالتقرّب إليه يكون كذلك، فلا يمكن تحديده.

وإنّ التقرب إليه سبحانه وتعالى لا يختصّ بالإنسان، فكل موجود ما سواه يسعى للتقرّب إليه جلّت عظمته، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٤]، وقد أثبت الفلاسفة الإلهيّون أن قوام العالم ـ بكلياته وجزئياته العلوي منه أو السفلي ـ وسيره الاستكمالي يدور مدار العشق لمظهر الأحديّة، وهذا العشق قد يكون

تكوينياً، وقد يحصل بالاختيار من الإشراق منه في الإنسان، لأن النفس الناطقة في الإنسان ليست من الماديّات المحضة، بل لها نحو تجرّد قابل للارتباط بعالم الغيب باختياره، ولهذا الارتباط مراتب كثيرة شدّة وضعفاً، ولذا قد يحصل للإنسان بعض مراتب التقرّب إليه تعالى باختياره ثم تزول عنه كذلك، فيكشف ذلك عن أن التقرب إليه جل شأنه لم يكن عن إيمان عميق، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٣].

وسبل التقرّب إليه تعالى والارتباط بعالم الغيب لا بد وأن تفاض منه جلّت عظمته إلينا بالإلهام على العقول البريئة عن المستلذّات والشهوات وتقرير الأنبياء والأولياء، وإلا لم تحصل تلك الغاية المنشودة والهدف الأسمى من خلق الإنسان، ويكون الإنسان في حيرة من التقرّب إليه دائماً، وقد ثبت في محلّه أن بعث الأنبياء واجب عقلي له دخل في نظامي التكوين والتشريع، وليس ذلك إلا لأجل بيان سبل التقرّب إليه تعالى، إما بالتقرير، أو الكشف.

وتلك السبل هي الأحكام الشرعيّة بأقسامها التابعة للمصالح العائدة إلينا والمفاسد التي تضرّنا، المجعولة ممن وجب حقّه علينا، ولذا تكون الأحكام أمانات منه تعالى عندنا، لا بد من مراعاتها وردّها إلى أهلها وإنما جعلت لأجل ارتباط الإنسان معه جلّ شأنه، ولا يحصل هذا الارتباط لو تخلّف أحد عن تلك الأحكام ولم يؤد حقّها، ويدور التقرّب مدار الانقياد الذي يحصل من العمل بها وحفظها عن الضياع وردّها إلى أهلها من غير شكوك ولا عتاب، والآية الشريفة: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ تؤكد سبل التقرب إليه جل شأنه وتبين للعبد مصاديقها، وذيل

الآية المباركة: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يدل على أن غير ذلك من السبل الباطل له التي لا يحصل بها التقرب إليه تعالى[1].

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٨، ص٣٣٨ ـ ٣٤٠.

مراتب التقرب

الصلاة عبادة روحانيّة وتزكية نفسانيّة، ومن أهمّ طرق المناجاة مع الله سبحانه وتعالى، وقد ورد في القرآن الكريم في فضلها الآيات الكثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٥]، وقال تعالى مخاطباً نبيّه الأعظم: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٣١]، فلا بد لمن يريد التقرب إلى مقام الحضور والمناجاة مع الحضرة الأحديّة أن يتنزّه عن كل ما يوجب البعد عنه عزّ وجلّ.

والآية الشريفة التي تقدّم تفسيرها تشمل على الأجزاء الجامعة لها والأسباب المانعة عنها، وبهما تتمّ الجهات وتتحقّق المقاصد، ولما كانت الصلاة معراج المؤمن، فلا بد أن تكون جامعة على جهات القرب والمحبوبيّة ومنزّهة عن الجهات المانعة.

ومن تلك الجهات المانعة هو السكر والغفلة والتفكّر في الدنيا وحبّها، وكل ما يشغل القلب بسوى الربّ، فإن ذلك كلها من الجهات المانعة والمبعدة عن ساحة الرب الرؤوف الرحيم العالم بالأسرار والخفايا. فالآية الكريمة تدل على كمال الاهتمام بالصلاة، حيث نهى عن قربانها مع أهمّ الجهات المانعة، وهي السكر والغفلة.

ثم بين عزّ وجل أنه لا بد من التنزّه عن القذارات الظاهرية والمعنوية والتطهير عنهما، ولا تجدون لذّة التقرب ونعيم الحضور إلا بالتطهير عنهما، إما بالغسل عن الأوساخ مع خلوص النيّة، أو الوضوء بما يوجب الصفاء وصدق الإرادة، أو بالتيمم من الأرض الطيبة البعيدة عن مساوىء الأخلاق والنزعات النفسانيّة، وإن كنتم مرضى بالانحراف عن الحقّ، أو على سافر في طلب الدنيا، أو جاء أحد منكم من غائط تتبع الهوى والنزعات النفسانيّة، أو لامستم النساء بملامستكم الأشغال الدنيويّة، وتباعدتم عن حظائر القدس بتوجيه قلبكم بالأنس إلى غيره تعالى، فلم تجدوا ماء الحقيقة وصدق الإنابة، فتيمّموا بالانقطاع إليه ونبذ الصفات الدنيئة، فامسحوا بوجوهكم بالتوجه إليه جلّ شأنه، وتمسكوا بأيديكم بذيل كرمه، منقطعين إليه بعد نفض غبار الشهوة عن النفس وترك الخصال السيئة، فإنه يعفو عنكم بعدما علم صدق إرادتكم بالرجوع إليه، ويغفر لكم بمحو آثار الشقوة عنكم، فإنه رؤوف يريد سعادتكم، ولا تكونوا غافلين بسكر الدنيا عن الوصول إلى حضرته والدنو من معرفته، فإنّه يتجلى لعباده كما تجلى لأنبيائه، وفي الحديث الشريف: «إن الله تعالى يتجلّى لعباده في صورة معتقدهم، فيعرفه كلّ واحد من أهل الملل والمذهب، ثم يتحوّل عن تلك الصورة فيتجلّى في صورة أخرى، فلا يعرفه إلا الموحدون الواصلون إلى حضرة الأحديّة من كل باب». وللحديث شرح لطيف لو ظفرت على أهله لذكرته له، والحمد لله على كلّ حال، واشكره على ما ألمّ بي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

---

(١) ن.م، ج٨، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

القتل

المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ هو القتل بغير الحقّ، وأما إذا كان بحقّ فهو محبوب، وهو يتحقق في موارد:

منها: القتل قصاصاً، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٣٣].

ويمكن إدخال هذا الموارد في منطوق الآية الشريفة أيضاً بأن يقال: لا تقتلوا الغير فتعرّضوا أنفسكم إلى القتل ولو كان قصاصاً، فتدلّ الآية المباركة على النهي عن تعريض النفس للقتل والهلاك.

ومنها: القتل في سبيل الله وجهاد الحقّ مع الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩ - ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٥].

ومنها: القتل الذي هو قرّة عين الأولياء المتقين والعرفاء الشامخين، وهو قتل النفس الأمّارة بالسوء والشهوات الحيوانية، وهو الذي أشار إليه سيد الأنبياء بقوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»، وقد

حثّت عليه السنة الشريفة بألسنة شتى، ففي الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، لكن يجب أن يكون بالشروط المعتبرة المذكورة في علم الأخلاق، بل لم يوضع هذا العلم إلا لأجل ذلك، وله طرق متعددة، ومن أهمها حقيقة الإيمان بالله تعالى ورسوله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة النساء، الآية:١٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحديد الآية:٢٨]. وليس المراد بهذا النور الأنوار الظاهرية الجسمانية، بل هي أنوار معنوية لا حد لها ولا نهاية لعظمتها.

ومن تلك الطرق جملة العبادات الشرعية المبنية على الخلوص والإخلاص، والخضوع والخشوع والتضرع عند ربّ الأرباب، ولعل ذيل الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، إشارة إلى بعض ما تضمنه الصدر.

ويمكن أن يراد بالقتل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، مطلق الأذيّة بغير حقّ، وهو شائع في العرف يقال: «قتلني بلسانه ومن أذيته»، فتختصّ حينئذ بأولياء الله الذين هم العلّة الغائية لخلق العالم بروحانياته وجسمانياته، وقد ورد في الحديث: «مَن آذى لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»، و«مَن آذاهم فقد آذى الله»، فلا بد من الاحتفاظ على العلة الغائية، فإنها العلة واقعاً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، فقد ورد في عدّة مواع من القرآن الكريم، ولا ريب في أن الممكن من حيث هو

ممكن إذا لوحظ بالنسبة إلى الواجب بالذات، تكون النسبة نسبة العدم إلى الوجود، لما ثبت في الحكمة المتعالية حتى جعله العلماء من القواعد الفلسفية: «إن الممكن من ذاته ليس، ومن علّته أيس».

هذا إذا لوحظ بالنسبة إلى ذات الواجب من حيث هو.

وأما إذا لوحظ بالنسبة إلى القيوميّة المطلقة، والقدرة غير المتناهيّة، والإحاطة العلمية فوق ما نتعقّله من معنى الإحاطة، فجميع العوالم الإمكانية كالذرّة تحت يدي جبّار قهّار، وحينئذٍ يكون التعبير بـ: (يسيراً) تعبيراً مجازياً، إذ ليس شيء في مقابل ذلك الجبروت المهيمن حتى يكون يسيراً، هذا كلّه بالنسبة إلى عذابه.

وأما بالنسبة إلى رحمته فالأمر أيسر، لأنّ رحمته سبقت غضبه، وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٨، ص١١٥ ـ ١١٦.

مقام الشهادة

تقدم في أحد مباحثنا السابقة أنّ مقام الشهادة من أجلّ المقامات وأرفعها، ولذا اختصّ به الأنبياء العظام وأوصياؤهم، وهي تختلف حسب اختلاف الأمم، وحسب المشهود عليهم، وأفضلها شهادة نبيّنا الأعظم ﷺ، فهو الشهيد على جميع الخلق في أعمالهم ومعتقداتهم، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وإنما يكون شهيداً إذا حضر عنده الخلق، لأنّ الشهود من الحضور فلا بد وأن تكون الحقائق حاضرة عند الشاهد ويكون مطلعاً عليها مراقباً لأوضاعها وحالاتها، ولا يصل الشاهد إلى هذه المرتبة إلا إذا كان مراقباً لنفسه ومطّلعاً على أحوالها يجاهد على إصلاحها، ويطلب بذلك مرضاة الله تعالى ومحبّته، ولا يرى شيئاً إلا ويرى الله حاضراً عنده، كما عن سيد العارفين أمير المؤمنين عليه السلام، فيصل الشاهد إلى مرتبة يحضر لديه كلّ أحد ويظهر له معتقده ويكشف عن حاله، ولا ينال هذه المرتبة إلا المخلصون من عباده تعالى، الذين استثناهم إبليس من غوايته، فتختصّ بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ومن حذى حذوهم من الأبرار والصلحاء.

وأما شهود الحضرة المحمديّة على الخلق جميعاً، فلأنّه خاتم

الأنبياء الشاهدين على أممهم، بل هو العلّة الغائية للعالم، وأنه الواصل إلى مرتبة حبيب الله والفناء فيه عزّ وجلّ، فلا بد أن يحضر الخلق لديه وتظهر معتقداتهم عنده.

والظاهر أنّ الاستفهام في الآية الشريفة لأجل استبعادهم أن يكون ﷺ شهيداً يشهد على أعمالهم وسرائرهم، وهو من أفراد الإنسان، ويكون مطّلعاً على جميع حالاتهم، وقد تفانوا في طلب الدنيا وجبلت قلوبهم على حبّها واستحكمت الملكات الرذيلة في قلوبهم، والآية المباركة تخبرهم على تحقّق الشهادة، وأنها واقعة لا محيص عنها ولا شكّ فيها[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٨، ص٢١٩.

مقام الشهداء المجاهدين

يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كمال العناية بالشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، فقد أرادوا من جهادهم وبذل أرواحهم الغالية في إعلاء كلمة الله وإحياء الحقّ وإماتة الباطل، فأعطاهم الله تعالى الأجر الجزيل والثناء الجميل، والذكر الحميد، ومنحهم السعادة الكبيرة، أن جعلهم عنده يرزقون ويستبشرون ويفرحون، قد خلت حياتهم عن كلّ ما ينغصها من الخوف والحزن والآلام، فإذا كان الجهاد الأصغر له هذه الحظوة عند خالق الأرواح، فما ظنك بالجهاد الأكبر مع النفس الأمّارة لكسر سورتها، وقمع الهوى بالصبر والاصطبار، وكان العبد معه مطيعاً لمولاه مخالفاً لهواه مراقباً لنفسه وأعماله وأقواله، فإن له الفضل العظيم والمنزلة الكبرى عند الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩]، والجهاد الأصغر ـ وإن كان في وقت معيّن ـ معلوم، أما الجهاد الأكبر فإن مدّته أطول ومعاناته أشدّ وأعظم.

والمجاهدون مع النفس الأمارة لهم الحياة الحقيقيّة، لأن الأرواح لها نحو تعلّق خاص بالمبدأ الفياض، والحي القيوم، فإذا اشتد ارتباطها معه اشتاقت إليه، وأن حبها له قد تصل إلى مرتبة لا تحسّ بآلام الجراح

ووقع السيوف، مثل ما نسب إلى علي عليه السلام من عدم توجهه إلى إخراج السهم من بدنه حين اشتغاله بالصلاة، وقد نظم هذه القضية جملة من العرفاء بأشعار لطيفة، وما نسب إلى الصادق عليه السلام من مشيه على النار وقوله عليه السلام: «أنا ابن إبراهيم الخليل»، إلى غير ذلك من آثار ذلك العالم الوسيع الذي لا يمكن أن يحيط به بيان، فإنه لا يهدي من الجنة إلا بعض ثمارها لإتمام أشجارها. وحينئذ يقدر العبد المجاهد المؤمن على الخلع واللبس، ومن حيث شروق نوره على هذا البدن يتحرك البدن بقدر ذلك الشارق، ومع درك هذه المرتبة قد يصل إلى مرتبة جمع الجمع، بأن يكثر بدنه كما نسب إلى بعض الأولياء من وجودهم في زمان واحد في أمكنة متعددة، وقد رأينا بعض مشائخنا (رضوان الله تعالى عليه) ورآه بعض أصحابه في عين هذا البدن في محل آخر، ولكن لا يعدّ ذلك شيئاً في مقابل تلك المجاهدات، لشدّة تفانيه في مرضاة الله تعالى. ومن هنا تنكشف أبواب من المعارف.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، إشارة إلى بعض مقامات العارفين بالله في سيرهم وسلوكهم، وهم الذين طرحوا جميع الجهات الجسمانية للوصول إلى المعشوق الحقيقي والمحبوب الواقعي، فيكون ألم النبال والسهام في ذلك يسيراً، ووقع الصمصام على أبدانهم سهلاً حقيراً، بل وجدوا في ذلك التذاذاً كبيراً، وهم الذين سمعوا زئير جهنم بآذانهم ورأوا الحور المقصورات في الخيام بأعينهم، فتجاوزوا عن ذلك كلّه وخرقوا جميع الحجب الظلمانيّة بهممهم العالية، وطرحوا حدود الإمكانيّة فوصلوا إلى حدّ الوجوب، ورأوا أن الأملاك قد وضعت أجنحتها تبرّكاً بمقدمهم،

ووصلوا إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فنزلت عليهم أنوار الجمال واستشرقوا من مشارق الجلال، إلى غير ذلك من جذبات الحبيب التي يبهر فيها كلّ عاقل لبيب. رزقنا الله تعالى رشحة من تلك الرشحات ونسمة من تلك النفحات.

وخلاصة الكلام: أن هذه الطائفة من المخلَصين (بفتح اللام) هم الذين تابعوا نبيّنا الأعظم ﷺ، حيث قيل له: «هل لك شيطان يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم، ولكن أسلمت شيطاني بيدي»[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٧، ص٧٢ ـ ٧٤.

مراتب العلماء بالله

يمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، مراتب العلماء بالله العاملين بعلمهم، الذين يكونون حجّة على الخلق بأقوالهم وأفعالهم، وتتبرّك الأرض بوجودهم. فإن حسن المعاشرة معهم من حسن المعاشرة مع الله تعالى، وهم الذين يدعون ربّهم في ليلهم ونهارهم بقولهم: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء النظر إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك»، وهذا غاية كمال العارفين التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون.

وما سوى ذلك مما دعا إليه بعض العرفاء كابن الفارض ومحي الدين والحلاج ونحوهم، وما نسب إلى بعض الشيخيّة على ما صرّح به في شرح زيارة الجامعة، فإن كل ذلك خروج عن الحق القويم وابتعاد عن الصراط المستقيم.

كما أن ترتب الإحسان إلى الوالدين على عبادة الله الواحد، يدل على فضل الوالدين، وأنّ لهما المنزلة العظمى في الهداية والتشريع، وأنهما من طرق عبادة الله تعالى، فيختصّان بالوالدين الحقيقيين، وهما الرسول الأعظم ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، كما مرّ في الروايات.

والآية الشريفة ترشد أهل العرفان إلى أهمّ الفضائل التي لا بد من التحلّي بها، وأهمّ الرذائل التي ينبغي أن يجتنب عنها، وهي الرياء والكبر والفخر، فإنها من المهلكات والمبعدات عن ساحة الحبيب.

كما أن الاقتراب منه تعالى إنما يكون بالإحسان إلى خلق الله تعالى، وقد استوفت الآية المباركة جميع أصناف الخلق، فإنّ الإحسان إليهم يوجب محبّته عزّ وجلّ إن لم يشب بما يوجب الإحباط وعدم محبّته لله تعالى، وهو الفخر والكبر والرياء[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٨، ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

إيجاب موالاة أعداء الله البعد عن الله تعالى

قد عرفت أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾، يدل على النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء، وذكرنا أنه حكم اجتماعي يحفظ به كيان الإسلام وهوية المسلمين. وأن من أهم آثار هذا الفعل ـ أي: التودّد إليهم بالمحبة والنصرة ـ أنه يعتبر منهم ويكون حكمه حكمهم في الآثار الوخيمة المترتّبة على الكفر، لأنه من ما يبغضه ربّ العباد ويوجب الابتعاد عن الحقّ، ولا يمكن اجتماع محبّة الله تعالى ومحبّة أعدائه في قلب واحد، وكلّما ضعفت إحداهما تشتدّ الأخرى، فإذا استولت إحداهما على المشاعر لا يصدر من صاحبها إلا ما يناسبها من الخير والعمل الصالح والتوجه إلى الله عز وجل والإخلاص له إن كانت المحبة لله تعالى، أو الشرّ والعمل الطالح إن كانت المحبّة لأعدائه الذين لا مناسبة بينهم وبين الحقّ، ومن المعلوم أن النوايا وخفايا القلوب لها الأثر الكبير في حياة الإنسان العملية. وقد ورد التأكيد على الإعراض عما يبعد الإنسان عن الله تعالى، والابتعاد عن أعدائه عزّ وجلّ، وفي بعض الأحاديث: «لا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تسكنوا مساكنهم، لأنها من مظاهر العدوان، وهي مبغوضة عند الله تعالى، والمحبّ لا بد أن يبتعد عمّا هو مبغوض

لدى جنابه، فإن لها الأثر في سلوك المحب، فمن يريد التقرب إلى الله تعالى ومظاهر صفاته وأسمائه العليا، لا بدّ أولاً أن يبتعد عما يكدر القلوب ويزيل صفاءها، فإنها مجبولة على حبّ الله والاقتراب إلى الحق والعمل به، ومن أعظم ما يكون سبباً في ذلك تولّي أعداء الله تعالى ومحاكاتهم في الأقوال والأعمال، فإذا تحقق ذلك يميل الإنسان إلى التقرب إليه عزّ وجلّ بتنفيذ أحكامه وشرائعه، فإنّ ذلك كمال الإنسان ولا كمال فوقه، وأن فيه سعادة الدارين[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١١، ص٣١١ ـ ٣١٢.

بحث عرفاني يتعلق بالآية الشريفة

يمكن أن تكون الآية الشريفة: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إشارة إلى ما تعرض على النفس من الحالات التي يتأثر المؤمن بها، كالتحدث مع النفس في الخواص، سواء أكان ذلك في العقائد أم في العوائد، ولا فرق في العوائد بين أن تكون نفسيّة باطنية ـ كحبّ الجاه والرياسة، وطلب الخصوصية، وحبّ المدح، وخوف الفقر وغيرها ـ أم ظاهرية، مثل كثرة المخاصمة والعتاب وغيرها ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بداعي البشرية غير الاختيارية كالابتلاء بالاضطرار، ودفع الحرج وغيرهما، فما يعرض على قلب المؤمن من الأوهام التي يتألم ويتأثر بها بلا أثر خارجي لتلك الأوهام ويصير المؤمن مظلوماً، فلا عتاب عليه من المحبوب.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ بالخطرات التي تختلج على قلب أخصّ الخواص، فإنّها توجب النزول عن سمو مقامهم ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ ما تمر على قلوبهم لها دخل في حظّ تقرّبهم لديه جلّ شأنه وإن لم يكن كذلك عند الخواص فضلاً عن العوام، فإنّ «حسنات الأبرار سيئات المتقربين»، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ١١] ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بالمنع من التمتع بحضرة قدسه بشهود الجمال بالاشتغال في أمور العباد التي توجب هدايتهم إلى معرفة ربّ الأرباب، ونجاتهم من المهالك والظلمات.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ بإفشاء أسرار الربوبية وإعلام المواهب الألوهية على من لا يليق بالتشرف لساحة قدسه، وران على قلبه، وتاه في الظلمات فعمى عليه معرفة الخير من الشرّ ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بغلبات الأحوال من إظهار شيء من الحجّة والبرهان، لا بإفشاء الأسرار ورفع الحجب.

وعلى أي حال ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ في الأزل والأبد ﴿سَمِيعًا﴾ لأقوالكم و﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالكم ومقاماتكم، و﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ مما أفاض عليكم من النعم والحالات وما وهب لكم من المكاشفات بترقّي النفوس إلى المقامات ووصلوها إلى أعلى الدرجات، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ حفظاً عن الشوائب وصوناً عن المكائد ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ بترك إعلام ما جعل الله إظهاره سوءاً، أو تعفوا بما تدعوكم به النفس الأمارة بالسوء بأن لا تتبعوها أو تصفحوا عن المسيء كما يصفح عنكم الجليل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ كان في الأزل والأبد رحيماً، وبمقتضى رحمته كان ﴿عَفُوًّا﴾ عنكم لو اتصفتم بمظاهر أخلاقه جل شأنه، ﴿قَدِيرًا﴾ على كل شيء، فإنه قادر على أن لا يعفو عن أحد ويذلّ عبده بردّه إلى نفسه وهواه وإيكاله إلى نفسه مع الاختيار ويؤاخذه لكفرانه، فإنه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٣٤]، ولكن رحمته التي وسعت كل شيء، ومحبته لخلقه ورأفته لهم تقتضيان أن يعفو عن الجميع، فإنه ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣]، ويعفو عن المسيء مهما توغّل في الظلمات وبَعُد عن ساحة قدس ربّ السماوات[١].

(١) ن.م، ج١٠، ص٩٦ ـ ٩٧.

كمال الخلة بين الرب الجليل وإبراهيم الخليل

الآية الشريفة[١] تدلّ على كمال الخلّة بين الرب الجليل وإبراهيم الخليل، فإنه قد ارتفع بينهما الستر والحجاب، وأزيل الغطاء والنقاب، وانتفت المغايرة من البين. وذلك لأنّ العبودية ظهرت بجميع آثارها على إبراهيم عليه السلام، وقد وقعت جميع أفعال جوارحه في مرضاة الله تعالى، واستولت العبودية المحضة على خطرات قلبه، وفدّى جميع شؤونه في حبّ الله عزّ وجل، ومحى تمام ما يتوهم فيه البعد والافتراق، فشرقت على قلبه الأنوار القدسية، فاتخذه الله خليلاً وجعل الحبيب من نسله، فصار الخليل يفتخر بالحبيب والحبيب يفتخر بالخليل، لما بينهما من الجامع القريب، من شروق النور الأزلي على قلبهما والوصول إلى مقام الوصال والينبوع الذي لا يعقل فيه النفاد، وبمدبر حكيم لا يتصوّر فيه التغيّر والفساد، فكان أن نال رتبة البقاء: «فإنّ آخر الفناء في الله تعالى أوّل البقاء به»، وصدر منه العجائب والغرائب، لأنه مستمد من مدد الغيب الذي لا حدّ له، فيكون إحياء الموتى على يديه أيسر شيء عليه،

---

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

بل تكون مقاليد الجنّة والنار مطروحة لديه، ومثله يطفي النيران وتناديه جهنم: «جز يا مؤمن، فإنّ نورك يطفىء لهبي»، هذا بعض مقامه، فإنّ اللفظ قاصر عن بيان التمام.

ويمكن أن يستأنس من الآية الشريفة: أنه لا بد للإنسان أن يزيل عنه الخصال المذمومة ويميتهنّ في نفسه، حتى يتمكن من إحياء الموتى، لأنّ في كلّ طير من تلك الطيور الأربعة خصلة مذمومة، من العجب والحرص والكبر والشهوة ونحوها.

وهي تدلّ على أنّ المؤانسة مع أولياء الله تعالى توجب الاعتدال في النفوس، فيكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾، كناية عن العلو المعنوي الحاصل بمجرد هذه الإضافة، وتصير الأشياء مسخّرة تحت أمره.

وبالجملة: أن كلّ ما يقال في المكالمة بين الخليلين، لا يمكن أن يجعل لها تحديد بأيّ وجه من الوجوه.

وقال بعض المفسرين: إنّ مورد الإحياء خصوص قلب إبراهيم عليه السلام، لأنه وجد في قلبه محبة ولده، فنزل قلبه منزلة الموتى، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

ولكنه مردود، لأنه لا يساعده دليل من العقل والنقل، بل هو مخالف لمقام إبراهيم الخليل إن لم يكن سوء أدب بالنسبة إليه.

نعم، حبّ ولده يرجع إلى حبّ الله تعالى كما هو شأن الأنبياء والمخلصين، وذلك لا يوجب إماتة القلب[1].

---

(١) ن.م، ج٤، ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

النـــور

ورد لفظ النور في الكتب السماويّة كثيراً، لا سيما في القرآن الكريم باختلاف متعلّقه وإضافته، فتارة: أضيف إلى نفسه الأقدس، قال جلّ شأنه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [سورة النور، الآية: ٤٠]، وفي الدعاء المأثور: «أنت نور السموات والأرض».

وأخرى: أضيف إلى خلقه، مثل قوله تعالى محكياً عن أحوال المؤمنين في يوم الحساب: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة التحريم، الآية: ٨].

وقال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧].

وثالثة: إلى الكتب النازلة من عنده عزّ وجلّ على رسله الكرام، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [سورة التغابن، الآية: ٨]، وهو القرآن الكريم.

ورابعة: أضيف إلى الرسل والأنبياء، قال تعالى في وصف نبيّنا الأعظم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٥ ـ ٤٦]، بل أطلق على خلفائه المعصومين عليهم السلام، كما في الروايات.

وخامسة: أضيف إلى الدين النازل من السماء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٣]، والجامع بين هذه الأقسام هو الحق، فيدور مداره.

وسادسة: اختصّ النور بغير هذا العالم، أي: عالم البرزخ والقيامة، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة التحريم، الآية: ٨].

ويمكن أن يقال: إنّ جميع تلك الأقسام يرجع إليه سبحانه وتعالى، لما اختصّ به من إشراق الجلال وسبحات العظم التي تضمحلّ دونها كلّ شيء، وإنّ سائر الأنوار بارقة ورشحة من ذلك النور العظيم ـ كما في بعض الدعوات المأثورة ـ ولولاه لكانت الظلمة فاشية ومستقرّة. نعم للإضافة أثرها الخاصّ يحصل من الاستعداد والأهليّة أو القابلية، وإنّ الاختلاف فيه حصل منها وبها.

حقيقة النور:

تقدّم في أحد مباحثنا السابقة أنّ كثيراً من حقائق الأشياء ـ خصوصاً المعنويات التي هي بعيدة كل البعد عن عالم المادة ـ مستورة عنّا ومحجوبة عن إدراكاتنا، إلاّ ما أصابتها عقولنا في عالم الإمكان بقدرها، وأن ذلك لا يظهر الحقيقة ولا يبيّن الواقع، بل هو كشف عن بعض الآثار الدالّة على الوجود، وعن بعض الفلاسفة أنّ التعاريف للحقائق كلّها ليست إلاّ لبيان بعض الآثار، لا من باب الكشف للحقيقة، لأنه على وجه التحديد غير ممكن، للاختلاف في الأنواع، وللسير الاستكمالي فيها وتفاوت الاستعدادات، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكروها، ولذلك قالوا: «العلم بحقائق الأشياء صعب المنال جداً، ويظهر ذلك أكثر وضوحاً في مثل الروح، والعلم، والوحي، والموت، والحياة، والوجود، وغيرها.

ومن ذلك: النور، فقد عرّفوا حقيقته بتعاريف متعددة، لعل أسلمها: «أنه كيفية خاصة ظاهرة بنفسها»، وأنّه «خلاف الظلمة»، والمناقشة فيه واضحة، لأنّه لم يعرف حقيقته وواقعه. وعن ثالث: «هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره»، وهذا يرجع إلى الأوّل. وعن رابع: أن حقيقته الوجود، والتغاثر بينهما لفظي. وفيه: أنّ الوجود أعمّ بالكتاب والسنّة والعقل كما هو واضح. وعن خامس: أنّه الصراط المستقيم الموصل للحقيقة. وفيه: على فرض التنازل أنّه تعريف بأحد المصاديق. وعن سادس: أنّه القوّة، أو الحلاوة في الباطن، أو الوصول إلى الحقّ، والمناقشة فيه واضحة جداً، وأنّ ما ذكر من المصطلحات الصوفيّة التي هي بعيدة عن الماء المعين ومنهج الشرع المبين والصراط المستقيم.

فالصحيح ما تقدّم من أن النيل إلى الواقع والحقيقة غير ميسور، وأنّ هذه التعاريف كلّها تقريبيّة، قد يقنع الذهن بها وإن لم تقتنع النفس، وعدم النيل إلى الحقيقة لا يضرّ بالسير والسلوك بعد الدرك أنّه من جند القلب، وبه تكشف المبهمات وترفع الظلمات ويتميّز الحقّ من الباطل، فيحقّ الحقّ ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحقّ بالنور المشرق عليه، وتنهزم الظلمات وتوابعها، إذ لا بقاء للظلمة مع إشراق النور ووضوحه.

اختلاف النور:

النور كالوجود ينقسم إلى حقيقة ومجاز، فالنور الحقيقي هو نور المبدأ جلّ شأنه، كما هو الوجود الحقيقيّ، وسائر الأنوار إشراق منه، وهذا معنى ما ورد في الدعاء المأثور: «أنت نور الأنوار»، أو «أنت ربّ الأنوار»، وإنّ اختلافه في عالم الشهادة والإمكان حسب سعة إشراقه وانتشاره أو تحديده، بل يختلف بمدى أثره وبارقته على القلب وحسب مناشئه ومصادره.

ولا يمكن تحديد هذا الاختلاف، لتفاوت النفوس، واختلاف الأسباب والآثار، والتقرّب إليه مرتبةً ودرجةً، ودنواً وبُعداً، إلاّ أنّ الجامع الذي ممّا لا ريب فيه هو الكشف للنور، كما أنّ للبصيرة الحكم، وللقلب الإقبال والإدبار، ولكن جميعها تختلف باختلاف المراتب والدرجات.

أما النور الحقيقيّ الذي لا يتصوّر فيه التشكيك، فهو النور المختصّ بالمبدأ جلّ ثناه، الذي تجلّى به، وسمّى به نفسه، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإنّه اللامحدود من جميع الجهات ـ جلالاً

وجمالاً، وإشراقاً وملكوتاً ـ فلا يتصوّر نور دونه، والأنوار كلّها فائضة من بحر جبروته، كما ورد في الدعاء المأثور: «يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدّر النور، يا نور كلّ نور، يا نوراً بعد كلّ نور، يا نوراً فوق كلّ نور، يا نوراً ليس كمثله نور»، فالكائنات كلّها رشحة من رشحات نوره، وفيض من بحار أنواره، فعليه لا يعقل أن يكون الكون ظلمة ـ كما عن بعض أهل العرفان ـ لإضافته إليه وخلقه بالإرادة التكوينيّة، إلاّ أن يراد من الظلمة في حقّ أهل الحجاب، لا لأهل الحقّ والعرفان.

وبتعبير أوضح: أنّ ذاته تعالى حقيقة النور الذي لا يوصف ولا يمكن تحديده إلاّ بسلب النقائص عنه، مستور عنّا كنهه، جامع للمالات وإليه تنتهي الكمالات، ومنه أفاضت الأنوار.

ومما ذكرنا تسقط دعوى بعض أهل العلم من أن النور جسم وعرض، والباري جلّ شأنه منزّه عنهما، فلا بد من التأويل في الآية الشريفة، فإن ذلك النور ليس كسائر الأنوار كما عرفت، فلا حاجة إلى التأويل.

على أنّ مقام المظهريّة، والتجلّي، والإشراق غير مقام الذات، وفي بعض روايات نفي الرؤية: «كيف أرآه وحجابه النور»، أي: أفاض من نور ذاته نور حجابه، فهو تعالى محجوب، وفي الدعاء المأثور: «اللهم ربّ النور العظيم»، أو قوله عليه السلام مخاطباً له جلّت عظمته: «أنت نور النور».

والحاصل: أنّ تجلّيه تعالى بالنور، ليس من قبيل النور المتّصف بالكيف والعرض في عالم الإمكان المحدود بالمعقول، وإن كانت

السموات والأرضين كلّها أنواراً أشرقت من نوره العظيم بعدما كانتا معدومتين، فلا داعي لالتماس المجاز في الآية المباركة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: المنوّر لهما، وإن كان ذلك صحيحاً في حدّ نفسه، كما لا معنى للمبالغة فيها أصلاً كما عن بعض، والبحث نفيس جداً نتعرض له في الآية الشريفة المناسبة له إن شاء الله تعالى.

وقد تقتبس النفوس المستعدة أنوارها من الصحف المطهّرة النازلة من السماء على قلب الرسل والأنبياء عليهم السلام، فتهتدي إلى الكمال اللائق، وتصل إلى المقام الراقي.

كما أن النور يشرق من وجود الرسل والأنبياء عليهم السلام على القلوب القابلة أو اللائقة للسير والسلوك لعرفان الحقّ والتوجّه للخالق، وكذا من الأولياء بل العلماء العاملين بعلمهم المتقين، الذين وصفهم علي عليه السلام في خطبة همام.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد يشرق النور من جميع الممكنات التي وجدت بالإرادة التكوينيّة، الدالة على خالقها وبارئها وجاعلها على النفوس القابلة للوصول إلى معرفة موجدها ومدبرها.

وهذه الأنوار كلّها قابلة للشدّة والضعف، ولها مراتب، وفي كل مرتبة درجات، وفي كلّ درجة منازل، وفي كلّ منزلة مراحل، وتفصيل ذلك خارج عن موضوع الكتاب.

آثار النور:

الأنوار الإلهية تؤثر في القلوب وتوجب سعادة النفس ورقيها، وتخلّف حقائق هي السبل للفوز بالكمالات، فبالنور يميّز الإنسان الحسن

من القبيح، وبعد ذلك البصيرة تذعن أو تحكم على الحسن بحسنه وعن القبيح بقبحه، ثمّ القلب يقبل على ما ثبت حسنه ويدبر عن ما ثبت قبحه، فتحصل السعادة بعرفان الحقّ، فهذه الحقائق تستند إلى النور، وهو السبب لها، ولذا اشتهر عندهم «الأنوار مطايا إلى العلاّم»، لأنّها تشرق على النفوس المستعدة، فتوصلها إلى وادي المعرفة وتربطها مع خالقها.

ولا فرق في تلك الأنوار الفائضة منه جلّ شأنه أن تشرق من الرسل، والكتب، أو الأكوان، كل لها أثرها الخاصّ على النفس، إن لم تكن على القلوب أكنة.

اقسام النور:

الأنوار المحسوسة بعين البصر المنتشرة من الأجسام النيرة، كالقمرين والنجوم والأرض وغيرها أنوار خارجيّة لها أثرها الخاصّ في عالم الإمكان، ولسنا في مقام بيانها لأنّها مدركة لكل أحد حتى البهائم، فلا خصوصية لها سوى الآثار، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [سورة يونس، الآية: ٥]، والضوء أخصّ من النور، وفي الدعاء المأثور: «يا خازن الليل في الهواء، وخازن النور في السماء».

وأما الأنوار المعنوية التي تدركها البصيرة، فهي على قسمين: دنيويّة، وأخروية، والأول كنور العقل والعلم، ونور الإيمان. وإنّ الحياة في هذا العالم متقوّم بهذه الأنوار، ولولاها لم تسعد حياة، وهو المراد من الآية الشريفة: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٢٢]، وفي الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

ومن الأنوار المعنوية التي تدركها البصيرة، النور الذي يشرق من الكتب السماويّة، لاستضاءة السبل وإيصال السالك إلى منزل القرب إليه تعالى، وكذا الأنبياء والأولياء كما مرّ.

وهناك أنوار أخرى ذكرها علماء العرفان، وهي:

الأوّل: نور الطالبين، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة ويظهر نور اليقظة، والروايات الدالّة على ذلك كثيرة، وفي الدعاء المأثور: «وهب لي نوراً ترفع به ظلمة الجهل عني، واطلب به رضاك».

الثاني: نور السائرين، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ويظهر به بهجة المعارف والأسرار، وفي كثير من الدعوات السؤال منه جلّ شأنه بإفاضته علينا، ويعبّر عنه بنور الإقبال، ولعلّه المراد من الحديث الوارد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال ﷺ: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله».

الثالث: نور الوصال أو التوجّه، وبه يحصل الشهود ويشهد القلب مولاه.

وهناك تقسيم آخر، وهو قريب مما ذكرنا، نور الإسلام، ونور الإيمان، ونور الإحسان، فبالأوّل الانقياد والإذعان، وبالثاني يكشف ظلمات الشرك الخفي ويظهر بهجة الإخلاص والصدق والوفاء، وبالثالث تنكشف ظلمة الآنية ويظهر نور وجود المبدأ كما هو، ولهذه الأنوار مراتب ودرجات.

وعن بعض العرفاء المحققين: أنّه بنور الإسلام الواقعي يتحقق الفناء في الأفعال، وبنور الإيمان يتحقق الفناء في الصفات، وبنور الإحسان يحصل التمكين في الفناء في الذات.

واستغنى بعض منهم عن النور الثالث بذكر الثاني، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الفناء في الصفات قريب من الفناء في الذات، وأنّ الصفات لا تفارق الموصوف، فمَن يرى سمعه بالله تعالى وبصره بالله سبحانه - كما في بعض الروايات - يرمي وجوده بالله جلّت عظمته، فمهما تحقّق أحدهما تحقق الآخر، ولكن لا على نحو الوجود والموجود حتى يستلزم المحاذير، بل على نحو المظهريّة والفناء فيه جلّ شأنه، ولذيل الكلام بحث نفيس طويل ننتظر الفرصة للتعرّض له إن شاء الرب جلّت عظمته وأراد.

وأمّا الثاني: فهو يختص بالمؤمنين والأولياء والصالحين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [سورة التحريم، الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر، الآية: ٦٩]، أي: بوجود الأنبياء والأولياء والمؤمنين العالمين في أرض الحساب.

وهناك تقسيم آخر لنوره جلّ شأنه وهو نور الأعظم، ونور العظيم، ونور العظمة، كما ورد في الدعوات المأثورة، ويحمل ذلك على مراتب تجلياته أو يحمل على إدراكاتنا لتلك الأنوار والله العالم.

إشراق الأنوار:

كما أن للأنوار المحسوسة شروقاً وغروباً تدل على وجودها وآثارها الخاصّة، كذلك للأنوار المعنوية، فإن لها إشراقها على القلوب والنفوس، ولا بد فيها من إزالة الحجب المانعة من الإشراق، وهي تعلّق القلب بالمادة والماديات وتوطين حبّ الدنيا فيه، وقد يغرب النور عنه

وتخمد الفطرة، كما عن علي عليه السلام: «إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان»، وأن القلوب تقبل على ما يوجب التصفية وتدبر عمّا يمنعه من التخلية والتحلية، إلاّ إذا وصلت إلى مرحلة لا تؤثر فيها الأنوار مطلقاً، وأظلمت من جميع الجهات، وحسب التعبير القرآني: القساوة، أو أشدّ من الحجارة، أو ران على قلوبهم، فحينئذٍ يتمثل الإنسان في الشر ويصير مصداقاً للشرور (نستجير بالله تعالى)، ومع ذلك كله فهو قابل للرجوع إلى الفطرة والاستعانة بها لإزالة الخبائث عنه، ورفع الحجب، كما يأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

لوازم النور:

الأصل في النور الخير، والفرح، والسرور، والطاعة لله جلّت عظمته كما أنّ الظلمة، يتعقّبها الحجاب، والشر، والجهل، والقسوة، والضيق والشدّة والبعد عن الله تعالى، فالخير للنور، من قبيل لوازم الماهية في الأشياء، لا يمكن التفكيك بينهما أصلاً، مثل الزوجيّة للأربعة، وفي المقام لازم الحقيقة، والظلمة تتعقّبها الصفات السيئة المضادة للنور وصفاته.

ومرادنا بالأصل ذلك، لا الأصل المصطلح في علم الأصول وسيأتي إن شاء الله تعالى توضيح ذلك في الآيات المناسبة، كما يأتي أقسام الخير والفرح والسرور أيضاً.

منازل النور ودرجاته:

تقدّم أن النور الحقيقي الذي لا يمكن تحديده منحصر به تعالى، وأنّ ما سواه على منازل ودرجات حسب الإشراق منه جلّ شأنه، فأول

نور أنزله تعالى عن ذاته الأقدس وأظهره بنور قدرته من العدم، كان نور نبيّنا الأعظم ﷺ، ففي الحديث: «أول ما خلق الله نوري»، وعنه ﷺ: «كنت نوراً بين يدي ربّي قبل خلق آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف عام، وكان يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم أودع ذلك النور في صلبه»، وفي الحديث عن ابن عباس عنه ﷺ: «لما خلق الله آدم عليه السلام أهبطني في صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح في السفينة وقذفني في صلب إبراهيم ثم لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط».

وأما أنوار الأئمة المعصومين عليهم السلام، فهي أشرقت من نوره عزّ وجلّ، وكانت في العرش كما في بعض الروايات، ثم هبطت إلى عالم الشهادة وبعد ذلك ظهرت الموجودات بوجود نوره جلّت عظمته على حسب الترتيب، المجرّدات العلويات ثمّ السفليات، وكلّما كانت أقرب إلى العلويات والمجرّدات كانت أشرف منزلة، وهكذا بالنسبة إلى المؤمنين حسب درجات إيمانهم، وهذا معنى قوله ﷺ: «أنا من الله والمؤمنون مني».

وعلى ضوء ما ذكرنا ظهر مراد ما هو المشهور بينهم من أنّه تعالى أوّل ما خلق العقل الأوّل ثم بقية العقول العشرة[1].

---

(١) ن.م، ج١١، ص١١٢ ـ ١٢١.

ما يستفاد من بعض الآيات من لطائف عرفانية

يستفاد من الآيات المباركة المتقدمة[(١)] مباحث عرفانية مهمة:

الأول: أنه يدعو الله تعالى في الآيات المتقدمة إلى العقل السليم والفطرة المستقيمة، وهما محجوبان بحجب كثيرة، ومن أغلظها الحجب الشهوانية التي تكفي في استفزازها النفس الأمّارة بعدما يدعو إليها الشيطان ويهيء لها جميع السبل التي تثيرها، لا سيما بعد قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة ص، الآية: ٨٢ - ٨٣]، فاجتمع على إثارة الشهوات داعيان، هما النفس الأمّارة والشيطان، ولذا كان داعي الشيطان أكثر إجابة من داعي الرحمن.

وإنما يأمن الإنسان من كيد الشيطان وقهر النفس الأمّارة بالإيمان بالله عز وجل ومتابعته وطاعته في جميع ما أنزله الله تعالى، ويرتقي إلى

---

(١) ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

درجة الخلّة والحجب، وبذلك تنجلي تلك الحجب وتنخرق على قدر مراتب الإيمان.

وممّا لا يمكن اجتماعهما في قلب الحبيب هو تولّي الله تعالى وتولي أعدائه، فإنهما أمران متنافيان في أي مرتبة كانا، ومن المعلوم أنه بتولّي الكفار لا تزال الحجب تغلظ حتى تستولي على إيمانه فيزول رأساً، ولأجل ذلك ورد النهي عن تولي الكافرين والمنافقين والجائرين الظالمين في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة، وقالوا: «لا عدو أعدى من قرين السوء»، والشواهد العقلية تدل على ذلك، لأن سر العبودية بين المعبود الحقيقي والعابد من أفضل الموجودات في عالم الممكنات، وبهذه الإضافة يصل العبد إلى أقصى درجات القرب وأعلى المقامات، وهذه الرابطة فعّالة لكل ما تشاء، وخلاّقة لما تريد، ولا يجوز العقل أن تدنس هذه الإضافة المباركة بتولّي الكفار والايتلاف مع الفجّار الأشرار، وليس ذلك إلا كمن أغفل عن الجوهرة الكريمة التي لا تقدر بثمن وأوقعها في الكنيف.

الثاني: يمكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، الواردات القلبية، التي ترد على قلوب أوليائه تعالى، فيكون المراد بالإخفاء عدم إذنه تعالى في إنشائه وإظهاره كجملة من أسرار القضاء والقدر، والمراد من الإبداء إذنه في ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه، قال عزّ شأنه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢٤]، فتكون جميع تلك الخاطرات والواردات مورد علمه ومشيئته وإرادته بنحو الاقتضاء لا بنحو العليّة التامّة حتى يلزم المحذور من الجبر

وأمثاله، فإن قلوب الأولياء من أجلّ مشارق أنوار الغيب، وفي القدسيات: «لا تسعني أرضي ولا سمائي، بل يسعني قلب عبدي المؤمن»، لأن إيمان المؤمن بالله تعالى يجعل قلبه متصلاً بما لا يتناهى له من كل جهة، فيخرق حجب الإمكان إلى أن يصل إلى مرتبة لا يمكن تحديدها. وفي الحديث سأل موسى عليه السلام ربّه فقال: «أين أجدك يا رب؟ فقال تعالى: إني عند القلوب المنكسرة»، أي كسرها حبّ الله جلّ جلاله، وجبرها تجلّي المحبوب فيها، فكسرت الهيبة الإيمانية جميع الحجب الظلمانيّة، بل الجهات الإمكانيّة، فاتصلت إلى معدن النور ومنبع الخير والسرور، فاستعدّت للإشراق فأشرقت عليها المعارف الحقّة والعلوم الغيبيّة، مما لا يعقل تحديدها بالكلام ولا يمكن تحصيلها بالجهد والإلمام، وهو على كل شيء قدير. وللكلام تتمة تأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى، فحينئذٍ الآية المباركة تختصّ بالمؤمنين الذين لهم الدرجات العليا في الإيمان.

الثالث: أن محبته تعالى لخلقه إن كانت من المحبة التكوينية فهي من صفات الذات الأقدس، لرجوعها إلى العلم والحكمة، وهما عين الذات، ولا يعقل فيها الاشتداد والتضعف، وإن كانت من المحبّة الفعليّة فهي من صفات الفعل، لرجوعها إلى الرضا والتوفيق والتسديد، وكل ذلك من صفات الفعل، ولا يعقل أن تكون في مرتبة الذات لقابليتها للتغير والتبديل.

وهذه المحبّة الاختيارية من العبد لله عزّ وجلّ هي موضوع السير والسلوك والوصول إلى مقامات العارفين، وبعضهم سمّى أهل هذا السير والسلوك بـ: القافلة الإلهيّة. وخلاصة ما قالوه فيها: إنها قافلة تسير من

الله تعالى إلى الله مع الله، وقال جلّت عظمته في شأنهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٠]، ورائد هذه القافلة ورئيسها محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الرحمن، ويد الله فوق رؤوسهم ترفرف بأنحاء اللطف والرحمة، وتجذبهم روحانيّة خليل الرحمن إلى خليله، ومعنوية حبيب الله إلى حبيبه، وأن سعيهم الوصول إلى أقصى الكمال، وهذا أكمل سير في الممكنات.

الرابع: أن التحذّر عن الله جلّ جلاله له مصاديق كثيرة، من أعظمها الإيذاء والاستخفاف بعباد الله تعالى الذين مدحهم في آيات كثيرة وذكر صفاتهم، فقال عزّ شأنه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٦٣ ـ ٦٥]، وذكر علي عليه السلام صفاتهم في جملة من كلامه فقال: «نطقوا فكان نطقهم صوابا، وسكتوا فكان سكوتهم حكمة ونظرهم عبرة، صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحهم معلّقة بالملأ الأعلى، أنفسهم منهم في تعب والناس منهم في راحة، شعارهم الخضوع ومأكلهم وملبسهم القنوع»، وقد ورد في السنّة المقدسة في مدحهم ما لا يحصى، حتى أنه ورد فيها أن الله جلّت عظمته قال: «من آذى وليي فقد بارزني بالمحاربة»، وقوله صلى الله عليه وآله: «ولولاهم لساخت الأرض بأهلها»، إلى غير ذلك ممّا ورد في مدحهم وثنائهم، ولا بد أن يكون كذلك، لأنهم أعظم مظهر لمكارم أخلاق الله تعالى، وأن قلوبهم

المقدّسة لا تزال مستنشرقة بشوارق من عالم الغيب، فتزيل عنها كلّ شكّ ودنس، فهم الأنوار التي تخرج بهم الناس من الظلمات إلى النور، وهم الصراط المستقيم[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٥، ص٢٢٣ ـ ٢٢٥.

مراتب معرفة حقائق الموجودات

شهود حقائق الموجودات على ما هي عليها في الواقع بجواهرها وأعراضها ولوازمها وملزوماتها الأزلية والأبدية حدوثاً وبقاءً، بل وقبل الحدوث يصحّ أن يعبّر عنه بالغيب الذاتي، ولا حدّ لهذا الشهود من كلّ جهة، ولو عبر عن ذلك بابتهاج الذات بالذات يصحّ أيضاً، وهو مختصّ بالواحد الأحد الصمد، ولا يدانيه ملك مقرّب ولا نبيّ. وقد يفاض منه شعاع على الغير، وهو تابع لقدر الإفاضة كمّاً وكيفاً. كما أنه لا يختصّ بعالم دون عالم، فإن الإشعاع أزلي وأبدي والنفوس المستعدّة تستفيض من ذلك الإشعاع بقدر القابلية، ويصحّ أن يكون رضوان الله تعالى إشارة إلى ذلك الإشعاع، ولعلّ الله تعالى يوفّقنا لتفصيل المقام في مستقبل الكلام إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك يعلم أنه لو جعل العبد غاية عباداته الوصول إلى رضوان الله تعالى، كانت من أكمل الغايات وأحسنها.

وحبّ الشهوات هو من أغلظ الحجب الظلمانيّة بين العقل وإدراك الحقائق النوريّة والمعارف الربوبيّة، بل هو نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، لأن منشأ الحب هو القلب، فإذا كان متعلقاً بالأهواء الباطلة والشهوات، يصير القلب كخرقة بالية منغمرة في دار الغرور،

محجوب عن منبع الجلال والنور، فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، فيضلّ عن الصراط المستقيم، ولا غاية بعد ذلك إلا سواء الجحيم. فلا غاية لإعمال الشهوات المذمومة إلا العار والنار، فإن حقيقة الإنسان الكاملة ـ التي هي كالصورة لجميع العوالم الإمكانية ـ لم تعرف بعد ولن تعرف، وإن بذل العلماء المحققون من الفلاسفة الإلهيين وغيرهم جهودهم، وصرف العرفاء الشامخون طاقتهم فيه، لأنها أعظم سرّ الله تعالى في الخليقة، وهي من أجلّ مخلوقاته في جميع العوالم الربوبيّة، ولا بد في عرفانها من العكوف على بابه والتماس ذلك من وجهه وكتابه، ومثل هذه الآيات المادحة لمقام التقوى والشارحة لها، تشير إلى لمعة من لمعات ذلك النور الحقيقي، فكما أن للتقوى والعبودية لله عزّ وجلّ مراتب، كذلك للإنسانية الكاملة، بل مراتبها تدور مدار العبودية الخاصّة، وكلّ ما قالوه العرفاء من وحدة الوجود والموجود وأمثال ذلك في تعبيراتهم، إن رجع إلى ذلك فلا بأس به، وفي غير ذلك يرد علمه إليهم.

وكلّ الذي شاهدته فعل واحد	بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره	ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة
وحقّقت عند الكشف أن بنوره	اهتديت إلى أفعاله بالدجنة
وتظهر للعشاق في كلّ مظهر	من اللبس في أشكال حسن بديعة
ففي مرة لبنى وأخرى بثينة	وآونة تدعى بعزّة عزت
تجليت فيهم ظاهراً واحتجبت	باطناً بهم فأعجب لكشف بسترة

والمتحصل من الآيات القرآنية والسنّة المقدسة أن الإنسان الكامل، كما أنه مخلوق لله تعالى، كذلك مورد تربيته حدوثاً وبقاء إلى أن يرد

دار الخلود، وأن إرادة الإنسان الكامل متفانية في مرضاته، فيصح أن يقال إن الإنسان الكامل مورد مشيئته وإرادته، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال، الآية:١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه، الآية:٤٦]، وفي الأحاديث القدسية: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»، وفي بعض الأحاديث: «يشكو لله تعالى عن عبده المؤمن يوم القيامة فيقول الله عز وجل: عبدي إني مرضت فلم لم تعدني، يقول العبد: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ يقول الله تعالى: مرض عبدي المؤمن فلو عدته لوجدتني عنده»، والأحاديث في سياق ذلك كثيرة، فما عبّر به بعض الأعاظم من الفلاسفة من الوحدة تعبير حسن إن أراد به ما يستفاد من سياق القرآن والسنّة، وعبارة أخرى عما شرحه أمير المؤمنين عليه السلام عن بينونة الصفة، لا بينونة العزلة، فقال عليه السلام في بعض خطبه الشريفة: «بائن مع خلقه بينونة صفة، لا بينونة عزلة»، وهو على إجماله يناسب جميع الأقوال التي قيلت في بيان وحدة الوجود. ولعلّ الله تعالى يوفّقنا لتحقيق القول بأكثر من ذلك في مستقبل المقال[1].

---

(١) ن.م، ج٥، ص١٣١ ـ ١٣٣.

الإنسان أشرف الممكنات

لا ريب في أن الإنسان أشرف الممكنات، لأنه الفصل الأخير لجميعها في المسير الاستكمالي، فيكون الكلّ متوجهاً إليه بالتكوين، توجّه المقدمات بالنتيجة.

وفيه اجتمعت العلل الأربع، أما العلة الفاعلية، فقد قال الله تعالى بعد ذكر الأدوار وعوالم خلق الإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١٤].

وأما العلة المادية، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه المباشر للخلق والتربية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة ص، الآية: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٢].

وأما العلة الصورية قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢٤].

وأما الغائية فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٩].

فجميع الموجودات يحبّ الإنسان محبّة تكوينية، فالكلّ مسخّر له، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٠]، كما أن الإنسان بطبعه يحبّ جميع الموجودات لفرض تفانيها فيه، فتكون المحبّة والعشق من الطرفين (أي تعاشقا)، فالموجودات كالشجرة بالنسبة للإنسان وهو كالثمرة، فخلقت الدنيا له ولأجله.

فلا بد للإنسان من بذل الجهد لكشف أسرار الموجودات ورموزها واستخراج الحقائق منها، وذلك لا يكون إلا بالارتباط التام مع الربّ المطلق والقيوم بالحقّ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، فهو أشد أنحاء العلم وأمتنه وأقواه، كما أثبته الفلاسفة ـ من قديمهم وحديثهم ـ وجميع أهل العرفان.

ولكن الإنسان قصّر في ذلك، فأوقع نفسه في ظلمات بعضها فوق بعض، لا يمكنه التخلص عن بعضها فكيف عن جميعها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٨]، وليس المراد بهذا المشي في طريق خاص أو علم مخصوص، بل المشي في جميع أبواب العلوم والمعارف، مشياً مطابقاً للواقع يصل إلى النتيجة الحقّة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ⑲﴾ [سورة الحشر، الآية: ١٩][1].

(١) ن.م، ج٥، ص٣٣ ـ ٣٤.

أعمال الإنسان وأفعاله

جميع الأفعال الحاصلة من النفس الإنسانية بواسطة القوى الباطنية الجسمانية، إنما هي بمنزلة الأشباح والأظلة للصورالحاصلة في النفس، فهي كالمرآة التي تبث أشعتها إلى الخارج، وقد أثبت ذلك المحققون من الفلاسفة، وقال بعض المحققين:

النفس في وحدتها كل القوى وفعلها في فعلها قد انطوى

والقرآن الكريم والسنة الشريفة يثبتان ذلك أيضاً، فإذا كانت النفس متوجّهة إلى الله تعالى، تكون أشعتها من سنخها متصلة إلى الله جلّ جلاله، وإذا كانت متوجهة إلى غيره عز وجل، تكون أشعتها كذلك، فلا تتحقق أية إضافة لله تعالى، وإلا لزم الخلف الباطل، هذا من جهة النفس.

وأما من جهته عزّ وجلّ، فقد قال الله تعالى: «أنا خير شريك من عمل لي ولغيري تركته لغيري» فإذا كان العمل له تعالى ولغيره، لا يعتني به الله تعالى، فكيف إذا كان تمام العمل لغيره؟! وإذا كانت تربية الأولاد ومصرف الأموال في غير ما يرتضيه عزّ وجلّ، لا يمكن أن ينتفع من ذلك نفعاً إلا ما يتصوّر من المنافع الوقتية الوهمية، وهي عدم محض

بالنسبة إلى النفع الواقعي الحقيقي، قال تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [سورة النور، الآية: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢٨][١].

(١) ن.م، ج٦، ص٢٤٢ - ٢٤٣.

ارتباط الممكنات مع خالقها وأقسامه

الممكنات بأسرها ـ ومنها الإنسان الذي هو أجلّها وأشرفها ـ لا بد لها من ارتباط مع خالقها، كما أن للخالق ارتباطاً مع خلقه، وهذا الارتباط على قسمين:

الأول: الارتباط التكويني، وقد أثبت أكابر الفلاسفة في محلّه، أنه أوثق الارتباطات وأجلاها وأتمها، بل وأشدّها، ومن أجل ذلك يقسم الخالق بمخلوقه، كما يقسم الحبيب بمحبوبه، قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④﴾ [سورة التين، الآيات: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④﴾ [سورة الفجر، الآيات: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧﴾ [سورة الشمس، الآيات: ١ ـ ٨]. لأن الفاعل يرى قدرته وظهوره في فعله، فالفعل من مظاهر بروز الفاعل وتجلياته وظهوره، فيسعى كل منهما لصاحبه بما يريده تكويناً ويرضاه وما يشتهيه، وإن شئت سميت هذا بتسبيح الممكنات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٤٤]، فلا

بأس. وإن شئت سميته بالفطرة، كما عن بعض، فلا بأس وإن شئت سميته بشروق نور أزلي من الغيب المحجوب على ظلمات الممكنات، فلا بأس. هذا كله بناءً على ما هو المعروف بين الفلاسفة من القول بتكثّر الوجود والموجود. وهذا القسم سير تكويني متدرج في قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

الثاني: الارتباط الاختياري الالتفاتي الفعلي، وعليه يدور أساس تكميل الإنسان، ولأجله أنزلت الكتب السماويّة والقرآن المبين، وهو غاية دعوة الأنبياء وجميع المرسلين، وبه تقوم درجات الجنان ودركات النيران، وعليه يدور أساس تكميل الإنسان إلى ما لا حدّ لأقصاه ولا يمكن أن يدرك مداه، وبه يسير الإنسان في عالمي الأظلة والأنوار، ويفرح من نسيم يفوح عن ربوع المحبوب وتلاله، ويدرك سرّ الحياة والجمال والجلال:

أراك تزيد في عيني جمالا　　فأعشق كلّ يوم منك حالا
تزيد ملاحة وأزيد تيما　　فحالي فيك تنتقل انتقالا

ومثل هذه الآية الكريمة: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، والآية المباركة: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ ﴿سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨﴾. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد، الآية: ١٢]، والآيات المباركة الأخرى ترشد إلى هذا القسم من الارتباط، حتى يتّحد الارتباط التكويني مع الارتباط الاختياري، فتزداد

جوهرة النفوس الإنسانية تلألؤاً وجمالاً، وتعرج إلى معارج لا حدّ لها عظمة وجلالاً، قال الله جلّت عظمته: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وإن اختلفا يصير الإنسان الذي هو من أسعد المخلوقات وأفضل الممكنات من أخسّها وأسفلها، لأنه قطع ارتباطه مع خالقه وخالف منعمه، وأنزل مقام نفسه حتى في مرتبة التكوين، قال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٩]، وقال تعالى. ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧]، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٧]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وهذا القسم من الارتباط حالي، لا أن يكون مقالياً كما يعرفه أهل العرفان[١].

(١) ن.م، ج٥، ص٨٤ ـ ٨٦.

عالم الدنيا

لا ريب في أن عالم الدنيا متقوّم بالخيالات والأوهام والجهالات، والناس بعيدون عن الحقائق والواقعيات، وموجبات الإغراء بالشهوات كثيرة ومتعددة، ترجع إلى التغافل عن ما يصيب الفرد من المكروه والأذى من الغير، وبذل أحبّ الأشياء لديه وهو المال والجاه، لذا فإن ترويض النفس وجعلها تحت إمارة العقل والحكمة، واعتبار الفرد نفسه من أفراد المجتمع وجزءاً لا يتجزأ منه، بحيث يعتبر ما يكون كمالاً للمجتمع كمالاً له وما يصيبهم من السوء يصيب نفسه، هو ما يريده الباري عزّ وجل من كل إنسان.

وقد أكد عزّ وجلّ إرساء قواعد العفو والمغفرة بين الناس، فإن كل فرد أحوج من غيره إلى العفو والمغفرة لما يصدر منه من الذنوب والمعاصي، فبالعفو عن إساءة الغير وبذل ما عنده إليه يدخل في زمرة من تخلّق بأخلاق الله تعالى، التي من أهمها بالنسبة إلى الإنسان العفو والمغفرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، فما يزرع فيها يحصد في الآخرة، وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع إليه عز وجل بأي وجه أمكن. فإن لها جهتان، جهة تكوينية وهي تربية الإنسان، وجهة تشريعية وهي تكثير صفوف المتقين، وقد اهتم به الله عز وجلّ اهتماماً بليغاً وأعلن في

جميع الكتب السماوية ـ خصوصاً القرآن الكريم ـ بأنه الغفور الرحيم، وجهر بقبول التوبة والدعوة بالرجوع إليه، وهذا هو عين ما يدعو إليه العقل المجرّد[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٦، ص٣٢٧.

محبوبية طلاق الدنيا وأقسامه

إن طلاق الزوج لزوجته هو أمر مبغوض عند الخالق والمخلوق، وهناك طلاق آخر هو مجمع الكمالات الإنسانية وأهم طرق السّير والسلوك إلى الله تعالى، وتتجلى أهميته في اجتماع التخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل، والتجلية بصفات الباري عزّ وجلّ فيه، وهو طلاق الدنيا وما سوى الله جلّت عظمته، وهو أيضاً مرّتان ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، وإن له درجات:

الأولى: ما إذا كانت الدنيا سبباً للانغمار في عالم الغرور وحجاباً عن عالم النور، فترتع النفس في الجهالات والظلمات، فلا يفيدها منع مانع ولا ترتدع بأيّ رادع. وطلاق مثل هذه الحالة واجب على كلّ نفس تريد الاستكمال والترفع عن دار الوهم والخيال، والارتقاء إلى عالم الحقائق التي لم تزل ولا تزال.

الثانية: ما إذا أمسك نفسه عن الانغمار في عالم الغرور طلباً للاستكمال، فتشرق على النفس من عالم الأنوار، فترفض الدنيا وما يبعدها عن ساحة قدسه تعالى، ولا ريب في حسن هذا الطلاق بالشرائط المقرّرة في الشريعة المقدّسة، وبعد ذلك تصل النوبة إلى الإمساك

بالمعروف، فيعمل بما يرتضيه الرحمن ويرتقي بذلك إلى درجات الجنان.

الثالثة: وهي آخر المراتب وأعلاها، وهي قطع العلاقة والإضافة القلبية مطلقاً، عملاً بما يقال: «إن التوحيد إسقاط الإضافات»، وهذا هو التسريح بالإحسان.

وطلاق الدنيا في أيّ مرتبة حصل لا ينافي بقاء الدنيا تحت سلطته وإرادته، كما في طلاق أولياء الله تعالى للدنيا، فقد تمثلت الدنيا في صورة خارجية ـ وهي صورة أجمل النساء ـ لسيد الأنبياء في ليلة المعراج، وفي صورة بثينة التي كانت أجمل نساء عصرها لعليّ عليه السلام، فقال لها: «غرّي غيري، لا حاجة لي فيك قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها»، فطلاق الدنيا بالشرائط المقرّرة في الشرع من أفضل الدرجات وأعلى المقامات، واجب عند المخلصين والصديقين المتفانين في حبّ الله تعالى.

وهو أول منزل من منازل السير إلى ربّ العالمين، ومن جهة الاستقامة والبقاء عليه تجتمع فيه سائر المقامات، من التخلية والتحلية والتجلية بل الفناء، والثبات عليه ثبات في الرحمة الواسعة التي لم تزل ولا تزال، ويشتد مقام التوحيد فيعبد الله جلّت عظمته حباً له، لا لشوق الوعد ولا خوف الوعيد(١).

---

(١) ن.م، ج٤، ص٢٨ ـ ٢٩.

حب الدنيا

إن للقرآن الكريم بطوناً ترتقي إلى سبعة بطون كما في بعض الروايات، أو إلى سبعين بطناً كما في بعضها الآخر، ولا بد أن يكون كذلك، لأنّه كلام مَنْ لا تناهي لعلمه وحكمته وتدبيره، وقد حكي عن بعض الفلاسفة الأقدمين أنه كان يلقي على أصحابه كلمات الحكمة وهم يستفيدون من كلّ واحدة منها وجوهاً من الحكمة، كلّها صدق وصواب.

وما يرتبط بالآيات التي تقدّم تفسيرها أنه ورد في بعض الروايات تفسير الفاحشة بحبّ الدنيا، كما ورد تفسير السفه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ بحب الدنيا أيضاً، والجميع حقّ وصواب، لقول سيد الأنبياء ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وقول سيد الأولياء والعرفاء عليّ عليه السلام: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»، فإذا اجتمعا معاً كانا من أفحش الفواحش في إيجاب المفسدة المهلكة، وإلى ذلك أشار عزّ وجلّ في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، وهذه السورة على صغرها تعيّن مبدأ الإنسان ومنتهاه الاختياريين، كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٦]، يعيّن مبدأه ومنتهاه غير الاختياريين، مع أننا إذا لاحظنا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا

لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ بالملاحظة التفصيليّة في المعتقدات والأفعال والحركات والسكنات، يكون داخلاً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾.

وكيف كان، فإن أكبر الفواحش حبّ الدنيا، الذي يجتمع مع الأهوية النفسانيّة، وحينئذٍ يكون الحدّ لهذه الفاحشة هو إماتة النفس الأمّارة وإصلاحها بالتوبة والعمل الصالح وترويضها بالملكات الفاضلة وتزيين النفس بالأخلاق الحميدة، وتزكيتها بالتقوى، ليحصل القرب إلى الله تعالى والبُعد عن الدّنيا وما فيها، فإن ذلك هو الكمال المطلق[1].

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(١) ن.م، ج٧، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.

السؤال من الله تعالى

المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أنّ السؤال من الغني المطلق الذي لا حدّ لعظمته وغناه، بل هو غير متناه أزلاً وأبداً من جميع الجهات من الأسباب التي لها دخل في تفضيل بعض على بعض. فإذا رغب الغني المطلق في السؤال عنه يكون في نفس ذلك الترغيب الرأفة والحنان، ثم إذا لاحظ السائل أنّه من فضله غير المتناهي وأنّه ذو فضل عظيم ولا حدّ لفضله، يصير ذلك أشدّ رأفة وحناناً، إلا ما يرجع إلى قصور الاستعدادات في المفاض عليه.

ثم إنّ السؤال أعمّ من السؤال الفطري الاقتضائي الحاصل من كلّ ممكن محتاج، وهو الذي يرجع إلى احتياج المعلول إلى العلّة، والسؤال القصدي كما في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن، الآية: ٢٩]، فتكون جميع ألسنة الحال والمقال متوجّه إليه تعالى، وملهجة في السؤال من فضله عزّ وجلّ في جميع الحوائج التكوينية وغيرها، وهذا معنى القيوميّة المطلقة على جميع ما سواه[1].

(١) ن.م، ج٨، ص١٨١.

الإرادة والمراد

للإرادة والمراد شأن عجيب في الدلالة على المريد وما له من الشؤون، فتدلّان عليه دلالة المعلول على العلّة التامة، ويكشفان عنه كشف الأثر عن المؤثّر، سواء كان المراد قولاً أو فعلاً أو كتابةً أو غيرها.

ومن هذا الباب كشف جميع الآيات الكونيّة والآيات القرآنيّة عن وجود الله تعالى وصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وهي بمجموعها تدلّ على عظمة هذا الموجود الذي تاهت العقول في معرفته، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٥٣].

وكذلك تكشف تأليفات المؤلّفين وشعر الشعراء، واختراعات العلماء عن مراتب كمال من تصدّى لها، وقد ورد في الحديث: «يعرف قدر الرجل من رسوله وعبده». والعقلاء يدركون ذلك أيضاً، بل يمكن أن تصل النفس الإنسانيّة إلى مرتبة الخلاقية للمراد، فتصل إلى غاية المال وتصير محلّ خوارق العادات وصدور الكرامات، وذلك شيء يسير في مرتبة العبودية، التي كنهها الربوبيّة، كما في الحديث عن الصادق عليه السلام[1].

(١) ن.م، ج٨، ص١٠٢.

الذكر وأقسامه عند العارفين

من أجلّ مقامات العارفين مقام الذكر، بل هو من أعظم مظاهر حبّ الحبيب لمحبوبه، فإن «مَن أحب شيئاً، أكثر من ذكره»، ومن علامات الحبيب الاستهتار بذكر حبيبه، وقد قالوا: إن المحب إذا صمت هلك، والعارف إذا نطق هلك، لأن الأول مجبول على ذكر الحبيب، والثاني مأمور بستر الأسرار، ونسب إلى سيد الساجدين عليه السلام:

يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوحُ به لَقيلَ لي أنتَ ممّن تعبد الوَثنا

والذكر ـ عندهم ـ على أقسام ثلاثة:

الأول: ذكر اللسان المستمد من القلب.

الثاني: ذكر القلب مع عدم حركة اللسان، ويسمى مناجاة الروح والاستجماع للمذكور بالكلية، وهذا ذكر الخواص.

الثالث: ذكر السر، ومعناه غيبة الذاكر في المذكور ـ في الجملة ـ فكأن المذكور يكون هو الذاكر، وهذا ذكر أخصّ الخواص. ومثّلوا لكلّ ذلك بأمثلة مذكورة في محالها. كما بيّنوا لكلّ واحد منها ثمرات ونتائج.

ولو أضفنا إلى ما ذكروه من الأقسام، ذكر عامة النّاس الذي يقوم

بالجارحة اللسانية فقط من دون استمداد من القلب، تصير الأقسام أربعة. ولعلهم لم يذكروا هذا القسم لتنزّههم عن مثل هذا الذكر.

ثم إنّ ذكر الذاكر إنما يتقوّم بحبّه للمذكور، ولولاه لم يذكره، والمذكور قد يحبّ الذاكر قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٣١]، بل حبّه لجميع خلقه مما أثبتته الأدلة العقلية ـ كما برهن في الفلسفة الإلهية ـ والنقلية، فيقع التجاذب في البين لكلّ من الحبيبين، وبعد تحقّق مراتب الحضور بينهما كيف يتحقق التخالف؟! لأن ذكر الحاضر من تمام الجهات قبيح، قال الشاعر:

أما ترى الحق قد لاحت شواهده ... وواصل الكلّ من معناه معناكا

والبحث نفيس جداً، لو وجدت لهذا العلم الشريف حملة[1].

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٨، ص١٨٠ ـ ١٨١.

الحب وأقسامه

من أقرب المعاني إلى النفس وأعذبها عليها الحب. ذلك هو الترابط الوثيق الذي يربط الموجودات بعضها مع بعض، وبه يجتذب كل صانع مصنوعه، فهو الطريق إلى الكمال كلّ بحسب ما يريده كمالاً، وبه تتحقّق الحياة السعيدة، ولأجله يعيش الفرد ويعمل.

يعرفه جميع الروحانيين، وأملاك السبع الشداد، ودواب الأرض المهاد، وجميع الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحار الغامرات، بل إن جميع الموجودات تحبّه تعالى وتعشقه، كما أثبته جمع من الفلاسفة.

وبهذه الصفة يدرك المخلوق خالقه، ومن هذه الجهة يعطف الخالق على خلقه، فلا حياة إلاّ بالحب، ولا سعادة إلاّ بالعشق.

وهو من المعاني الوجدانية التي يدركها كلّ أحد، وإن قصرت العقول عن الوصول إلى كنه حقيقته.

فهل هو برق من نور الجمال الكامل المطلق، يبرق ثم يختفي؟!!

أم هو تجلٍّ من وجه الله الأعظم، ظهر وتجلّى؟!!

أم هو تلك الجاذبية التي أثبتها العلم الحديث في جميع الموجودات؟!!

أم هو ما بيّنه علي عليه السلام في مقام العارفين وخطبة همام؟!!

أم هو ما نسب إلى ابنه الحسين عليه السلام في دعائه لربه: «تعرّفت إليّ في كلّ شيء، فرأيتك في كل شيء، وأنت الظاهر لكلّ شيء»؟!!

أم هو ما شرحه السجاد عليه السلام في مناجاة المحبين؟!!

أم هو ما ذكره ابن الفارض في قصيدته التائية الكبرى، المسماة بنظم السلوك، التي شرحت بشروح كثيرة مطلعها:

سقتني حُميّا الحب راحةُ مُقلتي وكأسي حيّا مَن عن الحُسن جلّت؟!!

أم غير ذلك مما يقوله العلم الحديث ما مرّ.

كل ذلك قطرات من البحر، لا يدرك ساحله، بل يغرق وارده، ومع ذلك فهو أوضح من كلّ شيء ويوجد في كلّ شيء.

وهو لا يختصّ بالإنسان، بل يشمل جميع الموجودات ـ الواجب منها والممكن ـ وقد أثبت العلم الحديث عموم الجاذبية والمجذوبية في الموجودات، وفي حبّ الله تعالى وحبّ الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٣١]، وحبه تعالى لمخلوقاته من فروع رحمته الواسعة.

وأما محبة سائر الموجودات له تعالى، فقد أثبتها جمع من الفلاسفة، منهم صدر المتألهين في كتابه القيّم (الأسفار الأربعة): أنّ الموجودات بأسرها عاشقة لجماله، ويكفي في ذلك أنّها سائرة إلى الكمال المطلق، ولا كمال كذلك إلاّ فيه تعالى ومنه عزّ وجل، فهو محبوب من كلّ جهة.

فالقول باختصاص الحب في غيره عزّ وجلّ ـ نظراً لتنزهه عن

معناه ـ (باطل) ولا يخفى فساده، لا سيما بعد ما ورد في القرآن الكريم من إثبات حبّه عزّ وجلّ لبعض الأفراد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية:٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٤٨].

والحب من المعاني القلبية المنبثة على جميع جوارح الإنسان وحواسه ـ كما هو واضح ـ ويتعلّق بالأشخاص أو الأشياء العزيزة، أو الجذّابة، أو النافعة، ويكون باعثاً إلى التقرّب إلى المحبوب بكلّ وسيلة يحبها المحبوب، كما في حب الله تعالى، الداعي إلى إتيان ما يريده عزّ وجلّ، وترك ما لا يرضيه، أو محركاً إلى الإتيان بالعمل المحبوب، كما في الأعمال الصالحة والحِرَف والصنائع ونحو ذلك، أو يكون داعياً إلى قضاء الحاجة من المحبوب، كما في حب الأكل، وحب المال، وحب النساء وغير ذلك، أو يكون مصاحباً إلى البذل والعطاء من دون انتظار مقابل، كما في حبّ الأم للأطفال.

والحب المجرّد الذي لا يكون مقروناً بأي شيء، لا أثر له، بل هو من مجرّد اللفظ فقط، وهو...

تارة: يتركّز حول النفس، ويسمى بحب الذات، الذي لا يخلو عنه أي حيوان، وهو المعبّر عنه في الإنسان بالأثرة.

وأخرى: يتعلّق بالغير، فهو إما أن يكون مصحوباً بالغيرة، وهو المسمّى بالحب العذري، أو لا يكون كذلك.

وثالثة: يتعلّق بالله تعالى، ويسمّى بالحب الإلهي، الذي هو وليد

كمال معرفة الله تعالى، والناشيء عن الجمال المطلق، ولا يحصل إلا بالتخلية عن الرذائل، والتطهير عن كلّ ما يشغل القلب عن الله تعالى، والتحلية بالفضائل. وهذا القسم هو أفضل أقسام الحب، ولا يشعر به إلاّ العارفون بالله، وهو ذو مراتب متفاوتة، والجامع بينها أن يكون الحب لله وفي الله، وكلّما كان الحب أشدّ كانت السعادة أتم وأعظم.

وهو يختلف باختلاف المحبوب، وينقسم بحسب القوى الظاهرية في الإنسان، كحب البصر للرؤية، والسمع لسماع الأصوات الحسنة، وكذلك الشم للأرياح الطيبة، وكذلك اللمس والذوق.

كما أنه ينقسم بحسب القوى المعنوية، كالعقل والفكر والإيمان، وفي جملة من الأخبار عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «ليس الإيمان إلا الحب في الله، والبغض في الله» أي حب الله، وحب أحكامه وتشريعاته، وحب محبّيه، والبغض لأعداء الله والمحرمات الإلهية، وقد ذكرنا أن هذا القسم من أفضل أفراد الحب، الموجب لسعادة الإنسان في الدارين[1].

(١) ن.م، ج٨، ص٢٨٤ ـ ٢٨٧.

آية تشتمل على بحث عرفاني

الآية المباركة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ على اختصارها وأسلوبها الرائع الذي يجذب القلوب وتطمئن إليها النفوس تشمل على أمور مهمّة.

الأول: تتضمن النشأة الأخروية وإيكال الإيمان إلى عالم الغيب والشهادة، الذي فيه فوائد جمّة. منها: سوق العباد إلى ذلك العالم.

ومنها: جهدهم لدرك هذا المقام.

ومنها: انقطاعهم من الدنيا إلى عالم الغيب.

ومنها: عدم الاعتماد على النفس، وعدم الاغترار بما يصدر من الإنسان، فإنّ الدرجات متفاوتة لا يعلمها إلا الله تعالى.

الثاني: سريان التوحيد في المعبود والعبادة، وبضميمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية:١٣]، الذي هو بمنزلة الشارح لهذه الآية، ينتج المطلوب، إذ المراد أنّ الله أعلم بتقواكم، فهو أعلم بإيمانكم، والمراد بالإيمان هو التوحيد في العبادة والمعبود.

الثالث: تتضمن الآية المباركة أيضاً على النشأة الدنيوية في قوله

تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، فإنه يبين حقيقة واقعية، وهي أنّ أفراد النوع الواحد لا تفاوت بينها من حيث النوعيّة ولا تفاضل بحسب الحقيقة، فالحرّ والعبد، والأمة والحرّة متساوون في الحقيقة، ففي الآية المباركة الحثّ على ملاحظة الوحدة الاجتماعيّة ونبذ جهات التفرقة والتنافر، وهذا ما أكّد عليه الإسلام في مواضع متفرّقة في القرآن، ودلّت عليه السنّة الشريفة.

فالآية الشريفة تبين ارتباط العبد مع خالقه، وتحدّد ارتباطه مع بني نوعه أيضاً، وتحثّهم بأسلوب لطيف على التعاون والتآلف والتعاضد، بلا فرق بين الأصناف المتفاوتة والأفراد المختلفة، ولذا نرى أن أهل الله تعالى - وفي رأسهم عليّ عليه السلام - يرون جميع أفراد الإنسان واحداً في حيثية كشفهم عن الخالق وتجلّيه فيهم، فتكون الآية المباركة ترغيباً إلى الوحدة والاتحاد بين أفراد الإنسان، حيث جعل عزّ وجلّ الإنسان نوعاً واحداً مركباً من بعض مع بعض، بحيث لو انفصل البعض من الكلّ لا بد وأن يتأثر الكلّ بذلك، وقد نظم الشعراء في هذا المضمون قصائد ممتعة كثيرة بألسنة مختلفة[١].

---

(١) ن.م، ج٨، ص٧٢ - ٧٣.

إحاطة الباري جل وعلا

تقدم أن الله جل جلاله محيط بما سواه إحاطة واقعية قيوميّة، بالقدرة التامة والحكمة البالغة والعلم الأكمل الأتم، لا يعزب عنه شيء في السموات ولا في الأرض، ومن أهم جهات إحاطته السلطة على كل ما يضاف إليه عزّ وجلّ، ولا يعقل بينونة عزلة له مع خلقه.

فسبيل الله تعالى لا بد أن يرجع إلى علمه وحكمته، وهما عين ذاته الأقدس بالوجود العلمي الواقعي، وإن كان بالوجود الخارجي قتل العدو أو الظالم أو المنافق أو الكافر، وإماطة الأذى عن طريق العابر، فإنّ كل ذلك من سبيله عزّ وجلّ بالوجود العلمي وإن كان فعلاً خارجياً للعبد والجزاء على ذلك كلّه من شؤون ذاته المقدّسة، لأنه يرجع إلى رحمته وهي من صفات الذات، وكيف تعقل غفلته تعالى عن ذلك، لا سيما في مثل هذه الحياة التي لا يمكن درك حقيقتها، واستقراض هذا الحيّ القيوم والقبض والبسط بالنسبة إليه.

وكذا جميع ما يتعلّق به من أهم جهات رحمته وحنانه وحكمته، وكلّ ذلك من صفات الذات وجامعيته لتلك الكمالات غير المتناهية، فلا بد أن يكون المتوجّه إلى الله تعالى متوجّهاً إلى هذه الجهات، فإنه لا يفني نفسه بالقتال ولا ينعدم عنه المال، بل يتحوّل في جميع ذلك إلى

أحسن الأحوال وينكشف عنه الغطاء، ويرى ذلك في الحال والمآل. وقد أخبر سبحانه وتعالى أنّ الكلّ يرجع إليه بجميع شؤونه وحيثياته لفرض كون مبدأ عملهم منه، وهو تعالى هو المبدىء المعيد، فلا بد في قوس الصعود من رجوع الشيء إلى مبدئه[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٤، ص١١٤.

الحضور عند الله تعالى

الحضور عند الله جلّت عظمته من طرف الممكنات له مراتب كثيرة، يمكن أن يقال بأنّها لا تتناهى ما دام يكون للحاضر لديه جلّ جلاله استعداد لذلك، وتدور مراتبه على مراتب التخلّق بأخلاق الله عزّ وجل، والتفاني في مرضاته، وأساس ذلك يرجع إلى حبّ الله تعالى. بحيث يجري في الجوارح جريان الدم في جميع العروق، فإنّ القلب منبع الحياة الأبدية، وإذا خضع خضعت جميع الجوارح.

وأوّل من سلك هذا المسلك العظيم ومشى في هذا الطريق الجليل الكريم، إنّما هو سيد الأنبياء وإمام المرسلين، الذي هو أعظم أبواب رحمة الله لجميع العالمين، حيث نال بحبّه له تعالى حياة أبدية حقيقيّة، لا يتصور حياة أفضل وأشرف منها، فتأمل في قوله ﷺ: «أبيت عند ربي، يطعمني ربي ويسقيني ربي»، فإنّ المحبوب يسقى مباشرة من حبيبه، فهل يتصوّر حياة ألذ وأوفى من هذه الحياة؟!! ثم تأمّل في قوله ﷺ: «ليُغانُ على قلبي فأستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرة»، فإنّ قلبه الشريف أبداً كان مشغولاً ومربوطاً به جلّت عظمته، فإن عرض له عارض من أمور الأمة والملّة ومصالحهما، فزع إلى الاستغفار، فجعل المعاشرة مع غيره تعالى ـ ولو في المباحات الضرورية ـ حجاباً عنه

تعالى، فما أشدّ الحب، وما أفضل الحبيب وما أجلّ المحبوب، وفي مثل هذا الحب والحضور لا نوم ولا سِنة، وهو الذي قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي». وكيف يصلح النوم لواسطة الفيض وغاية الكمال المستفاض، خاتم كمالات من سبق، وفاتح أبواب المعارف!!

وكيف ينام، وهو بمحضر محبوبه وشهيده! كلاّ وربِّ الناس إنّ مقام الحبِّ أعزّ وأمنع من أن يعرضه النوم والنعاس[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١٤، ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

عدم الإكراه في الاستكمالات المعنوية

قد أثبت العلماء أنّ نسبة المعارف المعنوية إلى الأرواح كنسبة الأغذية الجسمانية إلى البدن والجسم، فإنّ الجسم يصلح بصلاح الغذاء وينمو به ويفسد بفساده، وتختلف درجات الغذاء فيهما، كما أنّ له مراتب كثيرة جداً، بحسب اختلاف الأجسام، بل اختلاف الحالات في بدن واحد فضلاً عن أبدان مختلفة، فكما أنّ من طبيعة الجسم التغذّي بما يصلحه وإلا اضمحل وزال، وكذلك الروح فإنّه لا بد له من الانتفاع بما يناسبه وإلا لبطل استعداده وتعرّض للهلاك.

والإكراه في التغذّي الجسماني يستلزم خلاف المطلوب، بل يوجب تنفّر الطبع عن الغذاء وانزجار النفس عنه، ويؤثر ذلك على الروح أيضاً، لأنّ بينهما جذباً، وكذا لا وجه للإكراه بالنسبة إلى الروح وما يرتبط به، بل هو أشدّ تأثراً من الجسم، لأنه جوهر لطيف أكثر تحسساً منه، ولكن كلٌ ميسرٌ لما خلق له.

ولكلام الحقّ تعالى جذبات وللقرآن كذلك، وللموعظة الصادرة عن أهلها جذبات بمراتبها المختلفة، التي لا حدّ لها، ومع تحقّق تلك الجذبة، كيف يتصوّر الإكراه؟! ويعلم سر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤]، وقوله

تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢١٣]، فلو لم تكن في المعشوق جذبة، فإنه لا يكون لجهد العاشق أثر، وإن بلغ ما بلغ في العناء والمشقة.

والحاصل: أنه لا إكراه في الاستكمالات المعنوية مطلقاً، والآية الشريفة ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ تشير إلى أمر فطري عقلي، ويرشد إليه قول عليّ عليه السلام: «وأرسل الرسل ليذكّرهم منسي الفطرة وتثير لهم دفائن العقول»، فيكون إرسال الرسل من النظام الأحسن، كإخراج المعادن من الأرض.

وأما الإكراه على بعض العلوم والحرف والصنائع الدائرة في هذا العالَم، فإنّ ذلك لا يؤثر الأثر المطلوب، فإنّ شوب تلك العلوم والمعارف بالماديات أخرجتها عن المعارف المعنوية، فأين المعارف الربوبية التي تبقى في النفس إلى الأبد وتنفعه في عالم البرزخ والحشر والنشر والجنّة، وأين الصنائع الظاهرية المادية في أدقّ معانيها التي لا تبقى بعد انفصال الروح عن الجسم، ولو عبّر عنها بأنّها جسمانية الحدوث وجسمانية البقاء لكان حسناً.

يضاف إلى ذلك أنّ الأسباب الظاهرية المجبر عليها شيء، وكمال النفس على فرض كونه كمالاً شيء آخر، بينهما بون بعيد كما هو معلوم[1].

---

(١) ن.م، ج٤، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

الاستقامة في الحق وبالحق

الاستقامة في الحق وبالحق من أبرز مقامات الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين والعرفاء الشامخين، وهي عبارة عن الصراط المستقيم، بل هي حقيقة الجنة التي تظهر في الآخرة بأحسن مطلوب، ولا يمكن أن تحصل الاستقامة إلا باختبار العبد وامتحانه وتمحيصه بأشدّ البلاء، لتظهر مكارم أخلاقه الكائنة في نفسه وإذهاب ما هو فاسد فيه، فلو لم يكن اختبار لما كان هذا الجزاء الجزيل ولا ترتبت هذه الثمرات المطلوبة، وبعد ذلك للتأييدات السماوية دخل في البين على نحو الاقتضاء لا العلية التامة، وأس الاستقامة في الحقّ بالحقّ، وأساسها مبني على تجلّي عظمة الله تعالى في القلب واحتقار ما سواه، بحيث لم ير العبد شيئاً غيره جلّت عظمته، وكلما اشتد ذلك في القلب وظهر أثره على الجوارح اشتدّت الاستقامة ورسخت في النفس، وحقيقة المجاهدات الشرعية سواء كانت نفسانية أم خارجية مع أعداء الله تعالى، لا تكون إلا من سبل الاستقامة واستحكام حقيقة الشكر في النفس وظهور الخشوع والخضوع على الجوارح والجوانح[١].

(١) ن.م، ج٦، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦.

الإنفاق

جمع المال بلا شوق ومحبة إليه غير ممكن، لما ثبت في محلّه أنّ كل فعل معلول الشوق والمحبّة، وبدونهما يكون المعلول بلا علّة وهو باطل بالضرورة، ولا ريب في أنّه ينافي محبّة الله تعالى والشوق إليه، وهو من أهم الموانع التي تصدّالإنسان عن ذكر الله تعالى والقيام بوظائفه الشرعيّة، وهو من العوائق التي تعيق عن الاستكمال والتخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ، اللهمّ إلا أن يكون الجمع لأجل الإنفاق في ما يرتضيه الله تعالى، فيرجع إلى حبّ الله تعالى.

ومن ذلك يظهر السر في ما ورد في القرآن الكريم من الإنفاق في سبيل الله تعالى، فإنه الطريق الأمثل للوصول إلى أعلى المقامات والتنزّه عن جملة من الرذائل، كرذيلة الشح والبخل ونحوهما.

ولكن، مع ذلك جمع المال بنفسه من المبعدات عن حظيرة القدس وساحة الرحمٰن، ولعلّ السر في كثرة تنزه الأنبياء عليهم السلام والأولياء عن الدنيا هو ذلك[١].

---

(١) ن.م، ج٧، ص١١٩.

معية الله تعالى مع عباده

معيّة الله تعالى مع العباد، معيّة علم وقدرة، أي: يسمع كلامهم ويرى أعمالهم ويعلم ضمائرهم، فيجازي العباد حسب علمه جلّ شأنه، سواء كان في عالم الشهادة أم في عالم الآخرة.

وأما المؤمنون الكمّل من عباده، فلهم مزيّة على تلك المعية، وهي المظهريّة لأسمائه وصفاته جلّت عظمته، حسب تقربهم إلى ساحته عزّ وجلّ، كما في كثير من الروايات، منها روايات النوافل، فإنّ المؤمن الواقعي مظهر من مظاهر أسمائه أو صفاته تعالى، لأنّ به ظهرت الصفات السامية والكمالات الخُلقيّة والمكارم النبيلة الرفيعة، وقد اجتمع فيه جوانب متعدّدة ومظاهر متنوعة - سواء كانت لنفسه أو لغيره، كما قال ﷺ: «بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم يدفع الله البلاء»، فهو الجامع لأسمى الصفات ونُبل الكمالات، وهذا ممّا لا شك فيه، كما دلّت عليه البراهين العقلية والنقليّة.

ولكن هذه المناقب أو المنازل بل الرتب السامية، لم تكن وليدة الطينة والطبيعة فقط، بل لا بدّ لها من أسباب وشرائط تؤهّل العبد لنيل تلك المقامات والوصول إلى تلك المنازل والقمم، وهي كما قال جلّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وإنما قدم الصلاة على غيرها، لأهميّتها، وأن صلاة العارفين لا يوازيها شيء - وهي ليست كصلاة الغافلين - فإنها الصلاة الدائمة بين الخالق والعبد، وأنها الرابطة القويّة بين الباري جلّ شأنه والمؤمن، وبها تكشف الظلم، وتزول الأستار، وترفع الحجب.

وهي لا تختص بطائفة دون أخرى، فتعم الطبقات كلها، ولها درجات حسب معرفة العبد وإيمانه، لأنّها المعراج إلى الحق، فيستمر العروج ويدوم إلى أن تظهر الحقيقة في نشآتها، ويتجلى الحق كما تجلّى يوم الميثاق.

ولها مراتب حسب أهلية العبد وانقطاعه إلى الله تعالى وبُعده عن المادة والماديات، وتقدم في أحد مباحثنا السابقة أنّ السير إلى الكمال والترقي بالمنازل والرقي إلى المقام، ولها مراتب وحظوظ وأنواع، ولكلّ منها أسباب وشرائط، والصلاة جامعة لها.

ولعل تركّبها من الطهور والركوع والسجود - كما ورد في بعض الروايات - إيماء إلى ذلك، فبالطهارة ترتفع الخاصيّة التي توجب الحجاب عن مشاهدة الحقّ، لأن بها تزال الأدناس الظاهريّة والمعنوية، كما بالقيام نحوه تعالى تزال الصفات الماديّة المتعلقة بالنفس، كالشهوات بأنواعها.

وبالركوع تزال الأنانيّة والتكبّر، وبه تسير النفس من أوّل خطوة إلى أرقاها، فيخضع لله عز وجلّ ولمَن تجلّى فيه أسمائه وصفاته جلّت عظمته.

وبالسجود تزال الأطماع البشرية الكائنة في النفس والمرغّبة إلى الأهوية النفسانية، وبه ترغم أنوف الشياطين وتبعّدهم، كما بالتشهد ترتفع العلاقة المتعلّقة بما سواه تعالى، فإذا تخلّص العبد من سبل الشيطان ورقي إلى تلك الدرجات مناجياً به جلّت عظمته وشاهداً له ـ كما قال ﷺ: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ـ حصلت المعيّة مع المظهريّة، وبانت القاعدة المشهورة لدى العرفاء الشامخين: «قرّة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود».

وأما إيتاء الزكاة، فإنّه إيثار لوجهه عزّ وجلّ، لجلب رضاه والتقرّب لساحته ببذل ما تعلق به النفس، ولرفع حاجة المؤمن حتى يسود العدل الاجتماعي الواقعي بين الأفراد.

مع أن كلّ ذلك لا بدّ وأن يكون مستنداً إلى العقيدة الخالصة المتعلّقة بالمبدأ جلّ شأنه، وذلك لا يتحقق إلاّ بالإيمان بالرسل كلّهم وجميعهم، فمثل هذه العقيدة لها الدخل الكبير في إتيان العمل منزّهاً عن الشوائب والرذائل، فإن الإيمان الصحيح الجامع للشرائط والمانع عن الأغيار والنقائص، لا يكون إلاّ كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، والإيمان برسله تعالى يستلزم نصرتهم وتقويتهم بتطبيق شرائعهم وسنّتهم، حتى تصفو النفس وتليق بالصلة مع الله الواحد الأحد، فحينئذٍ يقترض الله قرضاً حسناً منه، لأنّه تعالى شهد بعبوديّة مخلوقه، وأنّ المولى الرءوف الرحيم لا يأنف أن يقترض من عبده، بعدما تخلّى بتكفير سيئاته، وتحلّى بالمكارم في عالم الشهادة وفي عالم الآخرة، بالدخول في الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار بالارتواء منها، وهي نهر المعرفة، ونهر الوصال، ونهر الإشراق، أو نهر التحلّي،

ونهر التقرّب، ونهر الأنوار وغيرها، كما سيأتي المراد منها ومن الجنّات.

وأما من زال عن تلك الدرجات وكفر بالرسل ولم يؤمن بالله العظيم، فقد هلك وضلّ وبَعُد عن الفطرة المستقيمة، ونقض الميثاق، ولم ينل تلك الدرجات المعدة للمؤمن، وردّ إلى أسفل السافلين، فصار قلبه قاسياً لم تؤثر فيه آيات السماء ولا عجائب الأرض[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج١١، ص٨٣ ـ ٨٥.

الحوادث الواقعة

إنّ العذاب النوعيّ ـ أو الشخصيّ ـ الواقع على الأمم أو الأفراد لم يكن مجرّد نقمة من الله تعالى، فإنّه خير محض وإليه ينتهي الخير ومنه يصدر كلّ خير، ولا يمكن نسبة الشرّ إليه جلّت عظمته، كما يأتي بيان ذلك في الآيات المناسبة له إن شاء الله تعالى، فالأمم التي حلّت بهم النكبات ووقع عليهم العذاب، هي المسؤولة عن ذلك، وهي التي باختيارها أنزلت البلايا، فإنّ العذاب والنكبات مسببات لا بدّ لها من أسباب ـ سواء كانت ظاهريّة أو معنويّة، طبيعيّة كانت أو شرعية ـ وقد يكون العذاب يؤثّر تأثيراً معاكساً، بحيث تصلح النفس ويتهذّب المجتمع وينشطه للقيام بإصلاح أسسه وركائزه، وأكثر الأمم التي حلّ بهم العذاب كما يحكيه القرآن الكريم كان من قبيل ذلك.

ومن هنا لا وقع للإشكال الذي ذكره بعض الفلاسفة من أنّ العذاب الإلهي ينافي محبّته لخلقه وعلاقته تعالى بهم، لأنّ ذلك إما من الآثار الوضعيّة، أو للإصلاح، أو الكفّارة لبعض الأعمال السيئة، أو للقرب إليه جلّ شأنه. ولذلك قال بعضهم: إنّ العذاب إن تعلّق به رضاه جلّت عظمته وإن كان دخول النار، كان عذباً لأهله لا عذاباً، كما

عن سيّد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام في دعواته الشريفة، ودعاء كميل أكبر دليل على ذلك.

بل عن بعض أكابر الصوفيّة إنكار العذاب من أصله، ولكن لا يمكن الالتزام بذلك بالأدلّة العقلية والنقلية، خصوصاً بالنسبة إلى الكافرين والمنافقين. وللبحث تتمّة نتعرض لها إن شاء الله تعالى[١].

(١) ن.م، ج١١، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

الحلف بالحبيب

كل من أحب شيئاً وعشقه لا يحلف بمحبوبه ومعشوقه إلا نادراً، بل لا يحلف به في الأمور المهملة، وإذا حلف يبرّ بحلفه ولا يحنث ولو أدى إلى بذل النفس والنفيس، والله تعالى أحب الموجودات إلى خلقه، وهو تعالى يطلب من خلقه أن يكونوا عباداً له عزّ وجلّ، يأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه، مطيعين له يراقبونه في جميع أمورهم، وتنظيم نظام العبودية يقتضي أن لا يبادروا إلى الحلف به.

كما لا يحلف أحد بمحبوبه فإنّه تعالى المحبوب الحقيقي لكلّ موجود، ولو حلفوا به فإنّ عبوديتهم له عزّ وجلّ تقتضي الوفاء به بكلّ ما أمكنهم[1].

(١) ن.م، ج٣، ص٣٥١.

مراتب التفدية

قد ثبت في الفلسفة العملية، وحققه العرفاء الشامخون، أن أنس النفس بالكليات يوجب ارتقاءها عن حضيض البهيمية إلى أوج الإنسانية الحقيقية مطلقاً، فضلاً عما إذا كانت تلك الكليات من العالَم الغيبي الرّبوبي، فتأنس النفس إلى عالَم لا حدَّ لأية جهة من جهاته، لتباعدها حينئذٍ عن دار الغرور، واتصالها بمنبع النور، الذي لا يمكن تحديد أشعته بأيِّ حد من الحدود الإمكانية، ومرضاة الله تعالى لا تكون إلا من منبع النور، وتجرّدها بالكلية عن دار الغرور، فتشرق على النفس حينئذٍ أنوار ذلك العالَم، فتبتهج بما لا تدرك ولا تعلم، هذا إذا لوحظ ذات تبديل النفس بمرضاة الله جلّت عظمته.

وأما إذا انطبق عليه عنوان آخر، فيعظم ذلك بحسب عظم ذلك العنوان وكمال أهميته، فإذا كانت التفدية مثلاً بإزاء حفظ نفس حبيب الله تعالى وصفيّه من خلقه، وهو مبدأ الإفاضات وغاية خلق المخلوقات، بل هو صورة إجمالية لنظامي التشريع والتكوين، فما أعظم هذه التفدية!! فإنها وقعت بإزاء الجميع في الجميع، ولا تصل النفس إلى هذه المرتبة ولم تتصدَّ لها إلا بعد لياقتها واستعدادها لمثل هذا الفداء، وإذا كان الله جلّت عظمته يقول في فداء إسماعيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [سورة

الصافات، الآية:١٠٧]، فماذا ينبغي أن يقول جلّ جلاله في مثل هذا الفداء، ومنه يعلم عظم المفدّى ـ بالفتح ـ والمفدّي ـ بالكسر ـ.

ومن ذلك يظهر سرّ التعبير في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٠٧].

وجميع ما في الكون من مستحسن ... فإليك نسبته وباسمك ينطق

من مات في دير الهوى بك صبوةً ... نال الشهادة وهو حيٌّ يرزق

من لي سواك أحبُّه أو أعشق ... ولك الملاحة والجمال المطلق

هذا كلّه في الإنسان الكامل الذي ارتقى عن حضيض البهيمية إلى أوج الكمال، ويقابله أنس النفس بالماديات والرجوع إلى أقصى درجات حضيض البهيمية، الذين قد وصفهم سبحانه وتعالى في هذه الآية بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

ومن ذلك يعرف أنّه إذا لوحظ الإنسان من حيث الإضافة إلى الله جلّت عظمته، لا يخلو عن أقسام:

الأول: من حيث كونه مخلوقاً ومربوباً له تعالى، وهذه الإضافة تعمّ جميع الممكنات، ولا تختصّ بالإنسان، لأنّ الجميع مخلوق ومربوب له، وتحت قدرته تعالى وإحاطته، وتدلّ عليها الأدلّة العقلية وجميع الكتب الإلهيّة.

الثاني: أن تحصل الإضافة من حيث التدبير الظاهري، والاقتصار

عليه فقط من جهة قصور النفس عن درك ما رواء ذلك، فيكون مثل اعتضاد بعض الناس لبعضهم من جهة المنافع الدّنيوية فقط، فيطلب من الله تعالى حسنات الدنيا فقط، لقصور السائل عن إحاطة المسؤول عنه.

الثالث: ما إذا حصلت من جهة الاعتقاد بأنه تعالى محيط بالدنيا والآخرة إحاطة واقعية حقيقية، وهو جلّ شأنه فوق الكلّ، فيطلب منه حسنات الدنيا والآخرة، والوقاية عن عذاب النار.

الرابع: ما تكون الإضافة باللسان فقط، ويكون ظاهره خلاف باطنه بالنسبة إليه عزّ وجلّ، وهو المنافق والمرائي الذي يرتكب كلّ إثم، وقد ذمّه الله تعالى في القرآن الكريم، وأوعده الخزي في الدنيا وأشدّ العذاب في الآخرة، وهو الذي لا يقوّمه إلا السيف.

الخامس: أن تكون الإضافة حاصلة من بذل النفس والمال والإرادة في مرضاة الله تعالى، فلا يشاء إلا ما شاء الله تعالى، ولا يريد إلا ما أراده.

وقد ذكرت الأقسام الأربعة الأخيرة في هذه الآيات الشريفة، وذكر القسم الأول في موارد كثيرة من القرآن بالنسبة إلى جميع المخلوقات، لا سيما الإنسان[1].

(١) ن.م، ج٣، ص٢١٠ ـ ٢١١.

معرفة حقائق الأشياء

المراد من العلم في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، هو العلم بالمعارف الحقّة وحقائق الأشياء التي توجب السعادة الأبدية وخروج النفس الإنسانية عن حدود الحيوانية والبهيمية ووصولها إلى منتهى أوج الروحانية المجردة، بواسطة معرفة الموحي والوحي والموحى إليه والإذعان علماً وعملاً ومعرفة، حسب الإمكان. وقد جمع ذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩]، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر، الآية: ٢٨]، وعن علي عليه السلام في قوله: «رحم الله امرءاً عرف من أين وفي أين وإلى أين»، وقد جمعها علماء النفس والأخلاق في قولهم: «أوّل العلم معرفة الجبار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه»، وعن الصادق عليه السلام: «مَن حرم الخشية من الله فليس بعالم وإن شقّ الشعر في المتشابهات، ومن لم يكن عمله مطابقاً لقوله فليس بعالم».

فيكون المراد بالرسوخ: الرسوخ العملي المنبعث عن العلم بالمعارف الحقة، حتى يدخل في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ٢٢]، فيصير القول والعمل والاعتقاد شيئاً واحداً، فتسري الروح الإيماني من القلب إلى العمل، بل من العمل إلى القلب، لأن للأعمال تأثيرات حقيقية في الملكات النفسانية، فيكون من النور وفي النور وإلى النور، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة الحديد، الآية: ١٢]، وبعبارة أخرى يصير قلبه قرآناً علمياً وجوارحه قرآناً عملياً، فلا محالة يتحقّق الرسوخ.

وأوّل المصداق الحقيقي لذلك هو خاتم الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل، الآية: ٤٤]، ثم من رباه تربية علمية وعملية علي بن أبي طالب عليه السلام، وكلماته المقدسة في نهج البلاغة أظهر دليل لما قلنا، ثم من ربى بهما أيضاً تربية علمية وعملية فأخذوا علومهم ومعارفهم من النبي الأعظم وتأسّوا به في أفعاله وأذعنوا بأقواله، فربوا في حجر الإسلام ورضعوا من ثدي الإيمان، فرسخ العلم في أصولهم وعروقهم وقلوبهم وجوارحهم، فجعل الله لهم نوراً يمشون به في الظلمات ويرشدون به إلى سبل السلام.

عالم الأمر

عالم الأمر أعظم العوالم الربوبيّة من كلّ جهة، وهو محيط بما سواه إحاطة الروح بالجسد، وهو شهود كلّه، بل بحسب بعض درجاته يتّحد فيه الشاهد والمشهود بالذات، لا سيما بناءً على ما أثبته بعض أعاظم الفلاسفة من اتحاد العالم والمعلوم بالذات وجوداً، وبناء على التفاني المحض في مرضاة المعبود الحقيقي. والانقطاع التام إليه يصير العبد مورد إرادته ومشيئته وفعله تبارك وتعالى من جميع الجهات، كالميت بين يدي الغسّال مثلاً، وقد دلّت على ذلك الأدلة العقليّة والنقليّة، والشاهد الحقيقي في تلك المراتب واحد، وهو الله الواحد القهار والمشهود به ليس إلا جماله وجلاله بالذات، فيتحد الشاهد والمشهود.

ولعلّ التأمل في سياق قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، يقرب كونها إشارة إلى تلك المرتبة الجليلة الرفيعة، كما أن قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»، إشارة إلى تلك المرتبة أيضاً، فإنها ليست إلا شوارق الجمال والجلال التي تظهر للنفوس المستعدّة، إما تدريجاً أو دفعة بحسب المقتضيات، لكن بحيث يكون

الفيض دائماً، والتدرّج والقصور إنما هو من ناحية المستفيض، وللبحث تفصيل لعلّنا نتعرض له في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

ولأجل شدّة صعوبة الوصول إلى تلك المرتبة عبّر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، ولم يعبّر بقوله: «من الشاهدين»، لأن شهود الجمال والجلال خاص لبعض أخصّ خواص الأولياء، كأعاظم الأنبياء والمقرّبين[1].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) ن.م، ج٥، ص٣٤٤.

آية تشير إلى لطائف عرفانية

الأوّل: يصحّ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ كلّ ذي حق واجب، لا بد من نظام التكوين والتشريع مراعاة ذلك الحقّ وإن لم يكن من اليتم اللغوي، كالأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام والعلماء العاملين بعلمهم والتاركين للهوى مطلقاً، فإنهم بين الورى محرومون، لا يعرف حقهم ولا يتخلّقون بأخلاقهم، وهم يعيشون منفردين في مجتمع لا يهتمون إلا بالماديات الصرفة والظواهر الحسية، ولا يعرفون من وراء ذلك شيئاً، ويدل عليه قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: «نحن اليتيم»، فهم أيتام بهذا المعنى، ويتيمة جميع العوالم الإمكانية. وكلّ من يرشد إلى الحق بالحقّ في الخلق، يتيم بين الخلق الذين هم لا يعرفونه حقّ معرفته وغرباء في بلدهم، كما في الحديث: «المؤمن غريب في بلده لا يستأنس إلا بإيمانه»، فلا بد من الاهتمام بإيتاء حقوقهم والتخلّق بأخلاقهم.

الثاني: إذا كانت الماديات لا تتحصّل لها صورة نوعية ولا تدخل لها في النظام الأحسن الكياني إلا بالترابط بينها بارتباط القوي الفاعليّة بالقوى المنفعلة، فالمعنويات أولى بذلك، فما لم يرتبط من له مقاليد السموات والأرض ومن عنده مفاتح الغيب، والمعيّة القيومية مع

الممكنات، لا وجه لتحقّقها في أي مرتبة من مراتب التحقّق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق، الآية: ١٦]، وقال علي عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه»، فلا يمكن تحقّق أي أمر معنوي إلا بذلك، قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها»، وليست تلك النفحات من الجواهر والأعراض أو الوهميّات، بل هي شوارق غيبيّة تتدفق من عالم الغيب على القلوب المستعدّة، ومثله قوله صلى الله عليه وآله في شأن أويس القرني: «إني أشم نفس الرحمن من ناحية اليمن»، ففي ارتباطات النفوس المقدّسة مع معدن الكبرياء والعظمة تتحقّق ينابيع من المعنويات، يصفو عندها كل معدن ويهيج. وكيف لا يكون كذلك، والإنسان الكامل هو مفخر الأملاك وغاية حركات الأفلاك وطاوس الكبرياء وحمام الملكوت.

الثالث: يصحّ أن يراد من الخبائث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ جميع حرمات الله تعالى، سواء كانت من الماديات أم من غيرها ممّا حرمه الله تعالى، فإنها توجب البعد عن ساحته والقرب إلى الشيطان، وللخبائث مراتب شدّة وضعفاً.

والمراد من الطيب ما يوجب القرب إلى ساحته عزّ وجلّ، وله أيضاً مراتب شدة وضعفاً كما يكون القرب والبعد كذلك.

والفطرة السليمة تأبى من تبدّل الخبيث بالطيب إلا إذا عميت عين البصيرة وعطبت الفطرة المستقيمة بالحجب الغليظة، وحينئذٍ تختار النفس الإمّارة بالسوء الخبيث على الطيب.

فالآية المباركة تجري في جميع الأقوال والأفعال والحركات، بل المعتقدات، فإن جميعها تتّصف بهما، وتطبيقهما على المال من باب الكلّي على الفرد[١].

(١) ن.م، ج٧، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

ارتباط الإنسان مع خالقه

التذلّل لدى المعبود الحقيقي الجامع لجميع الكمالات غير المتناهية، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عزّ وجلّ. والعبودية التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين، متقوّمة بهما، فإنه لا ريب في تحقق الارتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلّة التامة، والمخلوق مع الخالق، والأثر مع المؤثّر بلا فرق في ذلك بين المجرّدات والماديات والأملاك والأفلاك، فإن جميعها متعلقة بالإرادة الأزلية حدوثاً وبقاء وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالى، ولا يبقى إلاّ وجهه الواحد القهّار، ولكن الإنسان يرتبط مع الله جلّ جلاله بارتباطين:

الأوّل: الارتباط القهري، الذي يعمّ جميع الخلق وما سواه تعالى.

الثاني: الارتباط الاختياري، أي: الطاعة والامتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عزّ وجلّ، فإذا زال يبقى الارتباط الأوّل، وهو يعمّ الجميع ـ الحيوان والجماد ـ على حدّ سواء.

والإنسانيّة إنما تظهر في الارتباط الثاني، ولا يزول إلاّ بالطغيان والعصيان، وحينئذٍ لا بد من التوبة والرجوع إلى الله تعالى ليعود الارتباط إلى ما كان عليه وتستكمل به الإنسانيّة، وتزول الشقاوة وتحلّ محلّها

السعادة الأبديّة، إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق يوجب بلوغ الإنسانيّة إلى الكمال ويتم به العقل والدين، كما أن البعد عنه يوجب زوال ذلك كلّه، فللتوبة الحقيقيّة دخل في استكمال الإنسانية والدين والعقل، ويكفي في فضلها أن فيها يتجلّى المعبود الأعظم للتائبين بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فالعبد يعترف بما هو من زي العبودية، والمعبود يظهر بما هو من شأن الربوبية الواقعية، ولذا ترى أن أحبّ حالات المتعبدين إلى الله تعالى هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات المأثورة عن الأئمة الأطهار (سلام الله تعالى عليهم)، لا سيما الصحيفة الملكوتيّة السجاديّة على صاحبها ومنشئها (أفضل الصلاة والسلام)، وليس الاعتراف بالتقصير مع عدم صدور ذلك عنهم كذباً، لأنهم يعلمون أن تلك الحالة محبوبة لله عزّ وجلّ وتقرّبهم إليه تعالى، ويعترفون بذلك في جملة من دعواتهم الشريفة، وهذا كاشف عن اشتياقهم إلى هذا المقام من العبوديّة.

ثم إن ظاهر الآية الشريفة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، إنّما هو في الموت الطبيعي الذي هو مسير كلّ ذي حياة، وأما الموت الاختياري الذي هو غاية آمال العارفين وقرّة عين أهل التقوى واليقين، فهو فوق التوبة بمراتب كثيرة إذا وفّق له وليّ من أولياء الله تعالى بشرطه وشروطه[1].

(١) ن.م، ج٧، ص٣٤٤ ـ ٣٤٥.

أسباب الغواية عنه تعالى

كما أن للتقرّب إلى الله تعالى والوصول إلى ساحة كبريائه مراتب كثيرة ـ شدة وضعفاً كميةً وكيفيّةً ـ كذلك للبعد بالنزول عن ساحة قدسه والقرب للشيطان، وذكرنا أنّ لكلٍ من الهداية والغواية أسباباً وعللاً، وإن كانت الفطرة المستقيمة تقتضي الهداية إلا أن سبل الشيطان تعيقها وتحرفها عن التوجّه إلى خالقها، المعبّر عنه بشرف العبودية.

وهذه الأسباب تؤثر كثيراً في الإنسان على نحو يبعده عن الصراط المستقيم، ولا تؤثّر فيه الحجج والبراهين وذلك باختياره، فيصل إلى مرتبة السافلين بالمراحل المذكورة في الآيات المباركة.

وقد لا يكون كذلك، وإنما يكون للقلوب إقبال وإدبار، وتملّ كما تمل الأبدان، وهذا حسب درجات الإيمان، كما هو المشهود في المؤمنين، وقد تؤثر فيه أصلاً كما في المعصومين من الأنبياء والأولياء وكمّل الإيمان من العرفاء، وعن سيد العارفين وإمام الموحّدين عليّ عليه السلام مخاطباً الدنيا: «غرّي غيري» عندما تمثلت عنده، وغيره من الروايات الواردة عنه عليه السلام.

وأسباب الغواية والضلالة التي هي من الشيطان محدودة، بخلاف سبل الهداية إلى الله العظيم، فإنّها من مظاهر صفاته العليا، وهي غير

محدودة فلا يكون التقابل بينهما واقعياً. مع أنّ الفطرة الخالصة التي خلقها الله تعالى تقتضي الهداية أيضاً، كما أنه جلّ شأنه يحب خلقه ولا يرضى لهم العذاب، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٧]، وأنه غني ذاتاً وصفات، وأن الخير وأسبابه منه تعالى وإليه عزّ وجلّ، فلا بد وأن تكون غير محدودة لأنها من مظاهر صفاته.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآية الشريفة أهمّ أسباب الغواية من الوعد والأمنيّة، وأن الأثر المترتّب على تلك الأسباب ليس إلاّ الخسران، سواء كان خسران الجنّة ونعيمها، أم خسران المعارف الإلهية والحظوظ السعيدة، أم خسران شرف العبوديّة، أم خسران الآلاء والنعم، أو خسران اللقاء الذي هو من أعظم الخسائر، كما عن علي عليه السلام: «هبني صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر على فراقك»، وعن بعض العرفاء: «أعظم الخسائر من فاته اللقاء»، فقد خاب مَن آحبّ شيئاً دونك ويرضيه بدلاً منك، وقد خسر من أوقفته ببابك ثم طلب باب غيرك والتجأ إلى غير جنابك وتحوّل منك إلى غيرك»، ودعاء أبي حمزة الثمالي مشحون بهذه المعارف، ولا يتوجه إلى هذا القسم من الخسران إلا من رفع عنه الحجاب برؤية الملكوت الأعلى ومنح له قبول وسام العبوديّة.

فالكلّ يطلب نُعمى حيث ضلّ وما يحظى بنعمى سوى فرد بأفراد

وجميع هذه الخسائر ترجع إلى الاختيار لما ثبت في محلّه من أنه لا جبر ولا تفويض في البين، فالعبد باختياره يسلك كلاً من الطريقين النور أو الظلمة، ويصل إلى مراتبها، كما أنّ كلاً منهما لم يكن ذاتي

الإنسان، وهما قابلان للزوال إلى آخر لحظات العمر، كما عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وأنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»، والأول كثير بفضله ورحمته، والثاني منوط برحمته، والمراد من سبق الكتاب التذكّر والتأمّل، فيرجع إلى الاختيار[١].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ن.م، ج٩، ص٣٠٥ ـ ٣٠٧.

أدوار خلق الإنسان

في خلق آدم عليه السلام جهتان..

الأولى: الجهة النورانيّة المعنويّة وتستفاد هي من قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وهي من أرفع الجهات وأعلى الدرجات، وليس في الممكنات ما يفوقها.

الثانية: الجسمانيّة، وهي الطين والصلصال والحمأ المسنون، وقد اعتنى سبحانه وتعالى بكلّ منها اعتناءً بليغاً لم يعتن بشيء من الممكنات بمثله، لأنه أوّل خليقته وأب الأنبياء.

أما الجهة الأولى: فيكفيك قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة ص، الآية: ٧٢]، وبأي معنى لوحظ ذلك لا يدرك كنه عظمته ورفعته.

وأما الجهة الثانية: فيكفي فيها قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص، الآية: ٧٥]، وأظهر منها إسجاد الأملاك لهذا الخلق العجيب الذي تحير الأفكار في مغزى درك حقيقته ودرك واقعيّته.

والجهتان متلازمتان في الجملة في هذا الموجود العظيم في أي مرتبة من مراتب ظهوره وبروزه.

وهذه المراتب غير محدودة، وهي: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [سورة صٓ، الآية ٧١].

الثالثة: مرتبة الإرادة الفعلية الحتمية، وهي: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [سورة صٓ، الآية ٧٢].

الرابعة: مرتبة الإيجاد بالأمر، وهي: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٧].

الخامسة: مرتبة تعليم الأسماء، وهي: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣١].

السادسة: مرتبة التقصير، وهي: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ [سورة طه، الآية: ١٢١].

السابعة: مرتبطة الهبوط، وهي: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣٦].

الثامنة: مرتبة التوبة وقبولها، وهي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣٧].

التاسعة: عالم الاصطفاء، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٣٣].

العاشرة: عالم الذر بقسميه، في السماء، وفي الأرض في بطحاء بمكة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٢].

الحادية عشر: مرتبة انتشار النسل وبثه بالتدرج الزماني.

الثانية عشر: مرتبة أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وأدوارها.

الثالثة عشر: مرتبة خروج الروح وتحقق الموت.

الرابعة عشر: عالم البرزخ، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠].

الخامسة عشر: عالم الخلود.

هذه كليات ما يرد على هذه اللطيفة الربانية. وإن قيل إن هذا الموجود العظيم أعظم عمل رباني، لا بأس به[1].

---

(١) ن.م، ج٧، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

المقدمة ٥
علم العرفان واشتقاقه ١١
السلوك إلى الله تعالى ٢٦
من الآيات القويمة في السير والسلوك ... ٢٨
بعض آداب السير والسلوك ٣٠
ما يجب أن يستند عليه الإنسان في سيره وسلوكه ٣٢
السير والسلوك ٣٥
بعض المقامات لأصحاب السير والسلوك ٣٨
بعض مقامات أهل السير والسلوك ٤٣
بعض الرموز والإشارات للسالكين ٤٦
لطائف عرفانية ٥٦
طريق الكمال الإنساني ٦٣
قابلية الإنسان واستعداده ٦٨
الحجب الظلمانية التي تمنع النفس من الاستكمال ٦٩
مقام الولاية وعظيم أثرها في التشريع والتكوين ٧٢
الهجرة ٧٥
الفيوضات الإلهية ٨٠
في لزوم إزالة الحجب لتلقي الفيوضات الإلهية ٨٦
الحجب والموانع من نيل الأسرار الربانية ٨٩
بعض العادات التي توجب طمس نور الفطرة ٩٣
نعمة الامتحان والابتلاء ٩٥
مهلكات النفس وما يوجب الاطمئنان ... ١٠٠
علم التوحيد وعلم الفقه ١٠٤
التوحيد وحقيقته وأدلته ١٠٨
الرقي من الكمال أو الانحطاط في الرذائل ١٤٣
القلب والتجليات الإلهية ١٤٨
موارد تجليات الله تعالى لعباده. ١٥٢
أسباب تطهير النفوس المنحرفة ١٥٤
التخلية والتحلية ١٥٦
تهذيب النفس وإصلاحها ١٦٠
الطاعة ومراتبها ١٦١
من درجات الإيمان والاصطفاء ١٦٤
درجات الإيمان ١٦٧
من آثار الإيمان ١٧٠
الإخلاص ١٧٢
مقام الشهود أهم النعم للمخلصين ١٧٧
الصلاة من أهم أسباب تزكية النفس ... ١٨٠
نار الشهوات ١٨٢

العبودية ١٨٥
العبودية ١٨٨
أفضلية الأنبياء على بني البشر ١٩٠
اهتمام الرسول بأمر الرسالة ١٩٤
عدم إمكانية تحديد مخاطبة النبي مع الله تعالى ١٩٧
إمكان أن يكون غدو النبي من الأصل معراج آخر له (ص) ١٩٩
المباهلة ٢٠١
البيت ٢٠٣
تشريع العبادات في الإسلام ٢٠٥
الصلاة ٢١١
القرب من الله وسبل التقرب إليه عز وجل ٢١٤
مراتب التقرب ٢١٧
القتل ٢١٩
مقام الشهادة ٢٢٢
مقام الشهداء المجاهدين ٢٢٤
مراتب العلماء بالله ٢٢٧
إيجاب موالاة أعداء الله البعد عن الله تعالى ٢٢٩
بحث عرفاني يتعلق بالآية الشريفة ٢٣١
كمال الخلة بين الرب الجليل وإبراهيم الخليل ٢٣٣
النور ٢٣٥
ما يستفاد من بعض الآيات من لطائف عرفانية ٢٤٦
مراتب معرفة حقائق الموجودات ٢٥١
الإنسان أشرف الممكنات ٢٥٤
أعمال الإنسان وأفعاله ٢٥٦
ارتباط الممكنات مع خالقها وأقسامه .. ٢٥٨
عالم الدنيا ٢٦١
محبوبية طلاق الدنيا وأقسامه ٢٦٣
حب الدنيا ٢٦٥
السؤال من الله تعالى ٢٦٧
الإرادة والمراد ٢٦٨
الذكر وأقسامه عند العارفين ٢٦٩
الحب وأقسامه ١٧١
آية تشتمل على بحث عرفاني ٢٧٥
إحاطة الباري جل وعلا ٢٧٧
الحضور عند الله تعالى ٢٧٩
عدم الإكراه في الاستكمالات المعنوية . ٢٨١
الاستقامة في الحق وبالحق ٢٨٢
الإنفاق ٢٨٤
معية الله تعالى مع عباده ٢٨٥
الحوادث الواقعة ٢٨٩
الحلف بالحبيب ٢٩١
مراتب التفدية ٢٩٢
معرفة حقائق الأشياء ٢٩٥
عالم الأمر ٢٩٧
آية تشير إلى لطائف عرفانية ٢٩٩
ارتباط الإنسان مع خالقه ٣٠٢
أسباب الغواية عنه تعالى ٣٠٤
أدوار خلق الإنسان ٣٠٧